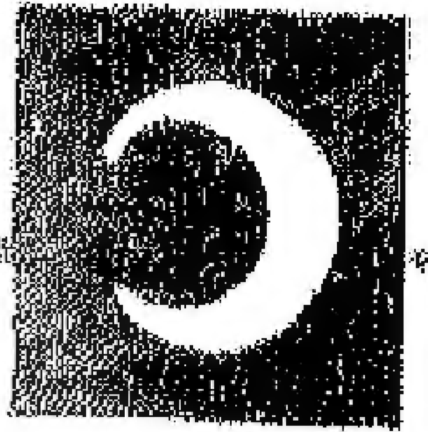
١٢ قرشا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

محمد رسول الحرية

عبد الرحمن الشرقاوى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٦٦ – رمضان ١٣٨٤ – يناير ١٩٦٥

No. 166 — Janvier 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

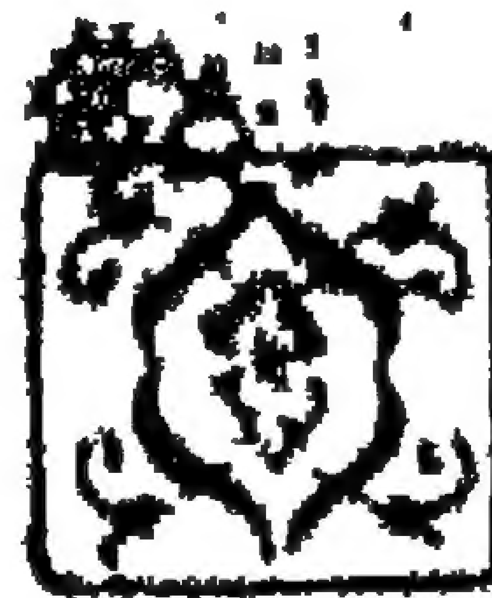
الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السـودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشـــا ســوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنه ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



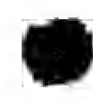
كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

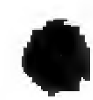
محمد

رسول الحرية



تأليف

عبد الرحمن الشرقاوى



دار الهلال

إهـــــداء

الى أبى .. الذى غرس فى قلبى
ـ منـذ الطفولة ـ حب محمـد

ولد الهدى

هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى ، بعد نضال طويل مع المصير ! لكأنه يولد — فجاة — من جديد ، بكل فتوته واشواقه واحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم ، وامله المعذب فى الخلاص !

لم تكن له حيلة فى كل ما حدث .. ولا حيلة لرجل فى مكة على الاطلاق لان المصادفة وحدها هى التى تخط أقدار الرجال ، والنساء .. ومن وراء هذه المصادفة العمياء يقف تمثال أصم اسمه مناة .. الهة بلا قلب ، هى التى تملك القضاء .. والى جوارها تمثال هبل : رب الارباب ، رب المصادفة والمصير والقدرة ، وشيخ مناة نفسها ، وشيخ زميلتيها اللات والعزى !

اية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الارباب ؟!..

أيملك هو ، عبد الله بن عبد المطلب ، أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التى تحرس الكعبة منذ القدم والتى يستمد منها أبوه عبد المطلب مبرر وجوده ، والتى ما زال يمتثل لها — مع أبيه — كل الملأ من قريش ؟!!

على أن المصادفة أنقذت حياته على اية حال بعد ما أوشك دمه ان يسيل تحت اقدام تماثيل الالهة الرهيبة ، التى تجرؤ على أن تحرم فتى فى مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة !.. وانه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب

ليمضى معه الى الدار بعد أن وهب الحياة مرة أخرى .. وكأنه يوسف .. الذى سمع قصته من فلسطين فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل !.. لكأنه يوسف يرتمى فى أحضان أبيه الصابر المضنى ليستمتع بدفء الابوة بعد طوافه الطويل المشرد فى أرض الغربة !..

وعبد الله اذ ذاك هو أصغر ولد عبد المطلب وأحبهم اليه .. وكان عبد المطلب قبل أن يرزق الولد قد تعرض لبلاء كثير ، وما من ولد يسانده ، حين هم بأن يحفر بئر زمزم .. خاصمته قريش فى البئر وآزرت عليه ، ولكنه استمر يحفر البئر وحده حتى تفجر الماء منها كما كان على عهد اسماعيل .. وبلل عبد المطلب جبينه من المـاء واتجه الى آلهة الكعبة فنذر لئن رضيت عنه الآلهة وولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى منعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة ، شكرانا وقربى !

فلما بلغ بنوه عشرة بمولد عبد الله ، وأدرك أصغرهم عبد الله مبلغ الرجال ، وتيقن عبد المطلب ان ولده مانعوه ، جمعهم ليخبرهم بنذره ، ودخل بهم على هبل كبير آلهة الكعبة وبدأ يجرى القرعة بينهم بضرب القداح ، لينحـر أحدهم وفاء بالنذر القديم !

وخرج القدح على الفتى عبد الله اصغر ولد عبد المطلب وآثرهم لديه ..

ولم يستطع الشيخ أن يصنع شيئا وقام الى عبد الله ليذبحه تحت قدمى هبل ، فخف اليه بنوه يحاولون أن يستخلصوا دم اخيهم ، ولكن عبد المطلب زجر بنيه جميعا ودفعهم بيده ، وهو يحذرهم من الاعتراض على قضـاء الآلهة !..

وتدافع اليه بعض صحابه الذين كانوا يجلسون فى

رحاب الكعبة والحوا عليه أن يتمهل لعلهم أن يروا رأيا ينقذ رأس الفتى عبد الله ، ويرضى هبل فى نفس الوقت !. ولكن عبد المطلب لم يصغ اليهم فانطلق صوت حانق فى وجه عبد المطلب : « لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » ..

كان هذا الاحتجاج نفسه يصرخ فى أعماق كل الآباء الذين التفوا بعبد المطلب ينصحونه ألا يذبح ابنه ارضاء لهبل .. وعرضوا عليه أن يفتدوا عبد الله بالمال .. ولكن لا ! .. الولد يجب أن يذبح تحت قدمى هبل مادام القدح قد خرج عليه !

كم من الصرخات تدوى الآن فى أعماق عبد الله ! انه ليرفض هذا القضاء ، ويرفض أباه ، ويرفض هبل نفسه ! .. ولكنه لا يقوى بعد على الكلام !

وطال الجدال بين عبد المطلب وبين صحابه فاقترح أحدهم أن يرحلوا الى عرافة يثرب فيسألوها قبل أن يذبحوا عبد الله ، عسى أن تقضى بأمر لهم فيه فرج ! .. وغدوا عليها من اليوم التالى فسألتهم عن دية الرجل فيهم فأجابوها : « عشر من الابل » فقالت لهم : « ارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم من هبل وقربوا عشرا من الابل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم »

وعادوا الى مكة مستبشرين .. وعاد عبد المطلب يضرع وهو قائم عند هبل ، وقد قدم ولده عبد الله ، وعشرا من الابل .. وضربوا القداح فخرجت على عبد الله ، فزاد الابل عشرة وعبد المطلب يدعو ، والقداح تضرب من جديد فيخرج القدح على عبد الله أحب ولده اليه فتزاد

الابل عشرة أخرى والقداح تضرب وعبد المطلب قائم يدعو .. حتى بلغت الابل مائة فخرج القدح على الابل !

ودوت في أرجاء الكعبة رنة فرح بنجـاة عبد الله ، وقام عبد الله يحملق في أبيـه واخوته ، والرجال ، والاصنام ، وكل ما حوله ، كأنه يرى العالم لاول مرة.. وصاح عبد المطلب فى نشوة : «انحروا الابل المائة جميعا واتركوها للآكلين لا يصد عنها انسان ولا سبع ! »

وينطلق عبد المطلب آخذ بيـد ولده عبد الله .. وها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى ، بعد نضال طويل مع المصير .. ودروب مكة تمتد أمامهما ، وهنا وهناك تتناثر بيوت أوصدت أبوابها على الطيبات والمتاع والغنى ،وكل ما يمكن أن يلهب وجدان شاب مثل عبد الله .. !

الى متى يا عبد الله يساق الرجل للذبح لان قدحـا طائشا أصم وقع عليـه ؟ ! .. ألان الآباء يريدون أن يشكروا الها يتعطش أبدا الى الدم ، يجب حتما أن تسقط رءوس الاولاد ؟ ! ..

ولكن عبد الله ـ ككل الفتيان فى قريش ـ لم يـكن يستطيع أن يرفع الرأس في وجه أبيه .. فأبوه يملكه كله : يملك حتى حياته ! .. وحياة أبيه نفسـها رهن بقضاء هبل ..

كان من الممكن أن تأمر عرافة يثرب بذبح عبد الله.. وما دامت هي التي اختصت بتفسير ارادة الآلهة ، ومادامت هي وحدها التى تستطيع أن تتعرف على ما يرضى تـلك التماثيل من حجر ، فما من أحد يجرؤ على المخالفة عـن أمرها .. حتى سراة قريش الذين حاولوا أن يفتـدوه بمالهم ؟

كيف الخـلاص اذن من هذا كله ؟ ! .. ولم يكد

عبد الله يمضى فى طرقات مكة ، مثقل الرأس بأحـــلام الخلاص ، ونظراته تتأمل فى نهم كل ما أوشك أن يحرم منه ، حتى لاحت له امرأة شابة بديعة الجسد فاخـرة الثياب ، بوجه كفلقة القمر ! .. وتأملته المرأة الصغيرة فى اقباله على الحياة التى عاد اليها الآن .. وحاولت بلا جدوى أن تقتنص نظراته التى يسطع فيها وهج الشوق الى المستقبل .. وهج غريب آسر !

وتخففت من بعض ثوبها فبانت اســـتدارة كتفيها ونصاعة نحرها ، وتقدمت الى عبد الله ونظراتها تقرأ على وجهه وفى أغوار عينيه سرا غامضا حبيبا مؤسيا ينزع بها اليه وابتسمت وهى تعترض طريقه .. وســـألته : « الى أين يا عبد الله ؟ »

فقال لها وهو لم يفق بعد من كل ما مر به فى الكعبة: « أنا أذهب مع أبى » .. فقالت وهى لا تحفل بوجـــود أبيه : « لك مثل الابل التى نحرت من أجلك ان تزوجتنى الآن » ..

وتأملها عبد الله فى حيرة .. وقد بدأ يســـتعر فى أطوائه ، شغفه بطيبات الحياة التى أوشك أن يحـــرم منها ! .. من تكون هذه المرأة التى تتعرض له فى الطريق، وتدعوه اليها جهارا دون أن تستحى من أبيه ؟! .. ليست هى من هذا الصنف من النساء الذى يتعرض للرجال فى طرقات مكة .. ان وجهها ، وما على جسدها من الثياب والجوهر وطريقتها فى الكلام ، وكل شىء فيها ينطـــق بأنها امرأة واسعة الغنى ، وذات اباء .. ولـــكنما فى عينيها الواسعتين الهادئتين حيث تطفو العفة والطيبة ، ترسب جذوة متقدة من الحساسية المرهفة والهيـــام الانثوى واللهفة أيضا ..

وبهاتين العينين العامرتين سألته الا يرفضها فيحرجها .. ولكن أباه جذبه من يده واندفع فى طريقه .. فقال عبد الله وهو يتبع أباه : « أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه »

وانطلق وراء أبيه ، وأوشك أن يستأذنه فى خطبة المرأة التى تعرضت له فهى امرأة صغيرة جميلة ، لم يعلم أحد عنها من سوء وانها لتقدم اليه مائة من الابل .. ولكن أباه كان قد قرر - منذ رأى اقباله على تلك المرأة - أن يخطب له فتاة بكرا من بنات أصحابه .. فقد كبر الولد ، وهو جدير بعد ما استرد نفسه من أظفار الموت بأن يحيا شبابه بكل ما فى أعوامه السبعة عشر من عنفوان ..

وبدلا من أن يعود عبد المطلب بابنه الى البيت ، عدل عن طريقه ، ومضى الى دار وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة فخطب ابنته آمنه لابنه عبد الله .. ووافق وهب .. وتزوج عبد الله وآمنة فى نفس اليوم .. كان عبد الله قد جاوز السابعة عشرة بقليل ، وآمنة أصغرمنه بنحو عامين

وفى صباح اليوم التالى خرج عبد الله من عند زوجته آمنة بنت وهب واتجه الى الكعبة .. وفى الطريق الى الكعبة قابل الحسناء التى عرضت عليه نفسها بالامس ، ونظر اليها فلم تكلمه .. وابتسم فأعرضت مغضبة . فقال لها : « مالك لا تعرضين على ما كنت عرضت بالامس ؟ » فأجابته بجفوة : « فارقك النور الذى كان معك بالامس فليس بى لك اليوم حاجة » .. وانصرف عنها وهى تهمهم :

فلما قضت منه أمينة ما قضت
نبا بصرى عنه وكل لساني

كانت مكة فى تلك الفترة من القرن السابع الميلادى مدينة كبيرة مزدهرة أعدت منذ زمن بعيد لتكون محطة للتجارة ، وزودت بكل مايصلح لاستقبال التجار واقامتهم ·· وكانت تقع فى شمالها دولة للفرس ودولة للروم ·· دولتان تعيشان فى حرب مستمرة ، وتستنصر كل واحدة منهما على الاخرى بأعراب أطراف الصحراء · واذ كان انتظام القوافل يحتاج الى تأمين المواصلات ، فقد أثرت الحروب المتصلة بين الروم والفرس على خطوط القوافل التى كانت تخف بألوان البضائع من أدنى الارض الى أقصاها تحت تهديد حروب الفرس والروم والقبائل التابعة لهذا الفريق أو ذاك ··

وهكذا بدأت مكة تتحول من محطة تجارية تستريح عندها القوافل الى مركز تجارى تصدر اليه القوافل وترد ، حيث تقام أسواق ضخمة يتبادل فيها التجار من مختلف أنحاء البلاد بضائع آسيا الوسطى والشام واليمن ومصر والهند والعراق والحبشة ، والفرس والروم ·· ثم أخذ تجار مكة فى تجهيز القوافل لحسابهم الخاص··

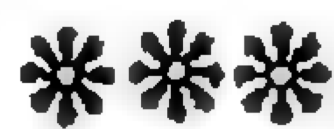
واذ كانت مكة فى واد غير ذى زرع ، فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية فيها على التجارة· واصبحت يومابعديوم مدينة تحكم التجارة فيها كل العلاقات الاجتماعية ،وأقيم بناؤها الروحى والدينى والثقافى على أساس البيع والشراء والربح ·· وأصبح التجار فيها هم الحاكمون ·· التجار الكبار هم الملأ الاعلى ·· فهم ينشئون القواعد ويفرضون التقاليد التى تصون لهم مصالحهم فى المعاملات

وهكذا قضوا بأن من مات فى مكة من التجار الاغراب ورثته مكة ·· ورثه الذين كانوا يتعاملون معه فى مكة من تجار قريش !

أصبحوا هم المالكون وهم الوارثون ! وقضوا على من يستدين أن يقدم الى دائنه رهنا عزيزا عليه ..

كان الرجل أحيانا يرتهن ولده أو امرأته أو نفسه ، فاذا حل موعـــد أداء الدين وجب على المدين أن يدفع أضعاف ما استدان . فاذا عجز ، تحول الرهينة الى عبد يملكه الدائن ويستثمره كيفماشاء ..

وأقام الملأ من مكة آلهة فى داخل الكعبة يعبدونهـــا جيلا بعد جيل ، ويقومون هم وحدهم على خدمتها وعلى الاستفادة منها ، وينزلون على حكمها ويسألونها البركة في البيع والشراء ويذعنون لقضائها .. وعينوا كهنـــة وعرافين يختصون بتفسير ارادة التماثيل الصماء التـــى أقاموها رموزا لآلهتهم ..



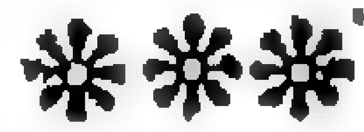
وعاما بعد عام امتلأت الكعبة بأصنام ترمز الى الآلهـة التى تعبدها كل القبائل التى تتعـــامل مع مكة ! .. وأصبح أهل مكة جميعا اما تجارا يستوردون ويصدرون ويبيعون لاهل الواحات والمـــدن المنتشرة فى الجزيرة العربية ، واما وسطاء فى المبادلات بين التجار العابرين، واما أصحاب مصارف يوظفون أموالهم فى اقراض التجار الصغار نظير حصة من الارباح .. واما مرابين يكسبون من الربا ..

وهؤلاء جميعا هم الذين يملكون الثروة فى مـــكة .. وهم يملكون الى التجارة والاموال ، بساتين فى الواحات المجاورة تنتج النخيل والاعناب وتربى فيها الخنـــازير وتستقطر من ثمراتها الخمور

والى جوار هؤلاء المـــالكين ، يعيش عشرات الآلاف الآخرين أجراء فى المزارع البعيدة ، أو عمالا فى القـــوافل

والمصارف والمتاجر .. أو بلا طعام !

وكانت تجارة مكة تشمل كل البضائع التى عرفها الناس حينذاك ، وتمتد خطوط القوافل الى أعماق اسيا وافريقيا وأطراف البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى .. واذ كانت القوافل الفنية الضخمة تقطع المسافات الشاسعة وتتعرض لغزوات البدو وهجمات قطاع الطرق فى بلاد مختلفة ، فقد آثر سراة مكة ان يشتروا العبيد من أفريقيا ويدربوهم على السلاح ليقوموا على حراسة قوافلهم وتجارتهم فى خارج مكة وداخلها .. وهكذا اصبح لمكة جيش وشرطة ..



وكان هؤلاء التجار من كبار المرابين ، ومن اصحاب القوافل والمصارف والبساتين والمتاجر والمراعى والخمارات ، هم الذين يتوزعون مناصب مكة فيما بينهم

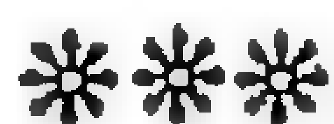
والعرب يعتبرون مكة عاصمة لهم ، فهى أم القرى عندهم جميعا .. هى المركز التجارى الكبير الذى يمثل عصب الحياة ، وهى تضم البيت العتيق الذى أقيم للناس مباركا .. وهى بوضعها الاقتصادى : العاصمة الضخمة المرموقة ! ومن أجل ذلك جمعت كعبتها آلهة الجزيرة كلها ، ليحج اليها العرب من كل مكان . واصبحت مواسم التجارة فيها هى مواسم الحج الى كعبتها .. وكانت هذه المواسم تقام فى أسواق داخل مكة .. على انها بدأت تضيق يوما بعد يوم بالوافدين اليها ، فاقامت مكة فى ضواحيها أسواقا اخرى كان اعظمها سوق عكاظ ..

وفى الحق ان سوق عكاظ هذا كان مهرجانا كاملا تشترك فيه كل القبائل العربية ، لا سكان مكة من قريش وحدهم .. كان الملوك والامراء يأتون الى سوق عكاظ

من اطراف الجزيرة العربية حيث تعرض سلع الفرس والروم وسلع بلاد اخرى كثيرة ، وتقام فيه المنابر ويتبارى الشعراء العرب ، ويختار من قصائدهم ما يجدر بأن يعلق فوق الكعبة ليعيش فى التاريخ باسم المعلقات .. وفى عكاظ كان يقضى بين الناس وتعلن القبائل فيه تخليهـا عن فجارها ، فلا تحتمل جريرة احدهم ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه ..

وفى عـكاظ كانت تقـام أســـواق الرقيق من كل الجنسيات : الحبشيات السود ، والروميات البيض ، والهنديات ، والمصريات ، والفارسيات السمر .. ونساء وسط آسيا . وكان عكاظ فرصة للضعفاء يستصرخون فيه من ينجدهم لمقاومة من لا قبل لهم به من قطاع الطريق الذين يعدون على مضارب القبائل الصغيرة ..

وفيه يهدر دم الغادر ..

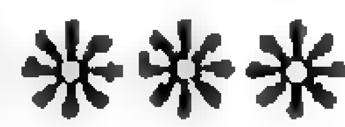


كان سوقا عجيبا التجارة وتبادل الثقافة والمتاع .. يقف فيه الى جوار الشعراء الذين يتحدثون عن انسابهم ومفاخر أقوامهم ، رهبان ثائرون على سلطان كنائسهم ، ويهود يتلون ما لديهم من الكتاب ، وقرشيات شريفات يتعرضن للرجال ينشدن الازواج ، وكهان يلقون ما انتهى اليهم من حكم الهند وفارس من خلال جملهم المسجوعة ، وملوك وأمراء يبحثون عن البضائع والجواهر النادرة ، وخمارون ، ومبشرون ، ونخاسون واســـعو النفوذ ، وصعاليك عظام ، وتجار كبار ، ونساء غزلات ، ومؤرخون نسابون !

ولكن مكة لم تكن كلها تعيش هذه الحياة البـاهرة الزاهية من الكسب والمتاع والغزل .. فلم تكن مكة كلها

من التجار الاغنياء .. ولم يكن البيت الواحد فيها يضم رجالا أثرياء فحسب ، فقد كان للتاجر الكبير أحيانا أخ فقير مدقع .. وفى بنى هاشم قبيلة عبد المطلب ، كان هناك الفقراء المعذبون والاغنياء الفارهون ..

ومن بين تجار مكة كان هناك من يملك آلاف الآلاف .. من يملك القوافل والمصارف والبساتين فى الواحات المجاورة حول الطائف .. وكان هناك أيضا من يستدين ويستدين ليتجر او ليعيش .. ولم يكن التاجر الصغير الذى يستدين يربح دائما .. فلئن خسر ماله او عجز لاى سبب عن اداء دينه ، لقد وقع فى الشرك اذن ! .. كان عليه ان ينزل للدائن عن حريته ، فيعمل عبدا للدائن حتى يقتضى منه الدائن ماله ..

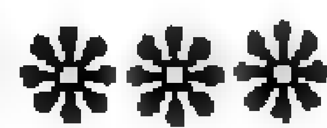


وكان الدائن يحسب دينه أضعافا مضاعفة عند حلول اجل الدين ، وهكذا كان المدين ينزل عن حريته سنوات وسنوات .. وربما أصبح عبدا الى آخر العمر .. يملكه سيده الدائن كما يملك أى متاع آخر .. فما للعبد أى حق من حقوق الانسان .. وكان بعض الدائنين يفضلون أن يقتضوا تعويضا عن ديونهم بطريقة أخرى اذا عجز المدين عن الدفع ربما لاتكون لهم حاجة باستعباده ، أوربما تزوغ عيونهم الى ما عند المدين من نساء .. وهكذا كان المدين ينزل للدائن عن زوجته أو عن امه أو عن ابنته او عن زوجة أمه .. فيتسلمها الدائن لا ليستمتع بها هو وحده فحسب .. فقد كان من حقه بعد أن يستمتع بها ، ان يلحقها بأحد بيوت اللهو الكبيرة التى كانت ترتفع عليها رايات خاصة .. وفى هذه البيوت التى أحسن اعدادها بالاثاث الفاخر وعمرت بالخمور ، وضمخت بالبخور والصندل

وعطر اللبان .. فى هذه البيوت الفاحشة الترف ، يلتحق نساء المدينين ، بالتجارة الشائنة التى تجلب لها الفتيات البيض والسود والسمر من كلّ بلاد الارض ، ليبعن المتاع للتجار الوافدين أو لمن يدفع الثمن من فتيان قريش الاثرياء ..

ويقتضى الدائن دينه مما تكسبه امرأة الدائن او ابنته فى هذه المهنة الشائنة فاذا استوفى دينه أعاد الفتاة الى اهلها ! وكم من رجال احنوا رؤوسهم أمام هذا العـــار واستسلموا له ! .. وكم من رجال آخرين خشوا أن تأتى عليهم أيام تمرغ أنوفهم فى هذا الوحل ، فتخلصوا من بناتهم ووأدوا البنات بعد الولادة على الفور !

على أن من رجال مكة من رفض العبودية والعار ، فهرب الى البادية بعيدا عن ضجيج الحياة الفاسدة ، وانطلقت منه صرخات احتجاج تلعن مكة ومظالمها واسلوب الحياة فيها .. وكان هؤلاء الرجال الهاربون من اسلوب الحياة فى مكة يكونون جماعات فى البادية تنتزع لقمتها بحـــد السيف ، وتهاجم قوافل الاغنياء ، وتحترف القتل ، وتنشىء فى الواحات الصغيرة المستظلة بالمرتفعات الوعرة ، دولة الصعاليك والفتاك .. دولة وضـــعت تقاليد لمبادىء الفروسية فى التعامل .. وكان لهم شعراء ينبض مـــن خلال شعرهم ، الحلم الدائم بالخلاص ، والامل المبهم فى العدل



ولم يكن التشريع الذى تضعه السلطات الحاكمة فى مكة يهتم بغير مصالح تلك السلطات . وأصحاب السلطة والحكام كلهم من التجار الكبار أصحاب رءوس الاموال ، أو أصحاب المزارع البعيدة التى تربى فيها الخنازير ،

وتستقطر فيها الخمور .. كانوا من أصحاب المصارف والمرابين وملاك الخمارات وبيوت اللهو الضخمة .. ومن أجل ذلك فما كان التشريع فى مكة ليهتم بأحد غير هؤلاء الملاك الكبار الحاكمين ..

وما كان التشريع ليهتم بشيء الا بما يمكن قبضتهم على رقاب العاملين والمدينين ، وبما يمنحهم المتاع والجاه واللذة وكل مايزهو به القلب الأجوف ! .. وكان الرجال اذ ذاك يزهون بما يمتلكون من عبيد ومال وبما يشربون من خمور ، وما يقتلون من مستضعفين ، وما يمتلكون من سطوة وهيبة ونساء ..

كان المال والآلهة والكعبة والمتاع للسادة ، وأما الفقراء الذين وقعوا فى الشراك .. اما الذين سقطوا بغتة من قمة كبرياء الحياة اليومية الموفورة ، تحت ضربات الحاجة

أما هؤلاء جميعا فقد ألقى بهم بعيدا عن الكعبة ليعيشوا فى حى نأء عن الآلهة ، بعيدا عن قصور السادة المحيطة بالكعبة .. بعيدا .. على حافة الصحراء .. فى العدم .. حيث لا يملكون شيئا بعد غير الذكريات ، وأحلام الخلاص ! ..

وفى هذا الظلام الجائر العقيم المضنى .. فى هذا الليل الرهيب الداجى .. ولد الهدى : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

هذا اليتيم !

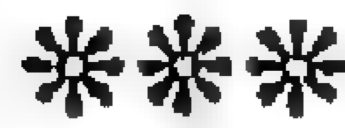
عندما يقبل الربيع من كل عام على جزيرة العـــرب ، ترتفع أعواد الحنطة فى حقول اليمن ، ويورق الكرم فى أرض الطائف ، ويمتلىء الفضاء بشذى البساتين ، وينبت الكلأ فى الوديان المترامية ، وتتوج بشائر التمر الاخضر هامات النخيل فى يثرب . .

أما فى مكة فالربيع يقبل دائما ليؤذن ببداية الحــر ، وبالاستعداد لرحلة الصيف . وقد ألفت قريش رحلة الصيف الى سوريا ، ورحلة الشتاء الى اليمن . . وايلافهم رحلة الشتاء والصيف لم يكن يمنعهم من الترقب والترصد والاحساس بالقلق على مصير شبابهم الذين يخوضون فى الصحراء تحت شمس لاترحم وليال تصــفر فيها الريح بعواء كائنات من عوالم غريبة . . !

ولم تكن آمنة بنت وهب فى ذلك الربيع من سنة ٥٧٠ تحب لزوجها عبد الله أن يخرج مع القافلة . . فقد دهمها خوف غامض عليه ، وتمنت لو أنها تستطيع أن تمنعه . . كم تحبه وتشعر بالامن الى جواره ويمتلىء قلبها بالرضا عن نفسها كلما ســـمعت أن زواجهـــا منه مـلأ قلوب الفتيات بالغيرة . . !!

ولكن عبد الله بن عبد المطلب لم يكن يملك فى بيته غير خمس رؤوس من الضأن يقتات هو وزوجته الحامل من البانها ، ولم يكن فى البيت بعد ذلك ما يأكله الزوجان

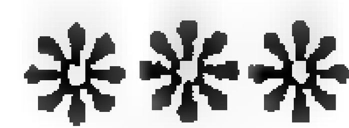
الصغيران الا بقايا قليلة من تمر ، وقديد .. وهمــــا الآن يستقبلان مولودهما الاول ! .. وليست لعبد الله تجارة يعتمد على ربحها ، وليس لابيه ـ على علو قدره ـ فائض من مال ، وهو بعـــد فتى فى الثامنـــــة عشرة قـــوى الذراع !



وخرج عبد الله يطلب رزقه ، ليعود الى زوجته آمنـــة فيمـــلأ بيتها بالخير الوفـــير ، ويستقبل معهـــا المولود الجديد ..

ليكن غلاما يشد ساعدك يا عبد الله ، ويسعى معك فى رحلة الشتاء والصيف ! وليكن له اخوة عشرة تستقوى بهم فى قريش ! .. لكم كنت تريد أن تقيم مع زوجـــك امنة حتى تضع ولدها ، ولكنها توشك ان تضعه وأنت ما تزال فى البلد النازح ! .. لشد ما يعبث بك القضاء !. ولكنها ارادة آلهة الكعبة ! ..

عندما كنت صغيرا اوشكت ان تذبح ليرضى كبير الالهـــة عنك وعن أبيك ، ولكن الآلهة قبلت فيك مائة بعير .. مائة بعير افتدت حياتك ، ولو أنها لديك الآن لاصبح لك فى قريش شأن اخر ، ولما اضطرتك الحاجة الى أن تترك زوجـــة وحيدة .. تضع لك طفلك الاول وأنت بعيد ! ..



وها هو أنت ذا تضرب فى الارض من أجل الرزق .. بعيدا عن مكة البلد الذى ولدت فيه واخترته للحيـــاة ، وتتمنى أن تستلقى تحت ترابه بعد عمر طويل حافل ! .. ولكن مكة الان بلد يغشاه الوباء .. لتنقذ الآلهة مولودك من هذه الغاشية ! جاء الوباء مع أبرهة ملك الحبشـــــة الذى أراد أن يستولي على مكة ويهدم الكعبة .. الم يسمع

أبرهة أساطير الاولين ؟ . ألم يسمع ما يقوله الرواة فى طول الجزيرة وعرضها عن ابطال كانوا اشد منه بأسا حتى لقد أخافوا الجن ، وشقوا الظلمات بسيوفهم ، وسيطروا على الريح ، ثم استكبروا على آلهة الكعبة فطاردتهم اللعنة ، وقضي عليهم أن يعيشوا فى التيه مئات السنين !! .. ولكن أبرهة لا يعى ، وانه ليستعلى على الدنيا بحيوان ضخم اسمه الفيل ، تجفل الخيل منه ، ويفر من أمامه الشجعان ، وانه ليقرع أبواب مكة بجيش يتقدمه هذا الفيل !! .. لكم كان أبوك عبد المطلب حكيما يا عبد الله ! .. هو حكيم ورائع ولا يخطىء ابدا ، أبوك الشيخ هذا .. تداعت قريش كلها الى القتال ، فأدرك عبد المطلب أنهم لا قبل لهم بجيش أبرهة وبالفيل ، فناداهم ان يخرجوا بنسائهم وأطفالهم الى شعاب مكة حتى يزول الكرب ، اما الكعبة فلها أرباب تحميها .. وفى قصص الاولين عبرة ! .. ولم يكد جيش أبرهة يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذى كان يعصف بمكة ، فاذا برجال ابرهة يتساقطون مرضى بالجدرى ، ومعهم أبرهة نفسه ، وما أغنى عنهم الفيل ! .. وهكذا فر أبرهة عائدا الى صنعاء بفلول جيش ممزق يتخاطف الوباء والموت من بقى من رجاله ، فيتهاوون على الطريق كعصف مأكول ، بينما عاد أهل مكة من شعاب الجبل يهللون ، ومن بينهم أبوك ، وامنة .. زوجتك امنة بحملها يا عبد الله .. !

حدث هذا منذ نحو شهر ، وأنت بعيد ، وما زلت تضرب فى الارض بعيدا عن مكة وابيك ، بعيدا عن آمنة وحملها الذى تنتظر مقدمه ، منذ أشهر ! ..

متى تعود لتعيش بقية العمر آمنا فى بيتك ــ يا عبد الله ــ وحسبك من غنى شبع ورى ؟! .. ولكن عبد الله لم يعد ، فقد مرض ورقد عند اخواله بنى النجار ..

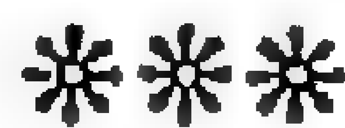
وكان قد مضى خمسون يوما على اندحار أبرهة وجيشه والفيل .. وزحف شهر ابريل على مكة بحرارته ، فوضعت آمنة حملها .. وجاء ولداً ..

وحرصت آمنة على ألا يراه أحد قبل أبيه ، ولكن أين أبوه الآن ؟ ! .. واذن فان يراه أحد قبل جده عبد المطلب! وأمرت امنة ان يلقى على الطفل شيء يستره .. ثم أرسلت الى عبد المطلب من يقول له : « قد ولد لك غلام فأته فانظر اليه » .. فقام عبد المطلب اليها ، فكان هو أول من نظر الى وجه حفيده .. الذى اختارت له أمه اسم محمد ، لكي يحمد حمداً بعد حمد ..

وأخذ عبد المطلب حفيده بين ذراعيه فرحا به ، ودعا له، وقام يلتمس له من ترضعه .. فوجد « ثويبه » جارية ابنه أبي لهب ، فأرسلها الى آمنة ترضع عنها الوليد ، وأرضعته ثويبه عدة أسابيع .. وأمه تنتظر عودة أبيه ..

دفعت آمنة بطفلها الى ثويبه لكي تفرغ هي لزوجها ــ عندما يعود ــ بكل نفسها وبكل ما يمتلكه منها ، كما تعودت الزوجات في ذلك الزمان .. وظلت تحلم وتنتظر الزوج الغائب ..

أما عبد الله فقد اشتدت عليه العلة ، ثم انطفأت جذوة الحياة في صدره .. أغمض عينيه على امل متلهف أن يعود الى مكة فيرى امنة ، وابنه منها ، وعلى حلم غامض بالخلاص من الحاجة التي تسحق حياة الرجال ..



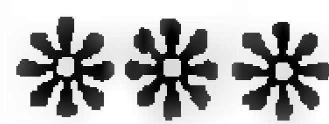
وعرفت الارملة الصغيرة بنت السادسة عشرة ان زوجها وفخر حياتها ، سيظل الى الابد تحت ثرى بعيد في بلد نازح ذهب اليه يبحث عن الرزق .. ولن يتاح لها مدى الحياة أن تراه .. ولا أن تبلل ثراه بالدمع ، ومع ذلك فمن حزنها

فى مكة تمتلىء بيوت الملأ بالمسرة والغنى وكل ما يمنح القلب احساسه ألمتع ببهجة الحياة ! ..

ولم يكد عبد المطلب يمسح دموعه ويستمسك من حزنه الفاجع على أحب ولد اليه ، حتى ضم اليه اليتيم وأمه

ورأى أن يرسل حفيده اليتيم الى بادية بنى ســـعد ليرضع هناك وينشأ ويتعلم فى البادية اول الكلمات فيكون هذا افصح للسانه واجلد لجسمه ·· وكان نسوة من «بنى سعد » يقبلن الى مكة ليلتمسن الرضعاء فى السنين العجاف ·· وكانت تلك السنة قاسية على قبيلة بنى سعد ، فقدم النسوة الى مكة ، وعرض عبد المطلب على كل واحدة منهن ان ترضع محمدا فما قبلت واحدة ·· كل امرأة منهن تقول: « انه يتيم فما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ » ··

وكل مرضع تطمع فى كرم أب الطفل الذى ترضعه .. وأوشكت القافلة أن ترجع بالنسوة محملات بالرضعاء .. وكانت حليمة هى المرضع الوحيدة التى لم تجد طفلا ، فقالت لنفسها : « انى لاكره أن أعود من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه »

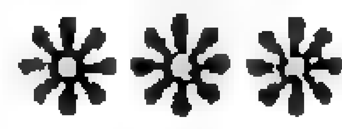


وعادت به حليمة ترضعه ، ليفخر هو بهذه النشأة فى بنى سعد ، بعد سنوات طوال .. اذ يقول لاصحابه «أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .. استرضع فى بنى سعد بن بكر ، وظل بها حتى بلغ الفطام ، ولكن جده لم يشأ أن يعيده ، واستبقاه فى بنى ســـعد حتى بلغ الخامسة من عمره ، وهناك تعلم أول الكلمات وتفتحت أذنه منذ الطفولة على النطق العربى الفصيح .. وهناك رعى الغنم مع أخيه فى الرضاعة

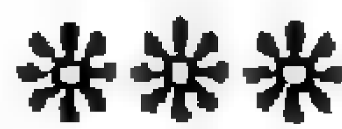
وقدمت به حليمة الى مكة فى السن التى يصلح فيهـا

اطفال ذلك الزمن للعمل وقد تجاوز الخامسة بشهور..
ولم يكد يبلغ مشارف مكة حتى خاض فى الزحام بكل لهفته الى البلد الذى ولد فيه، والذى تعيش فيه أمه وعشيرته وجده . فبحثت عنه حليمة فلم تجده، فأقبلت على عبد المطلب جزعة تقول : « انى قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى فما أدرى اين هو؟ »..

فقام عبد المطلب يدعو آلهة الكعبة ان ترده فلا يضيع أثر ابنه عبد الله . وما هى الا أن أقبل ورقة بن نوفل يمسك محمدا بيده وقال لعبد المطلب : « هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة » .. وهش عبد المطلب لحفيده وجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعيذه ويدعو له ، ثم أرسله الى أمه آمنة ..



وبعد عام واحد ، خرجت آمه به لتزيره أخواله المقيمين فى مضارب بين مكة ويثرب .. ولبثت هناك حينا ، ولكنها لم تعد الى مكة ، فقد ماتت على الطريق ودفنت مكانها . وخلفت وراءها غلاما يتيما فى السادسة من العمر .. ام ير اباه أبدا ، ولم يستمتع بالحياة فى احضان امه .. لم يرها بالقدر الكافى ، ولم تعلمه أولى الخطوات ..لم تسانده ليمشى ، ولم يتلق عنها الكلمات وأسماء الاشياء .. ولهو يوشك ان يستريح الى أحضانها اذ بالموت ينتزعها منه ويتركه وحيدا فى فضاء شاسع رهيب ! .. ما هو هذا الموت اذن ؟! .. وما الحياة ؟!



وكفله جده عبد المطلب .. لكانه قد ولده مرتين .. هو ذا أخيرا يرعى ابن عبد الله أحب ولده اليه !.

وكان عبد المطلب قد تعود ان يستظل نهارا بالكعبة

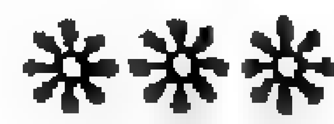
على فراش مرتفع ، فكان بنوه يجلسون حول فراشـــه ذاك حتى يقبل هو اليه ، لايجلس منهم احد على الفراش اجلالا لمقام ابيهم ، فيأتي محمد ــ وهو غــلام صغير ــ فيثب الى الفراش ويقعد ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه. فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : «دعوا ابني..».. ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ..

ويمضي عمه الزبير بن عبد المطلب وهو من أظرف فتيان قريش فيداعبه أو يضحكه .. على أن هذا الحنان الدافق الذى مسح به جده جراحات يتمه ، لم يدم له طويلا ، فما بلغ الثامنة من عمره ، حتى شعر جده أنه يمــوت .. سيموت عبد المطلب ويترك حفيده وحيدا فى الدنيا العريضة بلا مال ، ولا أب ، ولا أم ..

ودعا عبد المطلب اولاده فأوصاهم بحفيده اليتيم ،وقضى أن يكفله عمه أبو طالب فهو ــ وحده ــ شقيق ولده الراحل عبد الله ولدتهما نفس الام ..

وأوصاه به ، ومات عبد المطلب .. وانتقل الغلام اليتيم الى بيت عمه الشقيق أبى طالب ..

وكان أبو طالب كثير العيال ، لا يكاد يربح الا ما يكفيه هو وأهل بيته .. وكان فى كثير من الاحايين يضطر أولاده الى العمل ــ على صغر سنهم ــ ليكسبوا طعامهم الناقص بعرق الجبين ! ..



وما كان أبو طالب يحب ان يغامر فيستدين ! ..

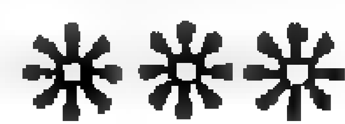
وأقام محمد عند عمه يضنيه شعور بالغربة ، على الرغم من حرص عمه عليه ، واحتفال بنى عمه به .. ولكنــه ظل على احساسه بالوحدة ، فاذا وضع الطعام له وللصبية

من أولاد أبى طالب امتدت أيديهم وانقبضت يده استحياء ..

على أنه ألف الحياة فى دار عمه يوما بعد يوم .. وكان لابد له أن يعمل ليأكل كما يعمل أبناء عمه ليأكلوا .. فرعى الغنم ، وخرج مع الرعاة الآخرين يلتمسون الكلأ فى مواضعه خارج مكة ويعودون مع الليل .. وذات صباح علم أن عمه ابا طالب سيخرج فى رحلة الصيف الى الشام . وتشبث محمد بعمه ، ولكن عمه نهره ، فهو صغير بعد لا يصلح للخروج مع القوافل فى سفرها الشاق .. وكانت هذه هى أول مرة يفارق فيها عمه منذ كفله ..

وسأله محمد مرة أخرى ألا يتركه فى مكة ، فلمن يتركه اذا سافر ؟! .. ورق له قلب أبى طالب فأقسم ليخرجن به ولا يفارقه أبدا !

كان محمد يتوق الى هذه الرحلة فى الارض البعيدة ، فقد ثقلت عليه الحياة بمكة حيث لا حرمة لشىء : الصغار الفقراء يعملون معا وهم عراة لا يستحيون .. وبيوت السادة تغلق أبوابها كلما أقبل الليل على تأود الراقصات والصخب الماجن .. والخمر تسيل بلا حساب مستنزفة عرق رجال طيبين مثل أبيه .. رجال يعيشون ويموتون وهم يبحثون عن الرزق على حين يتضاعف ثراء التجار الكبار الذين يعيشون فى صلف ماجن مستبد ، يحرسهم العبيد الذين هم بشر أيضا .. بشر كالسادة !



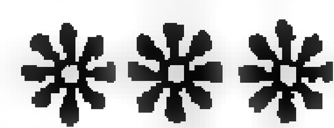
ومن خارج هذه البيوت التى يمتص اصحابها دم المستضعفين ، كان محمد قد عرف بيوتا أخرى ذليلة تغلق أبوابها على رجال تعساء تلتقط آذانهم صدى الضحكات الخليعة التى يحملها سكون الليل ، وكل واحد منهم يخشى

أن يصبح فتضطره الحاجة الى ارتهـــان ابنته أو زوجته لتنضم الى ذلك القطيع من الرقيق الأبيض أو الأسـود الذى يقدم للتجار الكبار وضيوفهم متاع ليال كاملة ..

وفى الرحاب الشاسع من أرض مكة .. خارج هـــذه البيوت وتلك .. بعيداً عن الصخب الداعر والمأساة .. كان يجتمع رجال وفتيان لم يقعوا بعد فى فخاخ الدائنين .. يعيشون بالقليل ، مثقلين بأحلام المعجزة التى يجب أن تقع .. فالمعجزة وحدها هى التى تستطيع أن تستخلص مكة من عنت المتجبرين ! ..

كان هؤلاء الرجال والفتيان يجتمعون فى ساحة حول رجل يروى لهم حكايات تلهب خيالهم المعذب ، وتلقى الامن فى القلب المضنى ، وتثير الامل فى النفس التى يروعها القلق وسلطان الحاجة والخوف الدائم من المجهول ! .. أساطير مثيرة عن ابطال قدماء ، وعن جبـــابرة هووا من عليائهم ، وعن مستضعفين امتلكوا حياتهم ، ومصيرهم ، وتاريخهم نفسه بعد طول المعاناة !

كان محمد قد شهد كل هذا ، وقد ضاق بصور الحياة من حوله .. وكان قد شعر ايضا بأن عمه أبا طالب ، اذا مضى مع القافلة وتركه ، فسيبقى هو وحيدا فى مـــكة المتلاطمة بصراع التجار مع المستضعفين ، وحيدا .. أشد وحدة من أى وقت مضى !



وخرج محمد مع القافلة فى صحبة عمه الى بـــلاد الشام ، وهو اذ ذاك غلام فى الثانية عشرة .. وفى بلاد الشام رأى مثلما رأى فى مكة : قطعـان العبيـــد تزجى كالاغنام .. الرجل يمتلكه غيره .. المصير معلق بكلمـــة ينطقها السيد .. كبار يملكون التجارة والارض وكل شىء،

والآخرون يسامون بلا حـــــق فى أى شىء .. حتى فى الشكوى !

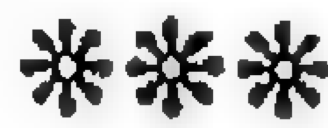
لكم روعت كل هذه الاشياء قلبه، وهو فى مكة ..ولقد سمع أن رجالا من مكة رفضوا هذا كله وخرجـــوا على قومهم .. منهم ورقة بن نوفل الذى كان قد عرفه وهو صغير ضائع فى مكة .. ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى أعلن صرخة احتجاج فى وجه قوى الظلام ولعن اللات والعزى وهبل .. وتوقع الناس أن يصاب بالبرص .. كما يحدث لمن يلعن الآلهة .. فلم يحدث له شىء ، وظـــل يطالب تجار قومه بأن يعدلوا مع من يتعاملون معهم ، فبـــدأوا يتعرضون له .. ومنهم زيد بن عمرو الذى طالب الرجال الا يئدوا البنات .. وحثهم على أن ينقذوا انفســـهم من العار فلا يسلموا المرابين أجساد النساء وفاء للديون .. ولكن المستضعفين لم يستطيعوا أن يستجيبوا له ونفـاه التجار الكبار الى خارج مكة ..

التجار فى مكة هم حماة أوثان الكعبة التى تقضى لهم باذلال الآخرين .. أما هنا فى الشام فالامر مختلف .. هنا المسيحية : فما بال الرجل يلطم اخاه على كل خد ، ويأخذ ما ليس له ، وما بال المستكبرين هم وحدهم الذين يستمتعون بالحياة ، كأنما هى ملك لهم هم وحدهم ، وما بال الخيرين يحترقون فى كبرياء الاشرار ؟!

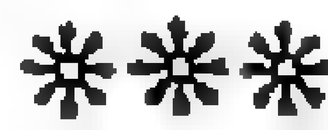
وعاد الى مكة مع القافلة بعد ما التقى براهب نصرانى فى الطريق .. ولقد أعجب به الراهب وأثنى عليه ودعاه الى طعامه مع الكبار حين حاول الكبار أن يؤخروه .. عاد يرعى الغنم ، ويطوف بالكعبة .. والايام تتقدم به الى أول الشباب

انه الآن يتقدم الى السادسة عشرة ، وما زال يرعى الغنم ثم يعود ليطوف بالكعبة ، ولكنه لاينام هادئاكماينام الذين يجهدون من العمل مثله طوال النهار .. فهو يفكر فى أبيه الذى قتله السعى على الرزق ، وفى أمه ، وجده ، وفى عمه أبى طالب الفقير وأعمامه الآخرين الاغنياء ،ويشرد الى ما رآه فى الشام !

ثم يعود ليتذكر المبشرين الذين نفتهم مكة ، لتحتفظ بأسلوب الحياة فيها ، وبأصنام الكعبة .. ! وانه ليعجب من صمت (الاصنام) فيها على ما يجرى هنـــاك تحت عينيها .. أية آلهة هذه !



ففى الكعبة ، رأى الرجال يطوفون عراة ، والنســـاء يطفن بأثواب شفافة تكشف أكثر مما تستر ، ويثرن بها الرجال أكثر مما لو طفن عاريات ! .. ورأى بعض الرجال يلتصق بالنساء أمام آلهة الكعبة .. وآلهة الكعبة مغمضة العينين ! .. ان هذا ما زال يحـــدث على الرغم من أن الجميع يؤمنون أن من بين أحجـــار الكعبة ، يقف رمزان لغضب الآلهة على من يفسقون فى الرحاب المقدس : فقـد بغى رجل بامرأة داخل الكعبة فمسخا حجرين ! .. هكذا يعتقد الكل ، ولكن رجالا ونسـاء منهم ما زالوا يدخلون الكعبة ويختفون وراء تماثيل الآلهة ليمارسوا البغاء !!



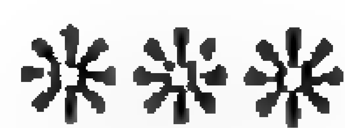
ووثبت به الحياة الى الفتوة ، وهو ما برح يرعى الغنم فى النهار ، ويفكرطول الليل فى ألوان الحياة التى تعيشها مكة وفى الطريق الى حياة أفضل .. أين الطريق !؟ .. وانه ليرعى الغنم ذات مرة مع فتى فى مثل سنه ، اذ سمع

من بعيد صدى دفوف .. فقال لصاحبه : اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة

واسرع الى الدار التى يتصاعد منها رنين الدفوف، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك شعر بتعب بعد طول الجرى ، وسهر الليل .. فقعد الى جدار ، فأغفى ، ونام ، ولم يتح له أن يشارك فى مسرات العرس ..

وعندما قام فكر فيما دفعه الى أن يترك الغنم ليستمتع بما فى العرس ، انه لشبابه الفوار ! ولكن النوم هبط عليه ليعصمه .. وقرر ان يتزوج لكيلا يتورط فى مغامرات كالآخرين وانه ليكسب قوته من عمله الآن ..

ورأى فى الكعبة امرأة شابة جميلة تطوف وليس فى هيئتها وزينتها وثوبها ما ينكره .. كان اسمهاضباعة بنت عامر بن صعصعة فخطبها محمد لنفسه .. وشغفت المرأة به حبا .. ولكنه علم أنها حين كانت تطوف بثوبها المحتشم القت شعرا فاحشا متغزلة فى فتوته ثم ذكر له عنهاماجعله يتركها .. ففسخ الخطبة ، وحزنت المرأة حتى لقد تلفت من الكمد ..



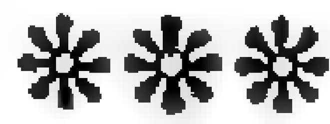
ايظل فى مكة يعمل برعى الغنم الى الابد ؟! .. لم لايعمل فى التجارة وقد كبر الآن واصبح فتى فى السادسة عشرة ؟ .. أيجب أن يعمل للسادة المتفطرسين الذين ينصبون الفخاخ للفقراء ؟ اما من سبيل آخر لكسب العيش ؟ ..

ولكن .. ما برح فى مكة رجال ونساء لديهم المال .. ولهم قلوب !

الى بيت الطاهرة

الكاذبون مازالوا يستطيعون ان يرفعوا أصواتهم بالاكذوبة في وجه الحياة ، ويتجاسرون على كل شيء ثم يجدون من يسمع لهم لانهم يملكون الثروة والسلطة والآلهـــة ! .. المرابون يزدادون غنى يوما بعد يوم .. والذين يغرقون في وحل الخطيئة حتى الاذقان ، يجدون ثيابا نظيفة يظهرون بها امام الآخرين فيكسبون الحمد والاحترام ..

وفي عين المنافق ما برح يسطع شعاع .. ربما كان أكثر التماعا مما تستطع به عين الرجل المجسور .. وما يعرف أحد بعد أحكمة كان كل ذلك أم جنونا .. ! الكل يقـــول كلمات متشابهة عن الشرف .. الكهان ، والنخاسون ! و «هبل» قائم في الكعبة ومن حوله الآلهة الصغار ، صم بكم ، تتمسح بهم النساء ، الفاجرات والعفيفـــات على السواء ! .. الصيارفة يصوغون الحقيقة ويملكونها ، أما كنز الحق نفسه فهو حلم القلب الممزق ! .. وفي هذا التيه من الاباطيل ظل القلب قادرا على أن يحلم .. على أن يحلم بالزمن السعيد ..



فعلى هذ الاراضي وفي هذا المكان نفسه ، عاشت حقائق أخرى منذ آلاف السنين .. هنا في هذا البيت العتيــق الذي اقامه ابراهيم مثابة للناس وأمنا .. أين تعــاليم ابراهيم .. !؟ ألم يصرخ في وجه الجبابرة ذات يوم في هذا

المكان نفسه : لا تسرقوا ، لا تكذبوا ، لا تتعـــاطوا الربا ، لا تزنوا ، لا ترتكبوا جورا فى القضـــــاء ولا فى الوزن ولا فى الكيل ؟ ..

ولكن مدينته قد امتلأت بالظلم ، واستبـــد بها كبرياء الاشداء .. فهم يسرقون ، ويزنون ، ويكذبون ، ويجورون فىالقضاء ، واذا أقرضوا الناس ضاعفوا الربا ، واذاكالوهم أو وزنوهم يخسرون ! ..

لقد أصبح الرجل يقدر بما يملك ، ولا يسأله احـــد بعد كيف ملك .. أصبح الربح هو الغاية مهما تكن الوسيلة اليه .. الكذب والنفاق والسرقة والاغتصاب ، أصبحت أدوات بارعة .. وما دام الرجل يستطيع ان يطوف بالكعبة ويمسح الركن ، ويقدم القرابين لهبل ، فكل شيء مبـــاح له .. ولكن ما شأن الفقير الذى لا يسرق ولا يغتصب ، ولا يملك ثمن القرابين ! ؟ .. ان أصنام الكعبة لا تقبله فى رحابها .. فهى آلهة مترفة تحب الاغنياء !!

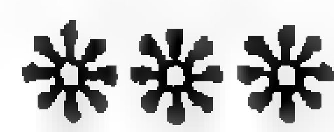
من للفقراء اذن ؟! .. لقد كان لابراهيم رب آخر ، كان هو رب الجميع ، وكان ابراهيم ينهى عن عبادة اله غيره ، ويعد قومه الامن ان أطاعوه ، فلا يعبر فى أرضهم سيف !.. أين رب ابراهيم .. فهذه الاصنام التى تبارك صـــلف الاشداء وتنبذ المستضعفين لا يمكن أن تكون جديرة بأن يسجد لها الانسان !!

أكان رب ابراهيم هو الشمس التى تمنح كل شيء حياته؟ ولكنها تأفل أحيانا والرب يجب الا ينام أو يموت .. والقلب المتطلع المشوق لا يحب الافلين !

أين رب ابراهيم الذى قضى ان من قتل يقتل ، وأن من زنى يحرق بالنار ، فلا تعيش الرذيلة فى الارض ، وأن من أبغض أخا فى قلبه لحقت به اللعنة ، وأن من انتقم أو حقد

قضى عليه بالهوان ؟! .. اين رب ابراهيم الذى بارك من « لم يعبد الاصنام ،ولم يلوث امرأة قريبة ،ولا ظلم انسانا، ولا ارتهن رهنا ، ولا اغتصب اغتصابا ، بل بـذل خبزه للجوعان وكسا العريان ثوبا ورفع يده عن الفقير ولم يأخذ الربا » .. ؟!

ثم ما هو هذا الحجر الذى يطوفون به ؟! أين هو من رب ابراهيم .. ؟! انه حجر لا يسمـع ، ولا يبصر ، ولا يزجى الرياح ، ولا يسوق المطر ، ولا يضر ولا ينفع !!..



ونظر نفر من قريش لبعضهم ، وقد سئموا الطواف بهبل وأخذوا يتأملون قومهم وهم يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون به .. وقال واحـد منهم « ما قومكم على شيء .. لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم » ..

كان هذا النفر هم ورقة بن نوفل ،وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو .. وكلهـم معنى بالبحث عن الحقيقة وسط زحام الخـديعة والاكاذيب . كانوا جميعا يقرأون ما يقع لهم من الكتب .. ويعانون من فساد الاوضاع فى مكة .. وتعاهدوا على أن يكتم بعضهم على بعض .. وخرجوا مما يضربون فى الارض باحثين ، عسى أن يعودوا فيما بعد مبشرين بدين ابراهيم وتعاليم الحنيفة ..

فأما ورقة بن نوفل فقد اهتدى الى المسيحية ، وعاد الى قومه مفتتنا بتعاليمها ليحدثهم عن اله واحد «لايسكن فى هياكل مصنوعة بالايادى ولا يخدم بايادى الناس لانه لا يحتاج الى شيء .. اذ هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شيء .. لانه هو رب السماء والارض » .. وعاش ورقه فى مكة كالرهبان ينصح لقومه ان : أحبوا بعضكم بعضـا

فالمحبة لا تسقط ابدا .. باركوا على الذين يضطهدونكم .. باركوا ، ولا تلعنوا ..

أما عبد الله بن جحش فلم تقنعه المسيحية أول الامر ، وظل يلتمس الحنيفية دين ابراهيم .. أبيهم جميعا .. !

وظل عثمان بن الحويرث يضرب في الارض حتى قدم الامبراطور الروماني واعتنق المسيحية وولاه الامبراطور أميرا على مكة .. ولما عاد الى قريش يحمل رسالة قيصر نبذوه ورفضوا ان يخضعوا لقيصر ، أو ان يولوا عليهم أميرا على مكة .. ولما عاد الى قريش يحمل رسالة قيصر نبذوه ورفضوا أن يخضعوا لقيصر ، أو أن يولوا عليهم أميرا وقالوا له : « أن مكة لاتدين لملك » .. فاعتزل عثمان وظل يمارس طقوس دينه الجديد وكان لا يفتأ يردد آيات حفظها من الانجيل : « لا تقتل .. لا تسرق .. لا تشهد بالزور .. لا تسلب .. أكرم أباك وأمك .. لا تزن .. اذهب فبع كل مالك واعط الفقراء ليكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملا الصليب »

أما زيد بن عمرو فلم يكن ينشد خلاص نفسه فحسب، بل خلاص قومه أيضا .. فواجههم بما هم عليه من ضلال .. اعتزل الاوثان ، ورفض ان يأكل من لحم الذبائح التي تنحر أمام الاصنام ، ونهى عن قتل الموءودة فكان يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته : « لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤونتها » ..

ولكنهم أعرضوا عنه ..وتعود أن يسند ظهره الى الكعبة وهو يقول : « يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم احد على دين ابراهيم غيرى » .. ومضى يسفه قريشا وما يعبدون ويتعرض لهم فينهاهم عن الربا والكذب والظلم وعبادة أصنام الكعبة ، وينشد

لهم القصائد الطوال ويروى نبأ موسى وفرعون ، ويونس والحوت ، والمبشرين الاوائل الذين اصـــطدموا بجبابرة آخرين من قبل ..

وشعر بعض سراة مكة بخطر دعوة زيد ، فعاتبوا عمه الخطاب .. وكان الخطاب تاجرا موسرا من الذين يكسون من الربا ، ويمجدون الاغتصاب ، ويظلمون ، ويملكون الآلهة ، ويعشقون الخمر والنساء .. ونهى الخطاب ابن أخيه ، ولكن زيدا ظل على دعوته ! .. وآذاه عمه ، فخرج الى جبل حراء على مقربة من مكة ، يتأمل الساعات الطوال ويعود ، فيدعو الناس الى ترك الباطل الذى يغشى حياتهم كلها ..

وأغرى عمه شبابا من شباب قريش من بينهم ابنـــه عمر بن الخطاب ، وسفهائهم فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة .. فكان لا يدخلها الا سرا منهم ، فاذا علموا بذلك اذوه وأخرجوه كراهية أن يفسد عليهم وأن يتابعه أحد »

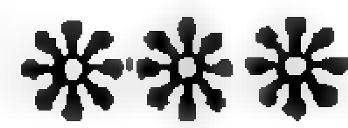
وضاق هو بهذه الحياة ، وضيق عليه السفهاء فخرج من الحجاز يطلب دين ابراهيم ويسأل الرهبان والاحبار، وطاف بالجزيرة كلها حتى بلغ الموصل ثم أقبل فجـــال الشام كله يسأل عن الحنيفية دين ابراهيم .. وعرضت عليه اليهودية والمسيحية فلم يقبل شيئا منهما .. وقال له الرهبان والاحبار : « انك لتطلب دينا ما أنت بواجـد من يحملك اليه اليوم .. »

وأضناه السفر الطويل .. ومع ذلك فقد ظل ينتقل من بلد الى بلد يتخبط على أبواب الاديرة ، ويقرع صدره تحت قباب الكنائس النصرانية،ويتمرغ بين أعمدة معابد اليهود، ويرنو الى عبادة النار ، ويعفر رأسه بالتراب المقدس مع الكهنة ، ويمتحن دين بوذا واتباع زارادشت .. ولكنه لم

يجد الحقيقة التى ينشدها أبدا .. !

لابد من دين آخر وقيم أخرى !.. ومابرح يرحل ويرحل كطريد قدر غاشم على دابته المتهالكة ، عصاه فى يده وجسده النحيل الذى أنهكته السنون يرتجف تحت ثوب خشن مرقع، وذقنه البيضاء ترتعش ، وعيناه الكليلتان تقتحمان المجهول بحثا عن الراحة التى يطمئن بها القلب .. بلا جدوى .. دائما بلا جدوى .. !

واخيرا اعترضه بعض اللصوص فى احدى رحلاته المعذبة وعدوا عليه فقتلوه .. وعندما عرفت قريش ، ابتهج السادة وتنفسوا الصعداء ، اما الذين بحثوا معه عن الحقيقة ، فقد بكوه أحر بكاء .. وما زال ورقة بن نوفل يذرف دموع العين ، كلما ذكر صديقه القديم زيد بن عمرو ..



بكى محمد ايضا ، ضياع هذا المبشر الجليل ، الذى عاش حياته الطويلة قلقا يبحث عن الحق ، ثم مات قبل أن يفيض الشعاع من قلبه .. وأن محمدا ليذكر كم كان رائعا حقا هذا المبشر الراحل ..

ومحمد بن عبد الله يذكر أنه لقيه مرة على طعام .. كان ذلك فى احدى البلاد التى سافر اليها محمد ــ أجيرا باحدى القوافل ــ وزيد بن عمرو يحل بهذا البلد باحثا عن الحقيقة .. عن الكلمة التى يزرعها فى القلب .. وعلى مائدة الطعام رفض زيد أن يأكل ما ذبح تحت قدمى تمثال أحد الالهة ، وحاور محمدا .. وكان محمد اذ ذاك شابا فى العشرين يضيق هو الآخر بمظالم قريش ، وبآلهتها المتعجرفة الصماء ، وبالتقاليد التى تدعم قبضة التجار الكبار على اعناق العبيد .. أما محمد فأكل ، ولكن زيدا

أثر الجوع على الشبع من ذبيحة نحرت أمام صنم ، ولم يذكر عليها اسم رب ابراهيم ! ..

ان محمدا ليذكر هذا ويأسى ، ويذكر أن « زيد بن عمرو كان أمة وحده » .. وانه ليشعر بالحزن لان قريشا عاملت رجلا منها بمثل تلك الفظاظة اذ دعاهم الى أن يعدلوا فيما بينهم ... كل الاغنياء حتى العشيرة الاقربون لم يرحموا الرجل حتى عمه الخطاب الذى كان يبره ويحنو عليه من قبل أن يقول كلمته ، ويمضى .. !

وحتى ابن عمه عمر بن الخطاب الشجاع الذى كان زيد يريد أن يعز به دعوته !

لقد مات زيد بن عمرو ، الذى أضاء لحظة كالشهاب الخاطف فى ظلمة الحياة المكية الداجية !! .. وعادت مكة من جديد يستبد كبراؤها بالفقراء ! ..

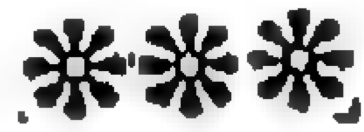
لم يسمع له أحد ، والكاذبون يجدون من يسمع لهم ، والمرابون يزدادون غنى يوما بعد يوم ، والكهان والنخاسون يقولون كلمات متشابهة . وفى عين المنافق ما زال يسطع شعاع ! .. وها هو ذا محمد يعمل أجيرا ليكسب حياته ، كما عاش أبوه ، ومات .. بينما رجال كعمه أبى لهب بن عبد المطلب وكالوليد وكأبى سفيان ، يملكون أكداس الذهب ، ومئات العبيد !! .. من تسرع هذا ؟ ..

وهبل قائم فى الكعبة ، راضيا عن الاغنياء وقد نسى هو وكل آلهة الكعبة ، فقراء قريش ! ..

وفى القافلة التى تنتظم ألفا من الجمال ، ومائتين من الرجال ، يملك ثلاثة أو أربعة من أغنياء مكة تسعمائة جمل على الاقل ، ومعظم الرجال ، ويشترك بقية أهل مكة فيما بقى ! .. ومع ذلك فحينما تقع الحرب ، يتحمل المستضعفون عذاب المعركة .. فالاثرياء يعتمدون عليهم هم

وحدهم ! . لقد رأى محمد كيف كان عمه أبو لهب ، ورجال سراة مثله يعتمدون على ساعد عمه الزبير والشبان الفقراء عندما احتدمت حرب الفجار ضد قريش ، منذ سنوات قلائل ! ..

واشترك محمد نفسه فى هذه الحرب التى دارت حول الكعبة ، ووقف الى جوار أعمامه ، يرد عنهم نبال العدو .. وظفرت قريش ، وعاد الزبير والفقراء من فرسان مكة الذين حموها ، يبحثون عن الرزق ويشتركون بحظ قليل فى القوافل : بدينار او دينارين ، فى قوافل يشترك أمثال أبو سفيان وابو لهب فيها بآلاف الدنانير ..



وهاهو ذا محمد يضطر الى ان يشتغل اجيرا فى هذه القوافل ليعيش ، فما كان يملك الدينارين او الدينار !.. ويخرج الى اليمن مع عمه الزبير فى رحلة الشتاء .. وفى هذه الرحلة كان ما يزال هو الفتى الذى جاوز العشرين بقليل ، وليس له فى القافلة مال ، ولا ناقة له فيها ولا جمل .. وانما هو أجير .. ورأى كيف يكسب التجار .. كيف يخسرون الميزان ويغشون فى الكيل .. وراعه هذا كله ، وتمنى لو قنع واحد منهم بما يمكن ان يكسبه من حسن التبادل ، والقدرة على الموازنة بين سعر البيع وسعر الشراء !

وعاد الى مكة من احدى هذه الرحلات مهموما حزينا يفكر فى الاكذوبة الكبرى التى تقوم عليها الثروة فى مكة ! .. انه ليس ربحا هذا الذى يحدث ، ولكنه شر من الربا : العملاء الذين يخرجون بالقوافل يغشون أثناء البيع ، ويسرقون من الربح الذى حصلوا عليه بالغش .. وهكذا .. كل شىء مختلط .. السادة يقهرون العبيد والاجراء لا يثقون فى

السادة ، ويسرقون الآخرين ! الامانة عمـــلة لا تعرفها تلك السوق الشائنة .. والحق والعفة والصدق أصوات خافتـة يطغى عليها زعيـق السماسرة ، ورنين الذهب ، ووسوسـة الحلى !

وتمنى محمد لو انه خرج فى القافلة بمال له أو لعمـه أبى طالب الذى يرعاه ! ..

ليته يعمل لتاجر أمين يريد أن يربح بلا سرقة ، ولا غش، ولا اغتصاب !!

ولكن من عسى أن يستخدمه الآن ، والذين كانوا معه فى القافلة عادوا يحكون عن انكاره لما تعودوه من نقص الكيل واحتيال فى الميزان ؟!

لقـد أنكر هـــذا حقا وطالبهم أن يوفوا الـكيل وألا يخسروا الميزان ، فما يقبل عليه الآن أحد من قومه ليوظفه فى الاتجار بماله ! مع ذلك ، فما زال فى مكة رجال ونساء يملكون المال ، ويبتغـــون الربح بالحق .. انهم لقليل ولكن كيف السبيل اليهم ! .. أيعرض عليهم نفسه ؟

ان اباءه ليمنعه ولو مات جوعا ! ..

وها هو ذا مرة أخرى يعيش وحيدا ، فى بيت عمه أبى طالب ، لا يملك غير الامل المبهم فى المستقبل ، وغير ذكريات حزينة من ماض بعيد تتخايل فيه صـور عن أمه التى ماتت وتركته لليتم ، وأبيه الذى لم يره ، وجده الذى كان يحبه كما لم يحب حفيد جده أبدا ، ثم مات وتركه يواجه الحيـاة والوحدة والفراغ الرحيب .. وذكريات أخرى عن المبشرين الذين نفوا من الارض واستشهدوا فى التيه وهم يبحثون عن حل انسانى للفوضى .. ولا طعـام فى بيت ابى طالب .. وكل من فى البيت يعمل ليعيش ، والثرى يقهر المحتاج ،

والمستغنى ينهر السائل .. والجياع بلا مأوى ، والكل في الضلال ! !

وانه ليفكر في الحياة والموت والمستقبل والذكريات ، اذ بعمه أبي طالب يقبل عليه ، متحرجا .. فيقول له : « ياابن أخي ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حان موعد خروجها الى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك »

وأدرك ان عمه انما يعنى خديجة بنت خويلد ، التاجرة الغنية التى تستأجر الرجال فى مالها والتى اشتهرت بجمالها وبعفتها ، حتى لقد أطلق عليها « الطاهرة »

وتمنى محمد لو أنه اتجر فى مالها ، ولكن اباءه عاوده ، فكره أن يذهب هو اليها ليعرض عليها نفسه ، أو ليسألها ، فقال لعمه : « لعلها ترسل الى فى ذلك »

ولكن عمه أجابه : « انى أخاف أن تولى غيرك »

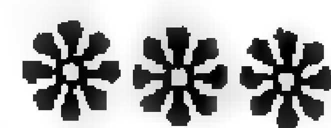
ان خديجة بنت خويلد ذات شرف ومال .. هذا حق .. وهى بنت عم ورقة بن نوفل أحد الذين أضناهم البحث عن الحقيقة ثم اهتدى الى المسيحية ، ولقد تأثرت ابنة عمه خديجة بما يحمله ، فما عرف أنها أقرضت بربا من مصرفها الذى تقرض منه التجار الصغار ، وما أباحت لنفسها ربحا اجتلبته السرقة أو خسران الموازين .. ولقد سمعت هى عن محمد وتمنت لو استأجرته فيتاجر فى مالها .. وأرسلت اليه عندما بلغها مادار بينه وبين عمه أبي طالب .. له الحق أن يكره السعى هو اليها ، فالنفس الابية لا تترخص فتعرض ما عندها !

كانت فى الاربعين .. امرأة جليلة شامخة ممتنعة فى

قمة جمال ذلك السن ، وقد مات عنها زوج بعد زوج ، وكلاهما تاجر واسع الغنى من سراة مكة • وأقبل اليها محمد بن عبد الله ، فتى جميل الوجه ، واضح الملامح ، أقنى الانف عريض الجبهة ، ثابت الخطوة ، ممشوق القوام ، متوسط الطول ، مهيبا ، يقظ العين ، وهو على فقره نظيف الثوب ، مرجل الشعر ، يفوح منه الطيب وريح النشوة ! •• وعلى وجهه الناطق بالعنفوان ، يبدو ذلك الضنى الغامض الذى يجلبه طول التأمل والمعاناة ••

واستقبلته خديجة مرحبة ، ومدحت فيه ما كانت سمعته عن صدقه وأمانته وحسن سيرته ، ثم عرضت عليه أن يخرج فى مالها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره • وخرج محمد بن عبد الله فى رحلة الصيف الى الشام بمال خديجة ، وعاد منها بربح طائل فقد أقبل عليه المتعاملون منذ رأوا فيه جديدا •• فهو أمين صادق لا يعمد الى عبث فى كيل أو مقياس أو وزن •• وهكذا كسبت خديجة من مالها ذاك ضعف ما كانت تقدر ، فأعطته ضعف الاجر الذى اتفقت عليه

وظل يتردد عليها بقية العام ، وعير مكة تستعد لرحلة الشتاء الى اليمن بقافلة كبيرة ، احتشد فيها ثلثمائة رجل بألف وخمسمائة من الابل



وعندما أذن فى مكة أن رحلة الشتاء تعود من اليمن رابحة ، خرجت قريش كلها تستقبلها كما تعودت ، بالفرسان والدفوف والراقصات ، والنساء على جنبات الطرق •• أما خديجة فقد وقفت فى شرفة دارها تطل على القافلة المقبلة مع بعض جواريها ، واذ لاح محمد من بين الرجال ، أحست بقلبها يخفق فجأة ، وينفتح له ، وأدركت أنها انما كانت تنتظره هو

حقا •• هو بجسده وشبابه ودماثته ، محمد نفسه لا الاجير الذى سيسلمها ربحها من التجارة !

وحدثها عبدها الذى كان يصحبه عن كثير من خصاله التى تحبب فيه الرجال ••

الرجال ؟! •• والنساء أيضا ! •• ليته يخطبهـا ؟ •• ولكن حياءه واباءه وارتفاع سنها عن سنه بشكل ملحوظ ، ثم الفرق الشاسع بين غناها وفقره ، كل ذلك سيمنعه !

وأرسلت اليه نفيسة بنت منية فتلطفت عنـده ، وسألته لماذا لا يتزوج ــ وقد بلغ خمسة وعشرين عاما ــ وكل فتاة فى قريش تتمناه زوجا ، فهو امين شجاع باسل وصادق وجميل •• واذ اعتذر بقلة المال ، اقترحت علـيه أن يتزوج امرأة غنية واسعة الثروة وهى الى ذلك ذات شرف ونسب •• وسألها محمد من عساها تقبله زوجا وهو الاجـير الفقير ؟ فذكرت به خديجة .. ولكنه لم يصدق أن خديجة بغناها الواسع يمكن ان تقبل الزواج من شاب فقير مثله .. على ان نفيسة وعدته ان ترتب هذا الامر ..

وعادت نفيسة تزف البشرى الى خديجة بنت خويلد ، فمحمد بن عبد الله هو أيضا يود لو تم هذا الزواج، ولكن فقره يقعد به عن أن يتقدم الى خطبتها ••

وأرسلت اليه خديجة فعرضت عليه بنفسها أن يتزوجها •• وقالت له : « انى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك »

ومضى محمد بن عبد الله الى أعمامه يذكر لهم ما كان من أمر خديجة •• فخرج معه حمزة أحب أعمامه اليـه وأقربهم سنا منه ، وخرج معه الزبير وأبو طالب وبقية الاعمـام ، فجاءوا خويلد بن أسد والد خديجة ، فخطبوها لمحمد •• وكان خويلد ساعتها يشرب الخمر •• فوافق من فوره

وعقدت الخطبة .. ولكنه أفاق من غده فسأل ابنته خديجة عما حدث بالامس ، واذ قالت له أنه عقد خطبتها الى محمد ابن عبد الله ، ثار وأنكر •• فمن هو هذا الفقير الذى يرضى به زوجا لابنته الغنية التى رفضت سادة قريش ؟!

ولكن خديجة جادلته وكرهت منه أن ينقض ماأبرم ، وقالت له انها تملك من المال ما يكفيها ولا حاجة لها بزوج غنى ، وهى عندما تختار الرجل الذى تعيش معه ، فأنها تحب أن تسمع لصوت قلبها ، لا لنداء المصرف الذى تمتلكه !

وعلم محمد بن عبد الله أن خويلد يعترض ، ويتعلل بأنه انما اتفق على الخطبة وهو سكران ! ما هذه الخمرة أيضا ؟! كيف يمكن أن تفسد الخمر ارادة الرجال الى هذا الحد ؟!

على أن خديجة استطاعت أن تقنع أباها آخر الامر •• أقيمت وليمة الزواج •• وملأها الزبير مرحا ، ورقصت جوارى خديجة ، ونحرت الابل على باب الدار ليأكل منها الفقراء •• وأباحته خديجة مالها يصنع به ما يشاء كما يشاء •• وتصدق من مالها على كثيرين فى تلك الليلة

وفى غمرة الفرح ، تذكر محمد أمه •• وبحث عن حليمة التى أرضعته فأرسل اليها أربعين رأسا من الضأن ، ترعاها فى ديار قومها ، وتستغنى بها الى آخر ما قدر لها من العمر •

أما هو فقد بات وأصبح عند خديجة •• وانتقل تماما بكل وجدانه وشبابه وحياته وأحلامه وتأملاته •• الى بيت الطاهرة

قم ... فأنذر

غريب أنت يا ولدى فى هذا التيه الضارى الذى يتنفس باللعنة والاكذوبة والمنكر ! .. شـــارد ، حزين ، لا تنفك تتأمل فى السموات والارض ، ووجوه الرجال والنســاء والاطفال .. ما تكاد تضحك مستمتعا بحياتك الجــديدة المطمئنة مع المـرأة الجميـــلة النقية الحكيمة التى اختارتك للحياة والموت ، حتى ينبثق من أغوار نفسك فجأة خاطر مبهم .. فاذا ابتسامتك الآسرة تغيض على شفتيك ، واذا بنظراتك تخترق الصمت ويداك الكبيرتان تلوحان فى اســكون . وينتفض العرق النافر من جبينك العريض الناصع وتضىء كل ملامحك الحادة بشعاع رهيب وكأن نورا من الغيب يغشاك، فيبدو وجهك المتورد معذبا مضنى ، على الرغم من كل شىء !

أشاعر أنت يا بنى ، يأتيكهاجس من الخفاء؟ ..ولكنك لم تقل الشعر أبدا ، وما يظن أحد أنك ستقول شعرا بعد..!

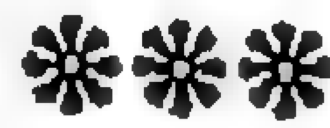
ما أروعك حالما ، ومتألما ، وحزينا ! . . ولكن الحياة تروق لك وتحلو .. ففيم كل هذا الحزن ؟

لقد كنت فقيرا تحمل الحجر ، وترعى أغنام الآخرين تحت شمس لا ترحم وتضرب فى الارض لحساب غيرك ، وتصنع الكثير لتنبش على قوتك .. فها أنت ذا اليوم تملك مايحسدك عليه كل فتيـان قريش : عمـــلا مطمئنا يعطيك أكثر من الحــاجة ، وزوجة تؤثرك بالحب وترعاك حاضرا وغائبا ولأنت كل دنياها وكبريائها ورونق حياتها . . وهى فى النهاية تعصم شبابك وتغنيه ، وتحفظ سمعتك ..

وانها لتمنحك من حنان الامومة ما افتقدته منذ الطفولة وتعطيك من متاع الحياة ما يروى ظمأ الفتوة فيك ، وتهدى اليك ما يرضى زهو الابوة منك •• هي عوض عن أحـــزان الطفولة ، وشبع ورى لحاجات الرجولة ••

ها أنت ذابعـد طول الطـواف تحت الشمس تنعم ببيت يملؤه الخير والولد يا ابا القاسم •• فراشك فيــه عامرة بالطاهرة ، ما يهجس فى قلبها غير رضائك ••

فمن أى أعماقك اذن ينبع هذا القلق الغامض الذى يفيض على وجهك بالشحوب فى كثير من الاحايين ؟ •• لقـد زادت ثروة خديجة على يديك ، واتسع رزقك على يديها •• وأصبحت أبا لبنات وأولاد ، وغدوت تسلك فى الشراء والبيع كمـــا تريد •• لا نقص فى الكيل ولا خسران فى الميزان ، وانما هو الصدق والامانة حتى لقــد سمــاك قومك : « الأمين » •• واقتدى بك منهم نفر غير قليل ••



ولكن الحياة ليست هى البيت الذى يعيش فيه الرجل •• ليست هى ـ فحسب ـ الزوجة المحبة الصالحة الحسـناء ، ولا الاولاد الذين يملأون القلب بالرضا !

ان الامن ليعمر البيت •• هذا حق ، ولكن الحياة من خارج بابه ، تضطرم بما يمزق القلب المطمئن ! •• وبعـد أعوام طويلة من الزواج ، اصبح لك ركن هادىء تعمره مسرات الحياة : زوجة جميلة طيبة حانية ، وأبناء صغار تطيب النفس لمرآهم •• ولكن عالمك العريض الذى تعيش فيه ، لاهدوء فيه بعد ، ولا شىء منه تطيب له النفس•• أى تناقض ممزق بين بيتك •• والعالم !

ولكن حياتك فى بيتك ، تمنحك القوة على مواجهة هذا العالم الذى تعشش فيه الاكذوبة وتنمو ، وتفرخ •• وكلما

مر عام على زواجك رسخت فى قلبك مكانة خديجة .. لقد واجهتما الزيف والخديعة معا ، وقاومتما معـا ، وربحتما بالصدق معا .. وفقدتما معا بعض الولد . واختلط منكما العرق والدمع معـا .. بكت هى على كتفك ، عندما مات ابنكما القاسم ، ولم تستكبر انت فبكيت على كتفها .. ومســـحت دموعك يامحمد .. ومنحتك أولادا آخرين ..

والسادة فى قريش يحتقرون الذكاء والعمل ، ولكنها ترعى ذكاءك وعملك ، وتتنزه بك على دنس الحيـــاة الآثمة من البطالة واللهو والمغامرة والفزل .. وانت الآن لاتريد أن تشق عليها يا أبا القاسم بما يضنيك بعـد أن فقدتما ولدكما القاسم .. لتدع السيدة الجليلة فى ثكلها .. فما أثقل حملها ! .. وما أثقل حملك أنت يا ولدى ! .. ماذا تريد ؟.. تحدث مع صديقك أبى بكر ..

وأبو بكر بن أبى قحافة ، هو الوحيد بين فتيـــان قريش ، من يخلص لك الود فتستطيع أن تفتح له قلبك .. وهو مثلك يابن عبد الله يعنيه البحث عن الخلاص .. وانه ليرى فى أصنام الكعبة أحجارا لاتضر ولا تنفع ، ولقد حدثك هو عنها ، ورأيت أنت أنه لايسجد لها ، وهو مازال يردد بين فتيان مثله من الذين لم تعد تقنعهم هذه الاصنام ، قصة أول لقاء له معها : أخذه أبوه وهو صغير فقال له : « هذه آلهتك الشم العوالى » ، ثم تركه وانصرف ، فلما خلا الصغير أبوبكر الى آلهته ، تقدم من أحد الاصنام فقال له : « انى جائع فاطعمنى » فلم يجبه الصنم فقال الصغير للصـــنم : « انى عار فاكسنى » واذ لم يجبه الصنم ، القى الصغير عليـه صخرة ، فخر الصنم على وجهه .. ومنذ رآى الصغير

أحد الآلهة يخر على الارض ، رفض هو أن يخر ساجدا لمثل هذا الآله الاصم الضعيف الذى تسقطه دفعة من يد طفل ! ..

ولكن أبا بكر لم يعد صغيرا ، ولا جائعا ، ولا عاريا .. فهو الآن يامحمد قد جاوز الثلاثين مثلك ، وقد خرج معك فى كل رحلاتك يتاجر بماله . وقد أصبح الآن على حداثة سنه أحد سراة مكة .. مابرح يتاجر بماله ويقتدى بك فى البيع والشراء ، فهو أيضا لا ينقص كيلا ولا يخسر الميزان ، ولا يحتال بالكذب . ولقد طالما سخطتما معا على ما يصنعه سادة قريش ، وتمنيتما معا لو أن العالم ساده العدل ، فلم يفتك كبير بفقير ، ولم يهن المدين على الدائن ، ولم يخن الرجل عهده ، ولم يبطش الاقوياء بالمستضعفين ! .. لو أن للمرأة عند الرجل مكانة أخرى غير مكانة الشىء الذى يستمتع به

أدركتما كل شىء معا ، وضقتما معا بأسلوب الحياة فى مكة ، ومضيت أنت تتأمل ، ولكن أبابكر مضى يقرأ فيما انتهى اليه من كتب الاولين ! .. ما أسعده فقد أتاحت له الحياة أن يتعلم القراءة والكتابة منذ الصغر ، على عكسك أنت ! .. وما زال أبو بكر يقرأ ويحفظ كل ماينتهى اليه ، ويحول رحلاته التجارية الى فرص لمزيد من الاطلاع حتى أصبح اليوم أكثر فتيان قريش ثقافة .. وانك لفخور به ! ..

لقد أدركتما معا ان حياة قريش وطرق التعامل فيها ، هى التى تسمح بوجود الاصنام فى الكعبة .. فسادة قريش الذين فرضوا عليها هذا الاسلوب الجائر من الحياة ، هم الذين يحمون أصنام الكعبة ! .. وانها لتبارك هذه الاوضاع ولن تسمح بغيرها .. وهى بعد

تجلب آلاف العرب من كل مكان ليحجوا اليها ! وليدفعوا لســـادة قريش ، وليعمروا مواسم الحج بالمبــادلات التجارية ، فيثرى السادة عاما بعد عام !

ومع كل هذا فان من قريش نفسها لتتصاعد نداءات ضد علاقات الاثرياء بغيرهم وضد الاصنام التى تحمى هذه الاوضاع .. لقد أصبحت ثروة مكة فى يد عشرات قليلة ، بينما عشرات الآلاف يعانون ! وأصنام الكعبة راضية عن هذا كله !

ان دوران الحياة فى مكة واتساع تجارتها قد زاد من غنى السادة ، وألقى بمعظم السكان بين اظفار الحرمان والخوف ، حتى لقد سئمت القلوب مما تعانى وأدرك الناس أن هذا كله باطل !

لم تعد أصنام الكعبة قادرة على أن تملأ وجدان الناس وتشبع حياتهم الروحية ، ولم يعد أسلوب العلاقات القائمة بين الدائن والمدين أو بين من يملك ومن لايملك ، ولا بين الغنى والفقير .. لم يعد أسلوب العلاقات هذا صالحا للزمن بعد ، فقد أدرك الذين لايملكون من اهل مكة أن مايعيشون فيه لهو الظلم ، وان الآلهة العديدة التى تحمى هذا الظلم ، ويسمح قيامها بأن يزدادوا فقرا ويزداد الاغنياء ثراء ، انما هى آلهـــة ظالمة ..

الفقراء والمستضعفون يشعرون فى اعماقهم بانهم فى حاجة الى أسلوب ينظم علاقة الناس ببعضهم ، وفى حاجة الى قيم روحية جديدة تعكس تطور هذا المجتمع الذى يشكلونه ، فلو انهم لم يعملوا لما غنى السادة ، ومع ذلك فقد كتب عليهم الحرمان والهوان كما تكتب اللعنة .. لابد من شىء جديد يقيم الموازين والحساب ! .. ولكن سادة قريش لن يسمحوا بهذا .. وان الرجل

منهم ليتخلى عما يجب أن يعرف عنه من فضـــائل ؛ ليقاوم أى احتجاج ، وليطمس أى شعاع يبرز فى ذلك الحائط المصبوب من الظلمات ! ..

لقد تخلى الخطاب بن نفيل عما أحب أن يعرف عنه من حماية الجار والقبيلة ، ونبذ ابن أخيه زيد بن عمرو ابن نفيل .. لان زيدا هاجم القيم الروحية التى يتمسك بها سادة قريش .. هاجم الاصنام ، والوثنية وتعدد الآلهة وأسلوب العلاقات بين الناس فى مكة ، وطالب بالعدل ، وبقيم روحية جديدة تشبع الحاجات الواقعية لتطور مجتمع مكة ..

وهكذا ألقى زيد فى التيه ، ليموت وحيدا ، غريبا ، ضائعا ، بعد أن عذبه السفهاء

لكم بكيت عليه يامحمد ، وبكى عليه ورقة بن نوفل قريب زوجتك الطاهرة خديجة وراعيهـا ، ولكم بكاه معك صديقك أبوبكر التاجر الغنى الذى رق قلبه وصفا ، وزادته الثقافة صفاء ورقة !

وأمية بن أبى الصلت هو الآخر ، ينبذ الاصنام ومظالم قومه ، ويعلن أن آلهة الكعبة لم تعد تملأ الفراغ الذى تســـتشعره روحه .. ولكنه لكى يعيش يعود فيمدح أغنياء قومه ثقيف بالطائف ، وأغنياء قريش فى مكة .. نفس الاغنياء الذين أطلق ضـــدهم فى شـعره صرخات احتجاج صادقة ..

وآخرون .. وآخرون .. ومن قبلهم نادى «خالد بن سنان» قومه بأن يتركوا الحياة الدنسة ، وأن يتعاونوا فيما بينهم والا يضطهدوا الضعفاء والمحتاجين وبشرهم بملكوت السماء لو أنهم هجروا أصنامهم وعبدوا الهــا واحدا له مافى السماء ومافى الارض ولكن قومه أضاعوه !

سخروا منه أول الامر ثم وجدوا من يستجيب له ، فعذبوه حتى الموت وسألوه أن يستعين بهذا الاله الواحد الذى يدعو اليه ليخلصه منهم ! .. وهكذا أغمض خالد بن سنان عينيه الداميتين على حلم بعالم أفضل يسوده العدل ، والقيم الروحية المرتجاه !

ان كبار المرابين والتجار ــ وهم كل حكومة مكة ــ لينطلقون كالسمكات المتوحشة تبتلع الصغار ، وتنهش منهم اللحم الحى ، ويغريها الدم بمزيد من الدماء .. !

غير ان هؤلاء المبشرين العظام جميعا كانوا يحاولون ترقيع ثوب مهلهل لاجدوى منه .. كانوا يحاولون ترميم بناء يتداعى ، بناء لابد أن يهدم كله ليبنى من جديد .. كانوا يحاولون اصلاح قومهم ، وقومهم فى حاجة الى ثورة كاملة تجتث كل الجذور الفاسدة لتغرس أساليب جديدة ، وعلاقات جديدة ، وقيما أخرى .. يجب أن يخلى بين الانسان ومابين مايعبد ! يجب الا يكون لبشر سلطان روحى على الآخرين .. ويجب أن تزول الاصنام بمن يخدمونها وبمن يتسلطون باسمها على مصائر غيرهم

ليس للانسان أن يستشفع بأحد .. فالكائن وعمله . ومايبنغى ان يتنازل الرجل عن عمله لأحد يدبر عنه أمره .. فلكل انسان قلب يفقه به ، وعين تبصر ، وأذن تسمع ، وعقل يتدبر .. يجب ان تصان نفس الانسان من الهوان وأن يصان بدنه من الاذى .. يجب أن يحترم الانسان عهده وحق أخيه الانسان .. لكل انسان الحق فى أن يعيش حرا ..

ومن أجل ذلك يرفض محمد بن عبد الله أن يكون له عبيد ، ويغرى زوجته أن تعامل جواريها كما لو كن حرائر ، ويحملها على أن تسمى من تملكهم بالفتيان

والفتيات بدلا من الجوارى أو العبيد أو الخدم .. واذ تشترى خديجة غلاما صغيرا اسمه زيد بن حارثة يدفع لها محمد ثمنه ، ويحرره ويتبناه ، ويقيم عنده كأنما هو أحد ولده ، حتى ليأبى زيد بن حارثة ان يعود الى أهله ، عندما يجده أبوه الحقيقى ، ويخيره فى العودة الى أهله أو البقاء مع متبنيه ، فيختار متبنيه ..

لابد اذن من خلق مجتمع يسوده الوفاء ، وينبذ فيه الغادر .. مجتمع تحكمه الامانة ورعاية حق كل الناس على السواء بلا تفريق : السود والبيض ، السادة والعبيد ، الاغنياء والفقراء ، الرجال والنساء . يجب أن يصان هذا المجتمع الجديد فيفضح السارق ويعاقب ، ويجزى من خان الامانة بما أثم ، ويقتل من قتل ، مهما يختلف حظ القاتل والمقتول من الغنى والفقر .. والجروح قصاص ..

يجب أن تصان الاسرة فيعاقب من يزنى ، وتصان كرامة المراة التى هى أم وزوجة وشريكة حياة وفلذة كبد ، فلا تعطى للرجل ليستمتع بها لبعض الوقت ثم ينبذها ، ولاتمنح لعدة رجال فى وقت واحد ! .. يجب أن يحترم كبرياؤها فلا تتزوج الا من ترضاه ، وأن تقيم معه شريكة له ، نفسا انسانية كريمة ، تعاونه ، لا محظية يستمتع بها .. يجب أن تنكس هذه الرايات التى ينصبها بعض النساء على بيوتهن ليستقبلن الرجال فاذا حملت احداهن ألحقت ولدها بمن يشبهه !

كل هذا شائن وزرى ومهين ، ويجب أن ينبو عنه المجتمع .. كل هذا لاينفع فيه ترميم أو اصلاح وانما يجب أن يهدم كله دفعة واحدة ، ليبنى من جديد .. لابد من ثورة جائحة تجتث الربا ، والهوان ، والزراية ،

والبغاء ، وصلف المتكبرين والمتسـلطين .. ثورة تقيم العدالة ، وتحرر الانسان من السيطرة والخوف ، وتحرر العقول والقلوب من الاذعان لاصنام الكعبة ولقوى الخفاء، وتضع أساسا للتعامل بين الرجل والمرأة ، بين الانسان والانسان .. ولكن كيف السبيل ؟!

لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبى بكر بن أبى قحافة ، فى هذا كله ، ولقد رحلا معا ، وعانيا معا ، وشاهدا الرهبان والكهان فى بلاد بعيدة ، وسمعا معا من الاحبار .. واعتزلا الاصنام معا ، وسلكا بالعدل والصـــدق والامانة ، وبكيا معا على مالاقاه المبشرون الاوائل .. ونأيا عن الرجال والنساء يطوفون عراة حول الكعبة ويلتصقون ببعضهم فى البيت الحرام .. وحلما طويلا بالخلاص ..

والقوافل تمضى من مكة الى بلاد الروم واليمن .. وفى أسواق مكة يجتمع تجار من مصر والهند والشـــام وأواسط آسيا ، وتسرى فى الاسواق حـــكايات كثيرة غريبة .. فتجار مصر يحكون عن أستاذة فى الاسكندرية كانت تعلم فى جامعتها الحكمة وتدعو الناس الى أن يفكروا بعقولهم .. فالتف حولها الطلاب مكبرين دعوتها وسيرتها، وهى اذ ذاك فى الخامسة والاربعين ، جميلة انيقة وحيدة .. ولكن الكهنة والقساوسة الذين يثرون من سلطانهم على القلوب ، أدركوا أن هذه الاستاذة الجميلة تريد أن تحطم سلطانهم وتسخر بوساطتهم لتحرمهم مصدر غناهم فلن يبقى لهم جاه ولا مال ان انطلقت العقول تفكر وتحدد خطوات الرجال والنساء

وحاول الكهنة أن يشوهوها وأن يؤذوها فى شرفها فلم يستطيعوا فقد كانت على جمالها الباهر ، عفيفة

جدا ، فى مجتمع تندر العفة فيه ، يقظة لكل دسيسة .. ففشلوا فى الكيد لها .. واذ لم يستطيعوا عليها سبيلا اقتحموا عليها دارها فقتلوها ..

هكذا يخمد صوت العقل فى مصر التى تدين باله واحد ، وتؤمن بالمسيح ، وتحمل تراث مبشر قديم نادى بالتوحيد وأقام لاله الواحد مدينة أسماها أخيتاتون !

وفى بلاد أخرى كان من يحمل فى رأسه أفكارا يحكم عليه بالعذاب أو بالضياع فى الصحراء .. ومن بلاد الروم يروى القادمون عن ظهور مبشرين قد عثروا على دعوة عندهم فأحيوها ، وكانت الدعوة تقول ان العالم واحد متحد ، وهو قديم أزلى لم يخلقه انسان ولا اله من الآلهة ، وقد كان هذا العالم وسيظل الى الابد شعلة حية تتقد وتنطفىء حسب قانون معين .. وأن على العقل أن يكتشف هذا القانون . وفى بلاد الفرس يلقى الى النار من يدعو الى اله غير النار .. !

وهنا فى الكعبة يحكم بالموت أو بالتيه أو بالهوان على من يقاوم سلطان المستفيدين من أصنام الكعبة .. والذين يملكون هذا القضاء عشرة أو عشرون من كبار المرابين فى قريش . ومابينهم واحد لايعيش فى الخطيئة .. وهم يقضون فى مصائر عشرات الآلاف من الرجال والنساء والاطفال ..

ماجدوى الاصلاح فى مثل هذا العالم اذن ؟ لابد من طفرة .. ثورة عارمة تبنيه من جديد وقد تهيأت لها الآن قلوب الجميع .. الا الذين يفيدون من فساد الاوضاع ، وهم قليل .. ومحمد اذ ذاك فى قومه رجل حسن السمعة ، لم يعرف عنه أحد من سوء .. أمين

صادق حتى أنه لو صرخ فى الناس أن خيلا قادمة وهم لايرون شيئا ، لكذبوا أعينهم وصدقوه ! ..

وقد تواترت عنه مآثر لم يعرفها قومه من قبل ، فقد اكتفى بزوجة واحدة هى خديجة بنت خويلد ، ولقد ارتفع بها السن الآن حتى بلغت الخامسة والخمسين وهو بعد شاب يقرع أبواب الاربعين فما فكر أن يجرحها بزوجة أخرى ، وما استمتع بخليلة كما شرع قومه ، وما اشتهت نفسه غيرها على فتوته وحسن موقعه من النساء جميعا ..

وهو بعد يقف الى جوار المظلوم ، فقد استنهض عمه الزبير بن عبد المطلب ليجبر تاجرا غريبا كان أحد سراة مكة قد حبس عنه حقه ، ووقف التاجر المظلوم يصرخ :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر

وردت الى التاجر حقوقه .. واستطاع أن يجعل بعض الاسر من قريش تتعاهد ــ بقيادة بنى هاشم ــ ألا يجدوا فى مكة مظلوما من أهلها أو من الغرباء الا قاموا معه وكانوا على ظالمه حتى يرد اليه حقه ..

ومحمد بن عبد الله ــ الى هذا كله ــ حكيم .. استطاع أن ينقذ الناس من الفتنة حين أوشكت ان تضطرم ، فقد رات قريش أن تبنى الكعبة بعد أن اندلعت فيها النار ، وكانت قد ظلت تحفر حتى وجدت حجرا قديما كتب عليه بلغة لا يعرفونها ، فدفعوه الى من طاف ببلاد الارض وعلم علم اللغات فقرأ : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات ، وتجزون الحسنات ! . أجل .. كما لا يجتنى من الشوك العنب »

فنصحهم محمد أن يعتبروا بما كتب على هذا الحجر ، فقد حمل اليهم تجربة أجيال من قبلهم ، فليذكروها

وليتعظوا بها ، ان كانوا يعقلون ! .. ثم ان قريشا بلغوا فى البناء موضع الحجر الاسود .. فاختصموا فيه ، أى من أهلها يرفعه الى موضعه .. وأوشكت القبائل من قريش أن تحارب بعضها بعضا واذا بأكبرهم سنا يقول : « أجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل » ..

وكان أول من دخل هو أبو القاسم محمد بن عبد الله .. فلما رأوه قالوا جميعا « رضينا .. هذا الامين .. هذا محمد » . وأخبروه بما كان من خلافهم فقال لهم : « هلم الى ثوبا » وجاءوا بالثوب فأخذ الحجر الاسود فوضعه فيه ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب » .. وهكذا انفض الخصام ،وارتضى الكبار الاثرياء ، ما رآه لهم الشاب الفقير ..

ان قومه ليكبرون حكمه وينزلون عند رأيه ، يعتزون بصدقه وأمانته ، على الرغم من كل ماهم فيه .. ليتهم اذن يطعمون الجائع ، وينصفون الضعيف ، ولا يظلمون أحدا .. ليتهم يحتفظون بمخادعهم مطهرة ، ويعطون السائل ، ولا يقهرون اليتامى ، ولا يأكلون اموال الفقراء والمحتاجين .. ليتهم يعون ما حفظه لهم الحجر : ان الانسان لا يجنى من الشوك العنب !

لكم تثقل الحياة عليه الآن .. لكم يشعر بكل شيء يفقد بهجته ورونقه كأنما ينتظر ماء حياة جديدة تدب فيه .. لقد روى له صديقه أبو بكر ما شهده قديما من لقاء أمية بن أبى الصلت مع زيد بن عمرو بن نفيل .. كان ذلك بفناء الكعبة ، وزيد بن عمرو اذ ذاك مازال يتأمل قبل أن يجابه قومه بترك ماهم فيه ، وجاءه أمية فقال له : « كيف أصبحت ياباغى الخير ؟ » فرد عليه زيد : « بخير » فقال أمية : « هل وجدت ؟ » فقال زيد : «لاوآل

من طلب ، ان هذا الذى ينتظر هو منا أو منكم أو من أهل فلسطين » .. ان الحياة والظروف كلها لتتهيــــأ الان لاستقبال منقذ آخر ..

المبشرون الاوائل كلهم يطلقـــــــون صرخاتهم المحتجة ، ولكنهم فى أعماقهم كانوا يؤمنون بأن رجلا آخر يجب أن يقول الكلمة الحاسمة التى تضىء بها الظلمات ويتغير وجه الارض .. لم يقدم واحد منهم للبسطاء ما يؤمنون به ويتحركون تحت رايته .. كانوا كلهم يبحثون فى طيبة ولهفة لا تنتهى عن الحل ، ولكن أحدا منهم لم يقدم الحل الذى يعتنقه المعذبون ، فيفرضوه !

وعلى الرغم من كل شىء ، فما زال صوت الظلم هو الذى يرتفع ، وقيم الحاكمين هى السائدة .. مازال الرجل يمتهن ، والمرأة تبتذل ، والاسرة مفككة ، ما زال الرجل يرث عن أبيه الزوجة ، والمرأة تباح لعدة رجال ، ولا حرمـــة لشىء بعد .. الانسان يستعبد ويعامل كالفريسة ! .. القوة العضلية هى الشريعة ، أما العقل فلا حاجة لاحـد به ! .. وماذا بعد ..

وها أنت ذا يا ولدى حزين غريب فى هذا التيه الذى يتنفس بالاكذوبة واللعنة والهوان والمنكر .. وانك يا أبا القاسم لتعتزل هذا كله وتترك أهلك لتخلص الى نفســك فى « حراء » كما فعل قبلك مخلصون ، غلوا واضطرموا لبعض الوقت ثم لم يعد احد يسمع عنهم بعـــــد ذلك شيئا .. ما سكوتك على كل هذه الضلالات ، وما اعتزالك طول شهر رمضان . قل كلمتك .. لقد عودك قومك أن يحترموها .. ذهبت عنك حدة الشباب .. فقم فبشر .. قم فواجه أعداء الانسان .. قم ، فأنذر !

تلك الليلة من رمضان

لم تكن الجزيرة وحدها هى التى تعنيه ، فقد طاف بالشمال والجنوب وعرف كثيرا عما يحدث فى بلاد الفرس والروم .. وفكر فى هذا كله ، ففى كل مكان يهدرالانسان ويسيطر الغيظ أحيانا ، حتى لتمتد يد المرأة الحنون الى قلب خصمها بعد أن يقتل ، فتأكل منه القلب الحى .. وتلعق الدم !

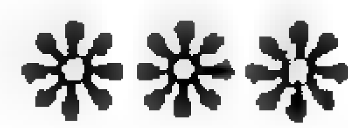
وما زال الملاك الكبار فى بلاد الروم يصنعون بالرجال والنساء ما يصنعه المرابون التجار الكبار فى مكة،والرؤساء والدهاقون فى بلاد الفرس .. وهنا وهناك يقضى على الانسان ما يقضى باسم قوى الخفاء التى لا تقاوم ولا ترد، وهى قوى لا تشبع من دم الضعفاء ، وتقتات بالهوان ..

وهى فى مكة تتخذ اسم الاصنام ، وفى بلاد الفرس تتخذ اسم الآلهة ، وفى بلاد الروم تتخذ اسم الاحبار ورجال الكهنوت .. لقد هان كل شىء حتى لقد وثبت امرأة من أرصفة القسطنطينية الى الملك

ونقلت صناعاتها من الحانات ، الى عرش الامبراطورية الرومانية ، وكانت مولعة بالشذوذ فراق لها أن تمارس علاقاتها وهى بالتاج الامبراطورى ، وحولت الكنائس الى أوكار للمؤامرات والمذابح ، وأشاعت فى كل مكان جوا من الفوضى والظلمات والانحلال .. فكان الصناع الفقراء يؤمرون بتحويل فنونهم الى ما يشبع شذوذها ونهمها فان رفضوا أو ترددوا قتلوا بالمئات .. وكانت مزارع

الفلاحين مباحة للنهب بأمرها .. وتحولت الامبراطورية الشامخة الى سوق واسع للرقيق الابيض يحكمه النخاسون ، وتحول كل ما هو مقدس ، الى مخدع .. !

وفى بلاد الفرس ظهرت مذاهب أخرى غريبة، وتجردت الاساطير الدينية من روحها القديمة ، وفقدت النار والظلمة معانيها الرمزية يوما بعد يوم منذ اصبح الكهان هم ملاك الارض والتجارة .. فقد استهواهم المتاع الحسى ، حتى لقد ظهرت عبادة جسد المراة .. واصبح جسد المراة الها يتقرب منه الكهان ، ويستنفدون طاقتهم البدنية تفانيا فى عبادته .. وامتلأت الاناشيد المقدسة بالالفاظ الفاضحة التى تتغزل فى بدن المرأة العارية وتصفه بكل تفاصيله بلا حياء .. واصبح من حسن حظ الفتاة قبل أن تزف الى زوجها ان يقع عليها اختيار كبار الكهنة ، لتقيم عندهم اسبوعا كاملا ، يتعبدونها بالتبادل وليجتلبوا لها البركات .. وهم عراة مخمورون ..



وحتى القيم الروحية القديمة فى المسيحية واليهودية ، لم تعد على حالها بعد .. فقد تحولت الى عبادة لصور القديسين والشهداء .. وتحولت سلطة الرب الى القساوسة والكهان .. هم وحدهم الذين يفتحون ابواب الجنة وأبواب النار .. وهكذا تحول الاعتراف الذى يكفر به الخاطئون والخاطئات عن الذنوب الى طريقة لابتزاز المال تحت ضغط التهديد باذاعة سر الاعتراف .. كان هذا التلويح بالفضيحة هو أسلوب رجال الدين لابتزاز المال أو لاجتناء المتاع ..

الفساد يشيع فى العالم كله لا فى مكة وحدها .. ومحمد ابن عبد الله ، يعلم هذا من رحلاته وأسفاره العديدة .. ومما

روى له أصدقاؤه الذين يرحلون .. ولقد تعود عندما يأتى شهر رمضان من كل عام أن يعتزل الناس الى خارج مكة .. وكان محمد يترك زوجته الحانية خديجة أياما طوالا من هذا الشهر .. ويظل يتأمل كما تعود الباحثون عن الحقيقة من قبله ، بعيدا عن صخب مكة ولهوها واصطكاك المصالح الفاسدة فيها .. ولقد يبيت فى حراء بعض ليالى شهر رمضان

واذا كان يغيب عن خديجة أكثر مما تتحمل زوجة محبة فقد تعودت أن ترسل اليه من يبلغه شوق أهله .. فيعود .. وكانت فى بعض الاحايين تخرج معه ، ويضرب لها خباء على مقربة من مكان نسكه بدلا من أن تكبده مشقة العودة الى بيتها فى مكة ..

ولقد أصبح محمد الآن فى الاربعين وهى السن التى تعترف فيها قريش لفتيانها بأنهم لم يعودوا صغارا ، فمن حق الواحد منهم أن يكون عضوا فى حكومة قريش .. اذا كان على حال من الغنى تسمح له بهذا الشرف .. ولكن ظروف الحياة فى قريش لم تتح لمحمد أن يكون عضوا فى هذه الحكومة أبدا .. فقد كان فى قريش عشرة بطون يمثل كل بطن منهم فى حكومة مكة رجل واحد .. وكان رهط محمد هم بنو هاشم وقد مثلهم فى الندوة من قبل جده عبد المطلب ، ويمثلهم اليوم عمه العباس بن عبد المطلب وهو من أيسر تجار قريش .. على أن محمدا كان يملك فى هذه الحكومة أعز أصدقائه عليه ، وهو أبو بكر بن ابى قحافة ، وكان مختصا بالقضاء فى الدية والغرامات .. وهو أيضا تاجر غنى ..

وكان محمد يعجبه من رجال الحكومة بعمر بن الخطاب ، وكان اليه أمر السفارة .. فهو الذى ينطق باسم قريش فى

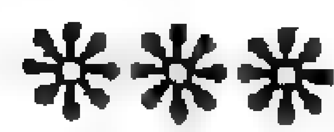
علاقاتها الخارجية مع المدن والقبائل الاخرى .. وكان محمد يقيم اذ ذاك مع خديجة وولده منها ، ميسور الحال، ولكنه دائما قلق مضنى تغشاه بعد تأملاته الطويلة احلام كثيرة .. كان ما زال يبحث عن حل كامل حاسم للفوضى التى يعيش فيها العالم كله .. لا مكة وحدها ..

لكنه لم يكن مأخوذا بهذه التأملات ولا الاحلام ، فهو يحيا حياة الناس اذا انقضى شهر نسكه .. ينهض كل صباح ليحلب عنزته بيده ، ويرفض أن يدع احداً من خدم خديجة يساعده .. كان يؤثر ان يحيا كالبسطاء ، كما كان قبل أن يصيب الغنى من تجارته لخديجة . وهو ينزل الى السوق بنفسه ليشترى ما عسى أن يحتاجوا اليه من طعام ..

وكان فى طريقه الى السوق يمر بصبيان يلعبون فى الطريق فيبتسم لهم ويتحدث اليهم على عكس ما تعود الكبار فى مثل سنه . وكان أحيانا يصطحب معه ابن عمه على بن أبى طالب . وكان محمد قد أخذ عليا يربيه بين ولده تخفيفا عن عمه أبى طالب ، وعرفانا للجميل .. فقد تحدث الى عمه العباس ذات يوم : « ان أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من الازمة فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه وتأخذ أنت .. » وانطلقا حتى اتيا أبا طالب فحدثاه فى الامر .. وعاد محمد بعلى ، وعاد العباس بجعفر ..

واقام معه على منذ ذلك اليوم ، وهو الآن فى الثامنة، يخلص أحيانا الى الغلمان فى مثل سنه ليلعب فى طرقات مكة فيحدثهم عن ابن عمه محمد الذى يبتسم لهم من دون الرجال ، وعن زوجته الطاهرة . ان محمدا هذا يكره العبيد والجوارى . وفى بيته الفيت كلمتا « العبد

والجارية » وأحل مكانهما « فتاى ، او فتاتى » .. وهو يصبر على الخدم ، فما يقول لاحد منهم «أف» مهما يخطىء .. وعلى الرغم من أن زوجته الطاهرة تحنو عليهم وتهش لهم ، فما زال بها يوصيها الليل والنهار أن تطعمهم مما يطعم أهل البيت ، وتكسوهم من نفس لباس أهل البيت ، والا تشق على هؤلاء الخدم بعمل ، وأن تساعدهم ، وألا تكلفهم مالا طاقة لهم به ..



وكان هذا الذى يحكيه على عن ابن عمه محمد يملأ قلوب الغلمان بالحيرة .. فهم يعرفون ما يمتلىء به بدنه من قوة وما فى قلبه من الشجاعة .. وهو مع ذلك يملك كل هذه الرقة مع الخدم وكل هذا اللطف معهم هم الصغار ! .. انهم يعرفون شجعانا آخرين من قريش ، ولكنهم يمرون بالغلمان فيمسك الغلمان عن الحديث خوفا منهم : عمر بن الخطاب ، حمزة بن عبد المطلب ، عمرو بن هشام ، ولكن أبا القاسم هذا هو اكثرهم شجاعة واعظمهم فتوة وهو مع ذلك أكثرهم رقة ..

والصغار والكبار ، ما زالوا يذكرون اقدامه الجسور على فحل من الابل كان قد جمح وتوحش واصبح كالكواسر الضارية ، حتى لقد فر الشجعان من امامه .. على أن محمدا اقتحم عليه وجذبه بكل قوته فاخضعه وكبح جماحه ..

لم تكن قريش قد تعودت من قبل مثل هذا الاقدام فى مواجهة الخطر من أجل الآخرين .. لم تكن قد عرفت بعد شجاعا ــ قبل محمد بن عبد الله ــ يواجه بمثل هذا الهدوء والاستبسال ، قوى صماء شرسة تخلع القلوب من الرعب ! ..

وهكذا كان الصغار والكبار يحبونه ويعجبون به ، الكبار والصغار ، والرجال والنساء .. أن سيرته بينهم تعكس أفكاره وتأملاته .. لم يصنع شيئا أنكره .. لم يصخب مرة فى سوق ، لانه كان ينكر الصخب .. لم يكن يسمح لنفسه بأن يبيت شبعان وله جار جائع .. لم يبتدرانسانا باساءة ، وهو يكره الكذب والزيف ، فلا يسكتعلىأكذوبة، ولا يزيف ابدا ليكسب .. يفضل الا يبيع على أن يكسب بالتلاعب..يقول الحق ولو آذاه.. الوعد عنده مقدس.. ولانه لم يكن يرتكب ما ينفر منه ، ولان خطواته فى الحياة كانت تعكس تأملاته عن الخلاص وعن عالم افضل ، فقد احبه حتى الذين غرقوا فى الدنس الى الاذقان .. أحبه التجار والمرابون واحترموه على الرغم من أن أمانته وعدله ورقته كانت تشكل احتجاجا صارخا على أساليبهم ..!

ولم يحفل أحد بخروجه كلما جاء رمضان ليتعبد فى حراء .. لقد كان بعض الفتيان والشيوخ يصنع هذا أيضا .. يرفض الخمر ، وينبذ دور اللهو ،ويكتفىبالزواج، ولا يعبث بالكيل أو الميزان ، ويتجنب الطواف بالكعبة عاريا وسط رجال ونساء عراة ، حتى اذا جاءشهررمضان خرج هذا الفتى او ذاك الشيخ ليعتزل صخب الحياة على جبل حراء ، غير بعيد من مكة ..

ولكنه عاد من حراء ذات ليلة من رمضان ، شاحبا ، يرتعد .. وكان قد أطال الغياب فى حراء حتى قلقت عليه خديجة فأرسلت اليه تتعجل عودته .. كانت فى خبائها تنتظره ، وحسبته عاد الى مكة فبعثت من يبحث عنه هنالك .. واذ وافى خديجة ، راعها شحوبه والعرق الذى يتصبب منه والرعدة التى أخذته .. كان عائدامن حراء ..

لم يبرحه الى مكة .. ولكنه كان نائما فى الغار وخلال نومه حدث شيء هائل .. غريب ..

وخشيت عليه من طول التأمل فى غار حراء ..

وقال لها : « يا خديجة ، لقد خشيت أن أكون كاهنا ، أو يكون بى جن .. »

فقالت له : « كلا يا أبا القاسم .. لا تقل مثل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبدا .. انك تصدق الحديث ولا تجزى السيئة بالسيئة ، وتؤدى الامانة ، وتصل الرحم ، وان خلقك لكريم ، ولست بصخاب فى الاسواق »

انه لا يعرف بعد !! .. انه لم يسيء الى أحد قط ، ولم يؤذ أحدا فى ماله ولا فى نفسه ، وانه ليطعم المسكين وابن السبيل .. وما امتهن جسده مع خليلة ، وما أباح عقله للسكر .. وكم من رجال غيره اعتزلوا فى حراء فلم يحدث لهم هذا الذى حدث له ..

لقد كان يشعر فى السنوات الاخيرة كلما خرج الى حراء ، أن ما حوله من صخر وسماء ورمال وصمت كأنما يغيب فى لغز رهيب .. ولقد حدث صاحبه ابا بكر بهذا فما أفاده .. وحدث زوجته خديجة فما انتفع بما قالته . ولكنه فى هذا العام قد هجر تجارته ، ولم يعد شيء أحب اليه من أن يخلو وحده . وظل يحلم وهو نائم .. يحلم بأشياء رهيبة حقا .. كأن أصنام الكعبة تسقط ودولة الطغيان تتقوض بكل دعارتها وترفها المستبد من أقصى بلاد الروم والفرس .. وكأن الناس قد تحولوا الى بشر آخرين ، لا يرفع أحدهم السيف فى وجه اخيه ، ولا تمتد يد بالعدوان على أحد .. كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعا لا حصر لها من رجال شرفاء ونساء فاضلات ، وأطفال سعداء يحلمون بالمستقبل .. لم يعد الانسان مهدرا ممزقا .. لقد تغير

هذا الجيل الذى يشرع ضروسه واسنانه لاكل المساكين والفقـــــراء .. تغير تماما .. وتخلت الذلة عن وجوه المساكين والضعفاء !

لقد طالمـا حلم وهو نائم انه يعيش فى عالم أفضل .. يبتدر فيه الرجل أخاه بالاساءة ، فيعفو من أسىء اليه ، واذا بالرجلين يتعانقان .. تخفى المرأة زينتها فلا تبيحهـا الا لزوجها صاحب الحق فيها .. يعين الانسان أخاه المحتاج ويرفض ان يتقاضى ربحا عن قرضه .. عالم آخر تماما ملأ احلامه اثناء النوم ، عالم انطلق فيه العبيد بشرا آخرين ينشدون للحياة ، ويتولون مناصب ــ كالســـادة ــ فى حكومة مكة وبلاد الروم والفرس .. فهم ليسوا عبيـدا بعد ، وانما هم بشر أفضلهم بين الناس هو أحســـنهم سيرة ..

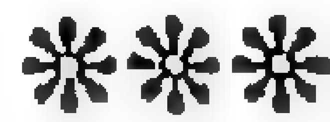
ولكنه فى تلك الليلة من رمضان ، أغفى قليلا ، فنام .. فراى من يعرض عليه كتابا ويطلب منه أن يقرأ .. فقال له « ما أنا بقارىء » .. ولكنه ألح عليه ان يقرأ ، فســـأله «ماذا أقرأ » فقال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق .. خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى عـــلم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » .. وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه فى النوم .. ولهو يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه اذا به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتا من بعيـــــد يقول له : « يامحمد .. انت رسول الله وأنا جبريل »

ما كل هذا .. ؟ ! انه ليخشى أن يكون كاهنا او يكون به مس من جن .. من يصدقه .. ماذا يريد جبريـــل هذا ؟ .. وهو رسول الله الى من . ؟ وماذا يحمل الى الناس ؟ ان جبريل هذا لم يحدثه عن شىء مما يفكر فيه

.. لم يحدثه عن المعذبين ولا عن العالم المضطرب الذى ينشد خلاصه ..!

ولكن خديجة الزوجة البارة الحانية التى لم يختلف ودها أبدا ، ظلت تدخل الطمأنينة الى قلبه وتؤكد له ان الاذى لايمكن ان يصيبه لانه لم يصنع أذى لاحد .. وكان قريبها ورقة بن نوفل قد حدثها كثيرا عن المسيحية التى آمن بها .. وعن الرب وملكوت الرب .. ورسالة عيسى وموسى من قبل ..

وخرج محمد وترك خديجة حائرة لا تعرف كيف تبدد هموم زوجها ... انها لتصدقه . ولقد سعى اليها الغلام الصغير على ، وسمع ما كان يقوله ابن عمه فصدقه هو الاخر .. وسمع زيد بن حارثة بما كان من امر محمد متبنيه .. فصدقه . الثلاثة يصدقون الرجل ولكنهم لا يفهمون الامر .. انهم ليثقون به ويؤمنون بكل ما يمكن ان يقول ، فلقد عرفوه دائما امينا صادقا حكيما صائب النظر رقيق القلب ..



واقبل ابو بكر بن أبى قحافة يسأل عن صديقه محمد ابن عبد الله واستقبلته خديجة وروت له ما كان من أمر صديقه .. ونقلت له مخاوفه ان تكون قد اصابته حمى الكهانة او مسة الجن .. ونصحت له أن يذهب الى ورقة بن نوفل ، فقد يكون فيما لديه من العلم تفسير لهذا الذى وقع لمحمد فى نومه ..

وانطلق ابو بكر الى ورقة يروى له ماحدث لمحمد ؟! أهو مبشر جديد اذن مثل زيد بن عمرو ؟ .. ولكن زيدا ابن عمرو لم ير فى الحلم شيئا كهذا ، ولم يقل له احد انه رسول الله ..

وأخذ محمد يطوف بالكعبة على عادته كلما عاد من حراء فتقدم اليه ورقة بن نوفل فقال له : لقد جـــاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى .. ثم قبل رأســـه واستطرد : « وانك لنبى هذه الامة » . وحـــذره انه سيكذب ويعذب ويؤذى وينفى من دياره ويقاتل ..

هكذا تماما كما حدث للمبشرين الاوائـــل !.. وماذا بعد ؟.. أجل ماذا بعد ؟.. لقد صدقته خديجة زوجته، وابن عمه على ، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديقه ابو بكر ..وبشره الرجل الصالح ورقة بن نوفل .. ســـيعذب ويؤذى ويقاتل ..

ولكن ماذا بعد ؟.. على أى شىء صدقه هؤلاء جميعا وبم يبشره وينذره ورقة ؟ لقد قال زيد بن عمرو للناس أشياء كثيرة ، وخالد بن سنان قال أيضا اشياء كثيرة، وغيرهم .. وغيرهم .. وكلهم طرد ، وعذب ، وأوذى . ثم قوتل وقتل . أما هو فأية أشياء يقول ؟ .. ان نفس الاشياء التى قالها الاخرون لا تجدى ابدا لان هذا العالم المهنار المتشـــابك الفســـاد يجب ان يهدم ليبنى من جديد ..

كان هذا هو اقتناعه .!وبعد شهور وشهور من التأمل والضنى خرج محمد ليعلن ان هذا القضاء الفاشم الذى فرضته الالهة والكهنة والاصنام فى اقطار الارض انما هو اكذوبة ومصيدة للضعفاء والفقراء والذين لا يملكون من الامر شيئا .. فكل نفس بما كسبت رهينة ..

وهكذا انطلق ، وقد أدرك دوره حقا لاول مرة ، منـــذ تلك الليلة فى رمضان

طريق الخلاص

أعدت الحياة له مكانا .. وانتظرته . هيات الظروف الاجتماعية محله ، فكان من الضرورى ان يقبل ليملأ مكانه المرتقب ، مسلحا بفهم كامل لطبيعة دوره ، وبنظرية كاملة عن الحياة والموت ، وبادراك كامل لحاجات البشر المعذبين : حاجتهم الى أسلوب فى العلاقات أكثر عدلا وانسانية ، وحاجة وجدانهم الى قيم روحية جديدة ..

وهكذا أقبل أبو القاسم محمد بن عبد الله من أغوار تأملاته .. من قاع مجتمعه ، طيبا متواضعا كالمساكين .. وهو يملك مع ذلك من الصرامة والشجاعة والقدرة المبدعة ، ما يفرض هيبته على الذين يضربون فى الارض بصلفهم ويتشامخون بمالهم ونفرهم . ولو انهم على أية حال لن يخرقوا الارض ولن يبلغوا الجبال طولا

كانت قوة التجار والمرابين والاغنياء قد الصقتهم بأصنام الكعبة ، وكان التصاقهم بهذه الاصنام يمنحهم مزيدا من القوة والغنى .. فهى تحمى الاخرين واليها يحج العرب كافة ثلاثة اشهر من كل عام : يقدمون الهدايا والقلائد والاموال الى الاصنام ، أى الى الذين يحكمون باسم الاصنام ..

وخلال هذه الاشهر يستثمر هؤلاء الاغنياء اموالهم فى البيع والشراء والربا .. فيربحون ويربحون . وهذه الاصنام بعد هى التى تمنح الملاك كل سلطانهم على الاجراء والمعدمين والعبيد وأبناء السبيل ...

وواجه محمد هذا كله بأن الاصنام ضلال، وانها لن تغني شيئا ، وأنها لاتملك للانسان نفعا ولا ضرا .. وأن الامر كله لاله واحد ، لا يحتاج الى وسطاء .. اله واحد احد، خالد ابدا ، لم يلد ولم يولد .. وليس شيء كفئا له ولا أحد !. وهذا الاله اكبر من ان يحده مكان كالكعبة ، ولا حتى مكة نفسها فهو فى كل مكان ..

ليست له صورة وهو الذى خلق كل شيء ، وهو وحده الجدير بأن يعبد . يستوى عنده العبيد والاشراف ، الفقراء والاغنياء ، الرجال والنساء .. وهو الذى يحيى ويميت ، وسيبعث الناس فى يوم معلوم بعد الموت ليحاسبهم على ما صنعوا فى الحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا الا لهو ومتاع وغرور .. وهى الى زوال .. وهذا الاله الواحد لا يرضى بالزنا ، ولا الربا ، ولا القتل ..

وهو يلعن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها على الفقراء ، وسيحمى على هذه الكنوز — فى النار — عندما يبعث الناس بعد الموت ، فيكوى بها جباه الذين كنزوها وجنوبهم وظهورهم ، وسيحرق أجساد الذين يعبثون بحقوق الاخرين ، فاذا كالوا لهم أو وزنوهم يخسرون

اما المساكين الذين يمتهنون اليوم فلهم شأن آخر بعد الموت ، فقد أعدت لهم جنات فيها حدائق وأعناب وكواعب أتراب اذا هم هجروا الفاحشة ، ولم يسرقوا ولم يكذبوا ولم يقتلوا واذا هم ادوا الامانات الى اهلها ولم يكرهوا فتياتهم على البغاء وفاء لديون المرابين ، واذا هم نبذوا الأصنام وتحرروا من سلطانها على قلوبهم وعبدوا الاله الواحد الأحد الذى ليست له صورة ، ولا يحده مكان أو زمان .. والذى بعث محمدا رسولا الى كل الناس

بشيرا بجنة خالدة ونذيرا بنار خالدة

. انه اله آخر غير ماعرفوا ، فاله محمد لا يريد وساطة ولا مالا ولا قلائد ، ولا سبيل اليه بحسب أو بغنى .. فما الانسان عنده غير سيرته الصالحة .. غير صدقه وشجاعته وحسن معاملته وغير فضائله .. ذلك أنه غنى عن العالمين وانه ليس للانسان الا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى

بهذا التصور الجديد للحياة والموت ، وبهذه القيم الروحية الجديدةواجه محمد ضلالات قومه..واهتزت الحياة المتموجة فى مكة .. من يصدقه الان ؟ .. لقد صدقته زوجته عندما روى لها عما حدث فى تلك الليلة من رمضان ، وهو على جبل حراء .. ولكن أتراها تؤمن بما يقوله اليوم ؟.. كانت تتفانى فى حبه ، وتستعذب كل عناء لتمنحه لحظات من الراحة ، ولتعمر قلبهبالثقة. ولقد صدقه ابن عمه على بن أبى طالب فى نبأ حراء أيضا، وصدقه ابنه بالتبنى زيد بن حارثة ، وصدقه أبو بكر صديقه الذى شاركه تأملاته وقلقه ، والاغتراب ..

كلهم صدقه عندما جاءهم فى تلك الليلة من رمضان منذ ثلاثة اعوام يروى لهم نبأ حراء ، ولكنه اليوم يواجههم بشىء جديد .. ويطالبهم أن يؤمنوا به ، وأن يحفظوا الكلام الذى يدفعه اليهم ، وأن يناضلوا اذا اقتضى الامر لكى يكون ما يجىء به هو القانون الذى يسود

لكم يبدو هذا كله شاقا ورهيبا ؟.. لئن كانت أصنام الكعبة ضلالا حقا ، فسينصرف العرب عن زيارة الكعبة خلال الاشهر الثلاثة الحرم ، وسيحرم الاغنياء مصدرا كبيرا للغنى .. وسيفقدون بسقوط الاصنام كل هيبتهم وسلطانهم . سيبذلون كل ما يملكون ليكذبوه ويعذبوه

ولينفوه هو من الارض ، قبل ان ينفى عنهم مبرر بقائهم سادة أغنياء ..

أو لم يتوقع ورقة بن نوفل هذا كله ؟ سيكذبونه .. أجل ، وسيعذبونه ويطردونه الى التيه كما حدث لخالد ابن سنان ، وزيد بن عمرو ! لن يرحموه ..

ولكن الذى يقوله محمد شيء جديد لم يقله خالد ولا زيد .. وهو مستعد لان يناضل حتى الموت فى سبيل دعوته .. انه يعد الضعفاء الذين يرفضون الظلم جنة عرضها السموات والارض .. وينذر الظالمين بالنار .. وهو يهيىء للعبد مكانا الى جوار السيد وللمرأة مكاناالى جوار الرجل ..

مهما تكن المشقة ، فمحمد الامين لا يكذب ، والفضائل التى يدعو اليها هى وحدها الجديرة بأن تحكم علاقات البشر . وعلى الزوجة التى اخلصت له وملأت حياته بالامن أن تثق دائماً به . وهكذا آمنت خديجة بكل مايدعو اليه .. وقلبها يتجه الى الله الذى يدعو لهمحمد، أن يضن به على الاذى ، وأن ينصره ويحميه من الذين يملكون المال والسلطان

آمن على بن أبى طالب بما يدعو اليه محمد ، وتمنى بكل فتوته الجديدة لو أنه استل سيفا فى وجه قوى الخفاء نفسها ليفرض على كل القلوب تعاليم ابن عمه .. ومضى يلوح بيديه فى الفضاء . وآمن زيد بن حارثة ..

وخرج محمد الى الكعبة يحدث الناس عن الهه .. فى رفق ، كمن يتحسس طريقه بينهم .. وكان فى الكعبة بعض فتيان ورجال يكبرون محمدا ، ويعرفون فيه الصدق والشجاعة ويحترمون استعلاءه عما يأخذون فيه

وكانوا يعرفون أيضا صداقته لابى بكر وحرص الصديقين معا على أن يعاملا الناس بالحق والصدق والعدل

وعجبوا لما يدعو اليه محمد .. ما هو هـــذا الاله الواحد الذى يتحدث عنه ؟ أيكون ايثاره للخلوة قد اثر عليه ؟. انه لعاقل وحكيم ، فما من حقه أن يدعو الى غير ما يعبده قومه .. أين حكمته ؟. انسى مصير خالد بن سنان ، وزيد بن عمرو ؟ . وأشفق عليه نفر منهم فقاموا ينصحونه ولكنهم رأوا اصراره ، فآثروا ان يرسلوا الى أبى بكر أحب اصدقائه اليه وأكرمهم عنده .. فأبو بكر ابن أبى قحافة تاجر غنى يكسب من الاشهر الثلاثة التى يحج فيها الناس الى آلهة الكعبة . وسيبور جـــزء من تجارته لا ريب ، ان شاعت دعوة صديقه محمد بن عبد الله فشك العرب فى آلهة الكعبة ، واتجهوا الى هذا الاله الواحد الذى لا يحده مكان .. وأبو بكر بعد هو واحد من عشرة رجال يحكمون مكة .. وله فى قلب محمد منزلة خاصة ، فلعله يستطيع ان يرجعه عما أخذ فيه

وانطلق العقلاء منهم جزعين الى أبى بكر فقالوا له : « يا أبا بكر ان صاحبك .. » فقاطعهم فى قلق : « ومـــا شأنه ؟ » قالوا « هو ذاك فى المسجد يدعو الى عبادة اله واحد .. ويزعم أنه نبى » .. ففكر ابو بكر قليلا قبل أن يســـألهم : « أقال ذاك ؟ » .. قالوا : « نعم » .. وانصرفوا مشفقين ..

اندفع ابوبكر بجسده النحيل ، ووجهه المعـــــروق الابيض ، وعينيه الغائرتين .. لم يكلم احدا ولم يلتفت الى احد على طول الطريق الى الكعبة حتى أتى محمدا .. فقال له : « يا أبا القاسم ما الذى بلغنى عنك ؟ » قال : « وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟ »

ـ بلغنى أنك تدعـــو الى توحيـــد الله وزعمت انك رسول الله ..

ـ نعم يا أبا بكر ان ربى جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة ابراهيم وأرسلنى الى الناس جميعا

وأبو بكر اذ ذاك هو اكثر رجال قريش علما بتـاريخ العرب ، وأعمقهم ثقافة . يعرف الانساب والســـير والديانات التى عاشت فى الجزيرة ومن حولها على مدى القرون . ولم يتردد ابو بكر .. وقال :

ـ والله ما جربت عليك كذبا ، وانك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصـلتك ارحمك وحسن فعـالك .. مد يدك فانى مبايعك ..

وعاد محمد الى خديجة ، فرحا ، يذكر لها ماكان من أمر أبى بكر .. العزيز الصديق .. ومضى أبو بكر يفكر فى دعوة محمد ، وفيما يمكن ان يقاومها به زملاؤه فى حكومة مكة ، من التجار الاغنياء ..

على ان دعوة محمد شاعت بين الاجراء المستضعفين والعبيد يوما بعد يوم .. أخذوا يعتنقونها ، ويستعدون لجعل تعاليم محمد هى دستور العلاقات فى مكة .. انها تمنح العبد حق الحرية وتلزم السيد بأن يذعن للعبـد الذى يريد ان يتحرر أن يتركه يعمل بأجر ليشـــترى حريته .. وهى تجعل الفقير حقا معلوما فى مال الغنى . وهى تضمن للمرأة حياة أخرى .. الانثى كالذكر ... خلقهما نفس الله .. ليست الانثى اذن كما كانت تزعـم التقاليد ثمرة الخطيئة فى الارض ، وممثلتها ، ووحيهـــا وأداتها ..

وهذه التعاليم تنهى الاباء والازواج عن اكراه فتياتهم على البغاء .. وهى تكفل للمرأة حياة متكافئة مع زوج

يسكن اليها وينفق عليها ويعاشرها بالمعروف ويسرحها باحسان ويدفع لها مهرا عند الزواج ، ونفقة بعد الطلاق

وهذه التعاليم ترفض كل انواع العلاقات الاخرى التى تعترف بها شريعة مكة .. ليس للمرأة ان تتخذ أخدانا، وليس لأحد ان يهبها لغيره ويستوهبه بدلا منها — كالسلعة — وليس لزوجها ان يكرهها على ان تعاشر هذا الرجل أو ذاك من أغنياء قريش ، ليكون لها ولد من صلب رجل غنى عريق ..

فتعاليم محمد تطالب الرجال بأن يصونوا أعراضهم وتطالب النساء بأن يصن أعراضهن ، والزوجة هى عرض زوجها وشرفه .. والرجل هو عرض زوجته وشرفها .. وعلى الرجال والنساء ان يحفظوا أجسادهم مطهرة لبعضهم وألا يسمحوا بتخليط الانساب ، وأن يقيموا علاقاتهم فيما بينهم على أساس بناء اسرة وانجاب أطفال وتكافل فى الحياة ، لاكما هى الان .. كأنها دولة الحيوان

ما من امرأة سمعت هذه التعاليم وآمنت بها الا حملت زوجها على أن يؤمن معها ..

وهكذا انتشرت التعاليم الجديدة بين النساء والعبيد والاجراء

وسادة قريش ينظرون الى محمد مستخفين ، فما اتبعه الا الاراذل .. وها هو ذا عمرو بن العاص يلاحق التعاليم الجديدة بسخرياته منذ رأى أحد العبيد يتلو ما جاء به محمد ، ومنذ رأى امرأة عرف مخدعها كثيرا ، تنكس الراية التى كانت على بيتها ، وتطرد الرجال جميعا، وتتلو ما تعلمته عن محمد وتعلن أنها لن تصنع علاقة أخرى برجل — أى رجل — الا ان كان زواجا فى حدود تعاليم محمد ، برجل يؤمن بهذه التعاليم ..

ولم يرق هذا لأبى بكر .. من الحق ان هؤلاء قد وجدوا خلاصهم فى تعاليم محمد ، ولكن مكة مع ذلك حافلة بغير العبيد والبغايا والمستضعفين والاجراء ، وما يجب ان يكون كل أعوان محمد من الذين تجوز عليهم سخرية سادة مكة . ومن سادتها رجال يأنسون الى أبى بكر ويأتونه ويألفونه .. انه لأعلم قريش بقريش ، وبما فيها من خير وشر

وصمم ابو بكر على ان يعزز تعاليم محمد ببعض الصحاب الذين يثقون به .. ليس كل أغنياء مكة غارقا فى الخطايا ، فمنهم من يرفض الربا مثله ، وينكر مثله اسلوب الحياة فى مكة .. والقلب الطيب يتجه الى الخير ويرفض الاذى ويضيق بالام الاخرين مهما يكن ضغط المصالح المالية ، فليست المصلحة دائما هى التى تحرك الرجال .. على أية حال !. واتجه الى أعز أصدقائه عليه ، عثمان بن عفان ، وهو أشرف قريش ومن كبار أغنيائها .. وحدثه عن محمد وتعاليم محمد ، وسمع عثمان طويلا .. اليس هو محمد الامين ؟.. أليس هو والد رقية ؟.. لقد وقع منها فى قلب عثمان شىء ، ولكن اباها زوجها لابن عمه الفنى !

وخفق قلب عثمان .. ولكنه أخذ يتفتح للتعاليم الجديدة ، فلقد طالما ضاق باستكبار أصدقائه الاغنياء وتعنتهم مع الفقراء والمساكين . ولطالما اشمأز من نسق الحياة الآثمة فى قريش . وآمن عثمان بن عفان .. بعد أن أقنعه أبو بكر ..

وما زال أبو بكر بأصدقائه حتى آمن الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبد الله .. وكلهم تاجر غنى يسلك أسلوب الطاهرة فى

التجارة ، ويأنف من الربا والظلم ، وما عرفوا كسراة قومهم مباذل الليل فى مكة . فى الحق .. انهم من كبار الاغنياء والسادة فى قريش ، فالزبير بن العوام الذى لا تخطىء العين طوله الملحوظ يملك ملايين الدراهم ، وعبد الرحمن ابن عوف تاجر واسع الغنى ، يملك الاف الدنانير ومئات الابل ، وحدائق شاسعة فى الطائف . وسعد بن أبى وقاص، شريف فى قومه وهو أحد فرسان مكة ، وهو ليس أكثر تجار قريش مالا ولكنه من أعزهم نفرا . وطلحة بن عبد الملك تاجر له أموال مستثمرة خارج مكة .. وقد امتد نفوذه المالى حتى العراق .. وله مكانة وحساب . كلهم له المال والقوة والنفر ، والقلب الناصح ، فلن يسخر احد منهم ، وما من حق أحد بعد أن يسخر بتعاليم محمد ..

فليس الاراذل والعبيد والبغايا والمستضعفون هم الذين اعتنقوا هذه التعاليم وحدهم .. ولكن هناك أيضا تجار كبار طيبون ، وسادات فى قومهم ، ومثقفون كبار . مثقفون لم تعرف قريش مثلهم ، كلهم آمنوا بمحمد : هم ونساؤهم بنات الاسر الكبيرة العريقة فى قريش

وفى هدوء الليل الذى لم يكن يعمره من قبل غير صرخات الضائعين فى العراء ، وضحكات الرجال والنساء المختلطة برنين الكئوس خلف أبواب القصور .. فى هدوء الليل الذى كان يقبل دائما على مكة بمتاع جديد للسادة، وشقاء جديد للمساكين ، فى هدوء الليل بدأت ترتفع همهمات خاشعة تتلو الكلمات التى جاء بها محمد ... كلمات تحمل على أجنحتها الخلاص للقلوب المضناه المثقلة بالمأساة ..

ورأى محمد ان يجمع أسرته من بنى عبد المطلب ، وأن يدعوهم الى الايمان بما جاء به .. فليس أحب اليه من

عشيرته الاقربين . وأولم لهم فى بيته . وسأله عمه الزبير عن الخمر التى سيشربونها ، وكان الزبير رجلا شديد الولع بالشراب والمرح ، فقدم لهم محمد اقداحا ، وصفق الزبير طربا .. ولكن الاقداح كانت ملأى باللبن . وشربه الزبير ، وبدأ يسمع لابن أخيه وبدأوا كلهم يسمعون لمحمد وهو يحدثهم عما جاء به .. ولكن أحدا لم يستجب اليه .. الا على بن ابى طالب .. هو وحده الذى انتفض يؤكد انه سينصر محمدا بسيفه ..

وضحك من الاستخفاف بعض الكبار ، فقد كان على هذا أصغر الحاضرين .. كان اذ ذاك ما يزال فتى صغير السن تتقدم به سنه الى أول الشباب ، ولكن محمدا لم يستخف بحماسة على ، فقد قام اليه ، فعانقه وبكى . وعجب محمد لاهله .. لم يرفضون كلامه ؟وكلهم يعرف فضائله وأمانته وأنه لا يدعو الا الى الخير .. لكم تمنى لو أنهم آمنوا بتعاليمه كما صنع على ، فقاموا دونه مما يتوقعه من أذى حكام قريش ..

ولكنه لم يهن على أية حال .. سيعاود المحاولة مرة اخرى . فليدع بنى هاشم كلهم هذه المرة .. سيدعوهم بنسائهم وعبيدهم وجواريهم . سيدعوهم جميعا .. انه يعرف أن عمه العباس يملك منصبا فى حكومة مكة ،وهو منصب يمنحه النفوذ الواسع . وما كان له أن يمتلك كل هذا الجاه لو تم تؤمن العرب بأصنام الكعبة . وهو يعرف أيضا أن عمه أبا لهب انما يكون ثروته الواسعة من الربا .. وهو كالعباس يملك حدائق فى الطائف يزرعها له العبيد ، وفى مزارع الطائف ترعى قطعان الخنازير ، ومن كرومهما ونخيلهما هناك يستقطر أفخر الخمور ! ..

وأبو لهب يضاعف ثروته خلال الاشهر الثلاثة الحرم التى يحج فيها العرب الى اصنام مكة .. وام جميل زوجة عمه أبى لهب هى أخت أبى سفيان ، أحد أعضاء حكومة مكة وكبار مرابيها .. وهى أيضا تستثمر مالها فى الربا ، ولكن ابنهما عتبة تزوج ابنته رقية ، وقد يفتح الله قلوبهم جميعا لتعاليمه ..

وهو يعلم أيضا ان عمه الزبير لا تعنيه أصنام ولاآلهة، فلا اهتمام له فى الحياة بغير اللهو والطرب والخمر والنساء .. ومع ذلك فمن يدرى ؟!...

وعمه حمزة فتى شجاع ، وقد رضع معه فى الصغر ، والله ليؤثره بحبه .. ولكنه مشغول بالقنص ، والفروسية، وهو حريص على أن ينتزع لنفسه لقب سيد فرسان قريش ، وما فى قلبه مكان بعد لشىء غير هذا .. عسى أن يتفتح لتعاليم محمد قلب حمزه هو الاخر .. وحمزة فارس يرهبه الجميع ..

وأبو طالب رجل كريم طيب .. والله ليؤثر العافية وحسن العلاقة مع قومه ولكن عسى أن يقتنع .. نعم من يدرى ؟!... ربما اقتنعوا بالتعاليم ، مهما تكن الظروف التى تغلق قلوبهم دون هذه التعاليم . مهما يكن من شىء ، فلابد من المحاولة ..

وعلى جبل الصفا خارج مكة وقف محمد ومن حوله بنو هاشم جميعا .. وبعض الرجال والنساء الذين آمنوا بتعاليمه .. كان بنو هاشم يتساءلون ماذا يريد محمد ؟ لاى أمر جمعهم ؟ .. وقال لهم بأعلى صوته من فوق قمة الصفا : « ان الله أمرنى : أن أنذر عشيرتى الاقربين ،وانى لا املك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الاخرة نصيبا الا ان تقولوا لا اله الا الله » .. وانفجر أبو لهب وهو يلوح بيديه

فى وجه محمد بحنق وفظاظة : « تبا لك سائر يومك . . . ألهذا جمعتنا ؟ » . .

تبا له . .؟ تبا لمحمد . .! ووجم الجميع فى انتظار ما يقول محمد . واضطرم الغضب فى اعماق على، وأوشك أن يرد على عمه أبى لهب ردا منكرا ولكنه كظم غيظه وانتظر الجميع رد محمد . أيسكت محمد على أبى لهب واهانته وتلويحه بيديه ؟ ماذا يمكن ان يحدث بعد ، لو نهض رجال كأبى لهب يهدرون كل قيمة حتى حرمةالقرابة والدم ويلوحون لرجال أمناء فى وجوههم ويشتمونهم علانية ؟!

ايخاف محمد ؟ ان أبالهب ذوسطوة فىقريش ، وامراته هى أخت أبى سفيان أكثر رجال قريش مالا وجاها وسلطانا . . أيسكت محمد على هذه الاهانة اشفاقا من أبى لهب وزوجته . .؟ أم عسى أن يجاملها لان ابنهما زوج لابنته رقية

ولكن لا !! . . لا مهادنة بعد !

ماذا تقول يا أبا لهب ؟ . . اسمع اذن ، لن يسكت محمد بعد على من يرفضه ، لن يقبل من أحد حتى من عمه هذا الازراء عليه وعلى ما جاء به من تعاليم . سيخوض غمرات الصراع مع كل المستكبرين . . فاسمع يا أبا لهب . . اسمع اذن ، سمعت الرعد . . تبا لك أنت !! تبا لك سائر يومك ، وسائر حياتك !! تبت يدا أبى لهب .. وتب !

عصر العذاب

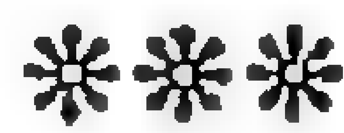
جاء الزمن الذى يوتق الانسان فيه ، ويلقى به الى الجوع والحقد والألم والنسيان .. ! مرة أخرى يقبل عهد الشهداء والمستبسلين ، فاذا الذين يحملون فى رؤوسهم الافكار ، ويحلمون بالاخاء والعدالة والمستقبل ، ويثرون وجدانهم بالثقة فى انتصار الخير .. اذا بهؤلاء الذين يمنحهم الايمان كل قوتهم ، ويطالبون بأن يواجهوا الغيظ ، والمهانة والتشفى ، والضرب حتى الموت ، والزراية ، وكل ماهو متوحش ومفترس وقمىء !

فالملأ من مكة ينتفضون الآن بكل ذعرهم ، وانحلالهم ، وذهبهم وسطوتهم ، ليقاوموا مد طوفان يزحف بطاقة المد ليجتاح كل شيء عند هذا الملأ : منابع الثروة ، ومراتع الملذات ، والمناصب التى تمنحهم الجاه والغنى والنفوذ وتملأ قلوبهم بالكبرياء .. انهم ليصنعون كل شيء ، وأى شيء ، ليوقفوا هذا الطوفان البشرى المتموج .. ولا يتعظون ابدا بمصير الجبابرة الاولين !

كانوا أقوى منهم وأعز نفرا ، وكانت لهم خزائن الارض ، ولقد طغوا فى البلاد .. ولكنهم سقطوا فجأة . هووا من عليائهم أمام زحف المستضعفين الذين التفوا تحت راية الكلمة المضيئة المبشرة ليمسكوا بأزمة المصير ، وموازين الحساب .. فمابال هذا الملأ من مكة لايتعظون ؟ .. مالهم لاتنفعهم الذكرى ؟ . مالهؤلاء القوم لايفقهون حديثا ؟ ..

ان كل اهوال التعذيب لاتقوى على ان تطفىء النور الذى اشتعل فى القلب ، ولاتستطيع أن تنتزع الافكار من تلافيف الدماغ .. وسياتى الوقت الذى يطيح فيه المستضعفون بهذا الملأ من أوج صلفهم . ولكن الملأ لايفهمون طاقة الموج البشرى الذى يتدفق به مجرى الزمن .. انهم لايفهمون حركة التاريخ ، ولا يشعرون بعد باللعنة التى تنفجر من أعماق المعذبين

فليمض ابولهب فى الكيد لمحمد ولمن اتبعه .. فستطارده لعنة ضحاياه ، وسيصلى نارا ذات لهب ! . لقد ملأ هذا الوعيد قلوب أنصار محمد بالثقة فقد رأوا فيه تضحية جديدة بمستقبل ابنته رقية ، ورأوا فيه شاهدا جديدا على اقدام محمد ، فهو يؤذن بأنه لن يسكت على من يمتهن دعوته .. انه يملك أن يلعن الرافضين والعادين عليه ، مهما تكن قرابتهم اليه ، ومكانتهم فى ملأ قريش ..



وعجب الكبار لمحمد .. لقد رأوه صغيرا يتيما فى شوارع مكة .. يحمل الحجر ، ورأوه يافعا مسكينا يقضى نهاره تحت الشمس فى شعاب الجبل يرعى غنم السادة وينبش على لقمة العيش .. فمابالة يحاول اليوم أن يسودهم ، وأن يجردهم من كل ما أصبحوا به سادة .. ؟

لقد بدأ الصراع اذن : الاغنياء يدافعون عن وجودهم ، والفقراء عن حقهم فى الحياة الكريمة وعن أحلامهم فى عالم افضل ..

وعاد محمد الى بيته ذات مساء وقلبه مثقل بما يعانيه الذين اتبعوه ، وفى أعماقه على الرغم من كل شىء تتقد

شعلة الاصرار التى يجب الا تنطفىء أبدا ..
انه ليعرف ان عمه أبا لهب سيكسب الى صفه كل بنى هاشم .. فلئن خذله بنو هاشم وتخلوا عن نصرته ، لاصبح نهبا لأنياب الكواسر من سادة قريش .. ولكن أبابكر يكسب فى كل يوم نصيرا جديدا من هؤلاء السادة ، وهاهو ذا يجىء بعثمان بن مظعون ، وأبى عبيدة بن الجراح .. كل هذا رائع ، ولكن من ذا يجىء بحمزة بن عبد المطلب سيد فرسان قريش ؟ أيمكن أن يدفعه اخوه ابولهب الى ايذاء محمد .. ؟

وفجأة فتح الباب ، واقبلت رقية بنت محمد الى امها خديجة ، باكية .. لقد طلقها عتبة بن أبى لهب ، واعتدى عليها أبولهب فضربها ، ومزقت امرأته ثيابها ، واقسموا جميعا الا تبقى فى بيتهم مادام ابوها يسلك من قريش ومن أبى لهب هذا السلوك .. واقسموا انهم سيمنعون الرجال عن الزواج بها

وواست خديجة ابنتها التى أصبحت الآن امرأة صغيرة طريدة .. ومسح أبوها دموعها ، وخرج الى صديقه أبى بكر ..

ولهو فى الطريق اذا به يعثر بالاشواك أمامه ، وغير بعيد تقف أم جميل امرأة أبى لهب ، متبرجة ، تطارده بنظراتها الشامتة . واذ جاوز محمد اشواك الطريق ، امرت أم جميل احدى جواريها فقذفت عليه بعض الاوساخ ، ووقفت هى تضحك وتتثنى والى جوارها زوجها أبو لهب ، وهما يشيران الى محمد فى سخرية : هذا اليتيم الفقير ، الذى يريد أن يقتلع السادة من عليائهم .. !

وشكا محمد الى صديقه وصفيه أبى بكر مايصنعه آل أبى لهب به وماصنعوه بابنته .. فروى له ابوبكر أن عثمان بن عفان ، كان قد دخلته الحسرة لأن عتبة بن

أبى لهب سبقه الى رقية ، وأن عثمان ليرنو اليها . وماهى الا أيام حتى تزوجها عثمان بن عفان .. التاجر الثرى ذو الخلق الطيب

ومازالت امرأة أبى لهب بمحمد تقذف فى طريقه الاشـــواك ، وتحرض العبيد والجوارى ان يقـذفوه بالنفايات ، ومحمد يلقى أذاها بالصبر .. فهى امرأة ! .. ولكنها لم تفهم حقيقة صـــبره عليها ، فبالغت فى ايذائه حتى لقد تربصت له ببعض جواريها وهن يحملن أحجارا يلقينها عليه حين يمر .. تبا لها أيضا ، كمـا تبت يدا أبى لهب .. « تبت يدا أبى‌لهب وتب ، وامرأته حمالة الحطب » !

وأقبلت على أبى بكر وهو فى المســجد فتثنت أمامه قائلة : « ماشأن صاحبك ينشد فى الشعر » .. فقال لها أبوبكر : « والله ماصاحبى بشاعر » .. فقالت : « أليس قد قال فى جيدها حبل من‌مسد » . وتحسست جيدها وصـــدرها واســتمرت تتثنى ـ فما يدريه ماجيدها ؟

وغض أبوبكر من بصره ولم يجبها .. فقد كانت على تبرجها تتأود وتتراقص وتتضـــاحك . وتولت وهى تقول : « قد علمت من قريش أنى ابنة سيدها »

وعادت‌تغرى العبيد والجوارى بمحمد ! .. الجوارى والعبيد الذين يطالب لهم محمد بحياة أكثر انسانية ، ويكابد فى سبيلهم ، ويلقى أذى أبى لهب وامرأته .. حمالة الحطب ! وشجع موقف أبى لهب من محمد سادة آخرين فى قريش ، كانوا يتهيبون غضب بنى هاشم ، لو أنهم تعرضوا له بالاذى .. غير أن أبا طالب شيخ بنى هاشم ، وقف الى جوار محمد وأعلن قومه انه سيمنع

ابن أخيه منهم جميعا .. حتى من أخيه أبى لهب بن عبد المطلب !

ومضى الى محمد يسأله أن يرجع عما أخذ فيه ايثارا للعافية والسلامة ، فضاق صدر محمد بكلام عمه ، وخشى أن يكون عمه قد سمى اليه لأنه عجز عن حمايته فهو يريد أن يتخلى عنه ويسلمه .. فطلب اليه أن يتركه ورسالته فهو لن يتخلى عن دوره أو يموت دونه . واقسم له عمه أنه لن يسلمه لشىء أبدا .. فليقل اذن كما أحب ! ..

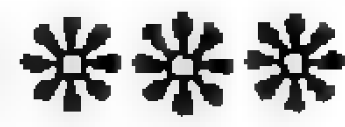
وحاول الملأ من قريش أن يغروا أبا طالب ليخلى بينهم وبين ابن أخيه ، فذهبوا اليه ومعهم عمارة بن الوليد ، وهو أعذب فتيان قريش فقالوا له : « هذا عمارة بن الوليد أقوى فتى فى قريش وأجملهم ، فخذه فلك عقله وبصره فاتخذه ولدا ، فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله ، فانما هو رجل برجل »

وغضب أبو طالب ، وصاح فيهم: «لبئس ماتسوموننى .. أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى لتقتلوه ؟ . هذا والله مالايكون أبدا . »

فقال قائل منهم : « يا أبا طالب .. لقد انصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا » . فرد عليه أبو طالب : « والله ما انصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على فأضع مابدا لك »

لا جدوى اذن من جدال أبى طالب ! .. انه بموقفه هذا يقسم بنى هاشم ، بعض يؤيده هو وابن أخيه محمد ، وبعض يؤيد أبا لهب .. فلينضم فقراء بنى

هاشم الى ابى طالب ، أما اغنياؤهم فسيتحركون وراء ابى لهب بلا ريب .. ومع ذلك فلابد من عمل حاسم سريع ، يقعد محمدا عن السعى لنشر دعوته الخطرة ، ويفرض هيبة حكومة قريش على الذين يفكرون فى اتباع محمد ..



واجتمع الملأ من مكة برياسة أبى سفيان .. فأصدروا قرارا بتحريم تعاليم محمد . وقررت حكومة قريش أن تقتل العبيد والموالى الذين يؤمنون بمحمد ، وأن تكسد تجارة أتباعه الاغنياء وتضع شرفهم وتهلك مالهم ..

وأخذ رجالها وفرسانها يمنعون الناس عن محمد .. ولكن التعاليم كانت تنتشر على الرغم من هذا القانون، وعلى الرغم من كل انذار وتهديد تصدره حكومة مكة التى هى أعلى من قريش !

وتحركت حكومة مكة وأصحاب المصلحة فيها لمقاومة الدعوة وللبطش بالذين آمنوا بمحمد .. وشرعوا يضربون الضعفاء ضربات تنخلع لها قلوب الشجعان .. فابتدأ حكومة مكة بتعذيب الذين اتبعوا محمدا من العبيد والاجراء .. فسيشفق الاتباع الاغنياء من تنفيذ حكومة مكة انذارها ، فتكسد تجارتهم ويسقط شأنهم .. وكان بلال بن رباح هو أعلى الموالى صوتا ..

كان عبدا لاميه بن خلف الجمحى ، وقد طالبه سيده أن يعلن نبذه لتعاليم محمد ، فأبى .. وأمر أمية أن يؤخذ بلال كلما حميت الشمس ، فيطرح عاريا على الرمضاء ، وتوضع الصخرة العظيمة عليه ، ويجلد ويضرب ..وكان يمر به وهو على حاله تلك فيقول له : « لا تزال هكذا يا عبد السوء حتى تموت وتكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى»

.. ولقد مر ورقة بن نوفل ببلال وهو يعذب ، فتذكر شهداء المسيحية الاول وأقسم لامية لو أن عبده بلالا هذا مات وهو يعذب من أجل ما يؤمن به.. ليجعلن له قبرا كقبور القديسين ! ..

واذ رأى سادة قريش ما يصنعه أمية فى عبده بلال انقضوا على عبيدهم الذين آمنوا بمحمد ، يطرحونهم عراة على الرمال الساخنة تحت وهج الشمس ، ويلبسونهم دروع الحديد ، ويكوونهم بالنار ، ويجلدونهم حتى يفقد الواحد منهم وعيه .. واشرف بعضهم على الموت فأذن لهم محمد أن يقولوا بألسنتهم ما ينقذهم من هذا العذاب ، وما دام سادتهم يتكاثرون عليهم .. وبعد غد سينتصر الحق، وسيعلمون من أضعف ناصرا واقل عددا ..

ولكن قليلا منهم ارتضى لنفسه هذا .. وحرص معظمهم على أن يبدو قويا صامدا وأن يحتمل من أجل ما يؤمن به، مالا يحتمله جسد انسان ..

ومضى أقاربهم يشكون الى محمد .. فقال لهم .. « صبرا » .. صبرا .. حتى الموت .. وهكذا ماتت سمية أم عمار ..

كانت امرأة جميلة وجدت خلاصها فى التعاليم الجديدة، ونبذت كل من فتن بها من الرجال واختارت زوجا يؤمن مثلها بمحمد .. وأخذت تدعو النساء ومن تعرفهم من الرجال الى تعاليم محمد . وكان أبو جهل من الذين فتنوا بها وعذبهم صدودها منذ آمنت .. وهو تاجر غنى من سادة قريش وأكثرهم سطوة ومنعة وقوة ، وحاول أن يثنيها عما أخذت فيه ، فنهرته .. وانطلقت تدعو مثيلاتها باندفاع لا يوقفه شىء ..

وجذبها السادة من عشاقها القدامى الى الطريق

فطرحوها على الارض وأمروا بها فضربت وضربت ·· حتى فقدت الوعى ، وصيروا عليها هى المرأة الـــرقيقة التى تعودت غزل الرجال ولينهم معها ·· وطلبوا منها أن تعلن كفرها بمحمد ، فما تعود بدنها الجميل مثل هذا الألم ·· ولكنها رفضتهم بقوة وهى فى أظفارهم ·· وحدثتهم عن فضل محمد عليهم جميعا وأعلنت أنها لن تهجر تعاليمه أبدا ·· واذ ذاك انقض عليها أبو جهل بكل حنقه وفحشه الهمجى وهو يقول : « ما آمنت بمحمد الا لانك عشقته لجماله » ·· ثم غرس حربته فى ملمس العفة منها وظل يطعنها بوحشية فى ذلك المكان ايغالا منه فى الزراية عليها حتى ماتت ·· أول شهيدة للتعاليم الجديدة ·· !

انه لاغراء للسادة جميعا ألا يبقوا على ظهر مكة أحدا ممن آمنوا بمحمد مهما يحمل له القلب من ود ·· فما كان أحد أحب الى أحد ، من سمية الى أبى جهل ·· ومع ذلك فقد قتلها بيديه ·· !

وخشى محمد أن يجن الملأ بدم الذين اتبعـــوه ، وأن يغريهم صبره الصامد بمزيد من الدماء ·· ربمـــا خشى الناس بعد هذا أن يؤمنوا به · وتشاور مع خديجة ومع صديقه أبى بكر ··

ما جدوى المال اذن ان لم يستطع أن يصنع شيئا لهؤلاء المعذبين ·· ان بلال بن رباح ليوشك أن يموت هو الاخر كما ماتت سمية ··

ومضى أبو بكر وعثمان بن عفان ، وسائر الاغنياء الذين آمنوا بالتعاليم الجديدة ليستخلصوا العبيد من أيـــدى السادة ·· ذهب أبو بكر الى أميـــــة بن خلف الجمحى فسأله أن يشفق على بلال ولكن امية رد على أبى بكر : « أنت افسدته فانقذه مما ترى » · وعرض أبو بكر على

أمية أن يشترى بلال بن رباح بخمس أوقيات من الذهب ·· ودفعها أبو بكر ، فرفعت الحجارة عن بلال ، فقال أمية : « يا أبا بكر لو أبيت الا أوقية لبعناك » فرد عليه أبو بكر « لو أبيتم الا مائة أوقية لاخذته » ··

وهكذا اشتراه أبو بكر واعتقه واستخدمه عنده ·· ومضى يصنع نفس الشيء مع آخرين وأخريات ·· حتى بلغوا ستا ، كانت آخرهم جارية يعذبها عمر بن الخطاب ويظل يضربها حتى يتعب هو فيستريح ثم يعاود الضرب ·· وسخرت قريش من أبى بكر الذى يضيع ماله فى شراء جوار وعبيد ضعاف لن يمنعوا صاحبه ·· غير أن اقدام أبى بكر على هذا شجع صحبه الاغنياء الذين اقتنعوا بالدعوة الجديدة فقاموا بدورهم يحررون العبيد الـــذين آمنوا ·· وشجع هذا كثيرا من العبيـــــد والاجـــــراء والمستضعفين ·· فلن يخلى بينهم وبين المتسلطين من قريش بعد ·· وسيتقدم احد اصحاب محمد للنجدة ، لو أنهم تعرضوا لاذى السادة !

***

وما زال أبو بكر بصحبه من مثقفى مكة وسادتها حتى اقتنع عثمان بن مظعون ، وهو من حكماء قريش وكبار اغنيائها ، واقتنع الارقم بن أبى الارقم ··

وبلغ عدد الذين اقتنعوا بتعاليم محمد نحو أربعين رجلا وامرأة ·· منهم العبيد والاجراء والصعاليك والبغـــايا والجوارى والضعيفات والذين طحنتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة ·· والمثقفون وبعض التجار الاغنياء ··

ولم يعد بيت محمد صالحا للاجتماعات ·· فهـــو لا يتسع لكل هذا العدد ··

واقترح الارقم ان يجتمعوا عنده فى دار له على الصفا

تتسع لهم جميعا وهى بعد ليست على مرأى عيون حكومة قريش •• ولن يزعجهم فيها أحد ••

وفتحت دار الارقم أبوابها لهم •• يجتمعون عنده كل ليلة فيقرأ لهم محمد ما جاء به ويشرح لهم دعوته ••

وتزايد عددهم يوما بعد يوم •• وقد زايل الخوف الآن قلوب بعض التجار منذ أعلن محمد لاتباعه أن ما جاء به لن يغلق مكة أمام القوافل •• ولن يغير من مواسم الحج •• فسيظل الناس يأتون الى الحج من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم •• كل ما فى الامر أنهم لن يسجدوا لاصنام الكعبة ، ولن يباح لهم أن يعطوا الهدايا والقلائد لسادة قريش •• وأنه اذا جاء الحج ، فلا تبذل ولا حفلات خليعة ، ولا ربح من تجارة الاجساد ، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج •• !

وهكذا اطمأنت نفوس بعض التجـــار الذين كانوا يقاومون التعاليم الجديدة خشية أن تغلق الكعبـــة أمام الحجاج •• انهم هم ليسوا تجار رقيق ، ولا مصلحـة لهم فيما يقدمه الحجاج من هدايا وقلائد •• كل ما يعنيهم أن يظل موسم الحج موسما للبيع والشراء •• وشعرت حكومة مكة أنه لابد من اجراءات أخرى حاسمة ••

ان العبيد من أتباع محمد ليتخلى عنهم أصحابهم بيسر أمام اغراء المال الذى يدفعه أمثال أبى بكر •• وحكومة مكة لا تستطيع أن تدفع هى وتزايد لتستبقى العبيـــد الخارجين عليها ـ ثم تقتلهم لترهب الاخرين ! •• لقد عذبوا فما نفع التعذيب •• وقتلت سمية ، فما خافت النساء ••

لابد اذن من ضربة توجه الى محمد نفسه •• فليضربها رجل ذو سطوة وقبيل يخشاه أتباع محمد من بنى هاشم

ان أبا طالب قد طعن فى السن فلن يحمل سلاحا ، وابنه على لا يستطيع بعد ·· وما فى بنى هاشم كلهم غير حمزة وهو لا يأبه لمحمد ·· انه عمه ·· هذا حق ، وأخوه من الرضاعة أيضا ، ولكنه لا يحفل بتعاليم محمد ، ولديه حياته ولهوه وقنصه ، وكل ما يشغله عن محمد ! ··

وتناجى رجال من قريش فرأوا أن أكفأهم لضرب محمد وأنهضهم لهذا انما هو أبو جهل ثم عمر بن الخطاب ·· فكلاهما فارس قوى مكين يخشاه الاخرون

ولن يستطيع أحد من أصحاب محمد أن يتعرض لايهما ·· لا أبو بكر ، ولا عثمان ، ولا سعد ، ولا أبو عبيدة ، ولا أحد على الاطلاق ··

ولئن ضرب محمد ولم يثأر له أحد ، لقد انتهى كل شيء اذن ·· وستسقط هيبته ، ويسهل على سادة مكة بعد هذا أن يضربوا كل صحابه ··

فليغروا به السفهاء أولا : يلقونه فى الطريق فيصيحون به : « كذاب ·· مجنون ·· ساحر » ·· وهكذا تسقط هيبته ، فيهون على الناس ··

ومضى محمد فى بعض طرقات مكة ·· فما لقيه أحد الا صاح فيه : « كذاب ·· مجنون ·· ساحر » ·· حتى بعض العبيد ·· وبعض النساء اللواتى يدعو محمد الى انقاذهن ، وبعض الاجراء والصبيان والذين تطحنهم الاوضاع الاجتماعية التى يثور عليها محمد ! ··

وعاد محمد مثقلا من هذا كله ، يفكر ويروض نفسه على الصبر والسلوان ·· واستلقى الى حجر تحت ظل ، وهو يجهد ليحبس دمعه ·· فما يشق عليه شيء مثل أن يبادره بالاذى هؤلاء الذين يدعو لتحريرهم ويعانى من أجل خلاصهم ! ··

ولهو فى وحدته اذ بأبى جهل يقبل عليه فيشتمه ، والسفهاء يتضاحكون .. ونظر محمد طويلا الى أبى جهل وأدار بصره الى الذين يســـتهزئون به .. هؤلاء الذين يشقى من أجلهم ، ولم يقل شيئا ..

ورق قلب احدى الجوارى لمحمد ، وعز عليها أن يلقى هذا كله .. وكانت لم تؤمن به بعـــد ، وما زالت تدير تعاليمه فى رأسها . ورأت حمزة بن عبد المطلب ، مقبـــلا بكل شموخه من رحلة صيد ، قوسه فى يده ، والنـــاس يتهامسون باسمه منذ أقبل ، فى اكبار واعجاب .. لماذا يزهو بنفسه هكذا بينما ابن أخيه يمتهن ويشتم .. ؟ يشتمه سيد عشيرة اخرى تنافس بنى هاشم .. ؟ أهو حقا أعز فتى فى قريش وأقوى شكيمة .. فمـــا صبره اذن على مايلقاه بعض بنى هاشم من الاهانة .. ؟

أقبلت عليه الجارية تقـــول له : لو رأيت مالقى ابن اخيك محمد .. وروت له كل ماشاهدته .. وقالت له ان أبا جهل بعد أن أهان محمدا أتى الكعبة مزهوا يروى لاصدقائه .. فانطلق حمزة مغضبا ، لايكلم احدا ولا يسلم على احد ، حتى أقبل على أبى جهل وهو جالس بين القوم فى رحاب الكعبة ..

وانقض حمزة على أبى جهل قائلا : « أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على ان استطعت » .. وضرب أبا جهل بقوسه حتى شجه شجة منكرة ..

وقام رجال الى حمزة لينصروا أبا جهل .. وأدرك أبو جهل ان حمزة لن يتركه .. سيقتله بلا ريب ، وحمزة قادر على أن يقهر هؤلاء الرجال جميعا .. ورأى أبو جهل أن يحتمل ضربة حمزة لكيلا يوجه اليه حمزة ضربة اخرى قاتلة .. وكظم أبو جهل غيظه ، وكتم الجرح وقال لمن

معه : « دعوه .. فاني قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا »
.. وابتعد الرجال ..

ومضى حمزة مزهوا الى محمد بعد أن قهر ابا جهل ، وقال له : انه يصدقه ، وسينصره .. وعانقه محمد ، ودمعت العيون ..

هو ذا اذن سيد فرسان قريش . من يجرؤ بعد اليوم على أن يتعرض لمحمد ؟ .. ان انضمام مائة اخرين لم يمنح اتباع محمد شعورا بالعزة والمنعة والقوة مثلما منحهم انضمام حمزة بن عبد المطلب ..

ولامت قريش ابا جهل ، فقد كان يجب أن يشتبك مع حمزة .. وسينصره من فرسانها الكثير .. مازال هناك عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد .. ووضعت قريش املها في عمر بن الخطاب بعد ان تخاذل أبو جهل امام حمزه ! .. عمر وحده هو الذى يستطيع ان يحقق امل قريش الآن بعد أن أعان حمزة أنه ينصر ابن اخيه . ولكن أيجرؤ عمر بن الخطاب على أن يتعرض لمحمد بعد .. ؟ ان الذى يمنعه الآن لهو حمزة بن عبد المطلب .. سيد فرسان قريش ! ..

وبشر الصابرين

لم يكن فى مكة كلها شىء يســـتطيع ان يثنى عمر بن الخطاب عن اندفاعه الرهيب المحنق .. لا الفتيات اللاتى تغامزن فرحات لطلعته وهو يمر أمام ابواب الخمارات ، ولا السامر الذى انعقد فى بعض الرحاب ، ولا دقات الدفوف التى تقرع وراء بيوت يعمرها المتــاع .. لاشىء عــلى الاطلاق ..

كان قد سمع ما كان من أمر حمزة بن عبد المطلب ، وابى جهل بن هشام ، وعجب لبطش حمزة بأبى جهل واستخذاء ابى جهل أمام حمزة ، وادرك أن سادة قريش الذين تعودوا أن يرهبوا حمزة ، سيتضاعف خوفهم منه منذ اليوم ، مادام حمزة هذا قد قهر أحد فرسانهم الصناديد عنوة .. وسيشمخ أتباع محمد ويتعاظمون وينتصرون بحمزة .. وأقسم عمر أن يمضى الى بيته فيمتشق حسامه وعــدة الحرب ، ويمضى الى دار الارقم على الصفا فيقتحمهـــا ويذبح محمد بن عبد الله امام حمزة بن عبد المطلب .. فيريح مكة ويستريح .. واذن فقد جاء الزمن الذى يواجه فيه عمربن الخطاب صديقه حمزة بن عبد المطلب ..! لم صنعت هذا يا أبا القاسم وقد كنت حبيبا الينا ، عزيزا علينا ؟؟ .. لم خرجت علينا يا ابن عبد الله بتعاليمك التى تجعل صديقا يشهر سيفه فى وجه صديقه ؟ لقد فرقت

الجماعة ، وسفهت الاحـــلام ، والقيت العداوة بين الاخ واخيه ، وأفسدت علينا العبيد والمشيقات .. !

وأنت يا حمزة ما اغراك بصديقك أبى جهل بن هشام .. الم نرفع نحن الثلاثة ومعنا خالد بن الوليد ذكر قريش بين القبائل .. ؟ الم تصبح مكة أعز أرض بنا نحن الاربعة ..؟ قبائل العرب تحسد قريش على فرسانها ، وتعدل الواحد منا بجيش بأسره ، فلماذا يصبح من المحتم علينانحن الذين خضنا المكاره معا ، أن نرفع سلاحنا على رقاب بعضنا ..؟ نحن جعلنا هذا البلد أمنا ، وملأناه بأشواقنا ومرحنا ، واقمنا فيه منارة للعرب اجمعين .. كل هذا صـــنعناه بأيدينا ياحمزة ، فما فتنك عن صحبك ، ومنذ متى شغلت بتعاليم أبى القاسم ..

وأنت يا أبا القاسم ماذا تريد بعد ..؟ لقد ادرت رءوس الفقراء والاجراء والعبيد والنساء ، وفرضت لهم عـــلى السادة حقوقا ، وها أنت ذا تفتن التجار منذ أعلنت أن تعاليمك لن تلغى الحج والطواف بالكعبة ، وانك انما تدعو الناس الى الحج ليعبدوا الهك لا الاصنام ، وليشــــهدوا منافع لهم ، فتقام الاسواق والندوات ، ولكن بلا فسوق فى الحج .. !! لقد سمعتك يوما تتلو تعاليمك فأخذنى من تلاوتك شىء .. ولكنى زجـــرت نفسى ، وانصرفت الى الخمارة .. أساحر أنت .. منذ متى تعلمت السحر ؟ ..

وأتباعك من التجار الاغنياء ـ على ندرتهم ـ يبذلـون اموالهم من أجل ما تدعو اليه ، فى اندفاع عجيب.. وكأنهم يتنافسون : يحرر أبو بكر ستا من الجوارى والعبيد ، فيحرر عبد الرحمن بن عوف ثلاثين .. وآخرون واخرون .. وها أنت ذا تدعو صحابك الذين تخاف عليهم غضب قريش أن يهاجروا الى أرض الحبشة حيث يحـــكم ملك

تقول عنه انه عادل لا يظلم عنده أحد .. فيهاجر الضعفاء ثم يتبعهم عبد الله بن مسعود ، وعثمان بن عفان وزوجته والزبير بن العوام ، وجعفر بن أبى طالب وامرأته ، وعبد الرحمن بن عوف .. مامنهم احد يبالى بما سيحدث لتجارته الواسعة بعد هذه الهجرة ، أكسدت أم راجت ..!

بأى سحر يا أبا القاسم تسيطر على هذه القلوب ؟! لقد يصبح الواحد منا ذات يوم فيجد مكة خاوية ، وينفق النهار والليل بلا صديق .. لقد حرم السامر من أبى بكر ، منذ تبعك .. لم يعد بعد يروى لنا أخبار الذين غبروا .. وأخيرا فهاهو ذا حمزة يتبعك .. ما أفرغ ليالى لاتعمرها صحبة حمزة .. كم ذا ستهون قريش على أعدائها بعد أن انسلخ عنها حمزة .. الا يروق قلبك يا أبا القاسم لهؤلاء الذين هجروا مكة الى بلاد الحبشة ، وتركوا فيها التراب الذى أحبوه ، والاهل الذين ألفوهم .. ان لك فيهم لفلذة كبد .. رقية زوج عثمان بن عفان !؟ ..

لن يشفى قلوبنا من وجائع الفراق يا أبا القاسم ، ومن كل تلك الفتنة التى تجتاح مكة منذ جئت بتعاليمك ، الا أن أزيلك منها .. أقتلك فأريح مكة .. وأستريح ..

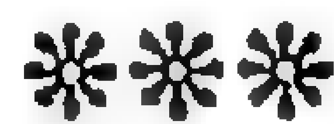
وعندما أوشك عمر أن يبلغ باب داره قابلته فى الطريق جارة له كدست متاعها أمام بيتها ووقفت تنتظر ولدا لها ، لينطلقا معا الى أرض الحبشة مع فوج جديد من المهاجرين ، تاركين مكة تحت جنح الليل .. كانت امرأة طيبة قد ارتفع بها السن ، وكان عمر يعطف عليها ويودها ولكنها لقيت منه الاذى منذ اتبعت تعاليم محمد .. وخشيت المرأة أن يبطش بها ، فاختفت وراء متاعها خوفا من عمر ، تحبس أنفاسها وتتحسس دقات القلب .. وجاءها عمر فقال : « انه للانطلاق يا أم عبد الله »

لم يكن فى صوته نذير بالعدوان كما الفت منذ حين ،، فأجابته : « نعم والله آذيتمونا وقهرتمونا ، فلنخرجن فى أرض الله .. حتى يجعل الله لنا مخرجا » ..

ويسكت عمر لحظة .. هاهى ذى جارته أيضا تخرج من مكة . لقد طالما الفها .. ألف العطف عليها ، ثم الف البطش بها ، وسينتهى كل هذا فجأة ..

ودبت الرقة فى صوت عمر وهو يرى المرأة العجوز وراء متاعها تترك كل شيء لتعيش فى بلاد غريبة ، نازحة عن كل حياتها فى مكة .. وقال لها بصوت يخالجه اللين : « صحبكم الله » .. وعجبت المرأة لرقته فحكت لولدها وهما يلقيان آخر نظرة على مكة ..

قالت له : « لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا » .. فقال لها وهو يستقبل الطريق الطويل الى المجهول : « أطمعت فى اسلامه .. فلا يسلم الذى رايت حتى يسلم حمار الخطاب »



اما عمر بن الخطاب فقد خرج من داره بعد قليل متوشحا سيفه الى بيت الأرقم عند الصفا ، حيث يلقى محمدا فيقتله أمام اتباعه ، وأمام عينى حمزة بن عبد المطلب .. فليبارز حمزة بعد هذا ، فليقتل هو حمزة ، أو فليقتله حمزة .. فهذا شيء لا يجب ان يفكر فيه .. المهم هو أن يقتل ابا القاسم محمد بن عبد الله ! ..

كان مابرح يفكر فيما صنعه محمد ، والالم المبهم يزحف الى قلبه ، وصورة جارته العجوز التى رحلت تختلط بصور الذين هجروا مكة ، وتزحف على حلقه بشعور غامض حزين .. كالغصة التى تسد الحلق فجأة . ولقيه أحد أصدقائه .. فسأله أين يمضى متوشحا سيفه .. فأجابه عمر : « اريد محمدا ، هذا

الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وسب الهتها فأقتله »

فقال له صاحبه وهو يحاوره : « والله لقد غرتك نفسك عن نفسك ياعمر .. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمدا .. أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم .. ؟ » فقـال عمر مباغتا : « واى أهل بيتي » قال صاحبه : « ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب .. فقد تابعا محمدا ، فعليك بهما » ..

***

وهرول عمر الى بيت أخته وزوجها .. سيصنع مع ابن زيد بن عمرو ماصنعه أبوه الخطاب مع زيد بن عمرو .. والد سـعيد بن زيد هذا . وأتى عمر دار أخته وزوجها سعيد .. فلم يقرع الباب .. وقف يسـمع ترتيلا غريبا بصوت رجل غريب ، يتلو فترد عليه فاطمة وسعيد « طه .. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى »

وانتظر حتى انتهوا ثم دق الباب .. (فلما سمعوا حس عمر ، أختبأ الرجل الغـريب فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة الصحيفة التى كان يقرأ منها فجعلتها تحت فخذها) وفتح سعيد الباب . فلما دخل عمـر سألهما بغضب : « ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ » . فأجاباه : « ماسمعت شيئا » . فصرخ : « بلى ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا .. »

وضرب سعيدا بمقبض سيفه فسال دمه ، فقامت فاطمة تكف أخاها عن زوجها فبطش بها عمر وشج رأسها .. وسال دم أخته على يديه ..

هاهو ذا دم أختك يسيل على يديك ياعمر .. دم

احب الناس اليك ، الفتاة التى كنت لها دائما اخا حانيا ، وابا رفيقا . وانتفضت أخته التى لم ترفع راسها فى وجهه من قبل وصرخت متحدية : « نعم .. فاصنع مابدا لك » ..

كان من الواضح انها مستعدة لكل شيء .. حتى الموت . وفتحت ذراعيها وتهيأت لطعنة من سيف عمر . وتخاذلت قوة عمر ، وغلبه حنانه .. ونظر طويلا الى الدم الذى يسيل من راس اخته ، وابن عمه ملقى على الارض .. فطلب منها عمر أن تطلعه على الصحيفة التى كانوا يقرأونها لينظر ماجاء به محمد .. ولكنها أبت عليه هذا ، فهو نجس ..

بأية قوة تتحدث هذه المرأة الضعيفة ، وبأى استبسال تتحداه .. ؟

وقام عمر فاغتسل واخذت عليه موثقا الا يمزق الصحيفة .. وبدأ عمر يقرأ الصحيفة ، وقرأ جزءا كبيرا منها ثم أعادها الى أخته قائلا : « ما أحسن هذا الكلام وما اكرمه » .. فلما سمع الرجل المختبىء ماقاله عمر عن القرآن اندفع من مخبئه قائلا : « ياعمر .. انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس يقول اللهم أيد الاسلام بأحد العمرين : أبى جهل عمرو بن هشام ، أو عمرو بن الخطاب .. فالله الله ياعمر » ..

وخرج عمر من فوره الى دار الأرقم على الصفا .. فقرع الباب بلهفة وعنف ، وقام رجل ينظر من الطارق من خلل الباب المغلق ، قبل ان يفتح ، ولكنه ارتد فزعا يقول : « هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف » .. فقال حمزة بن عبد المطلب لابن أخيه محمد : « ائذن له

.. فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه » ..

وتحسس حمزة مقبض سيفه وتهيأ لقتال عمر .. صديقه . ولكن محمدا أسر فى نفسه أن يقهر هو بنفسه عمر بن الخطاب هذا فلا يستعلى بعد اليوم بقوته .. لقد قهر حمزة اباجهل ، وسيقهر محمد عمرا . ومادخل عمر حتى نهض محمد للقائه .. فاخذ بخناقه ، وجذبه جذبة شديدة تطوح لها عمر .. وقال له : ماجاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ، ما أراك تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .. »

رد عمر بصوت خافت : « يا رسول الله » .. وبهت الجميع .. بينما عمر يكمل : «جئتك لاومن بالله وبرسوله» .. وانطلق من فم محمد دعاء طرب متهلل : « الله أكبر » وتبعه حمزة يكبر ايضا .. وظل محمد يمسح على صدر عمر ويدعو له بالثبات ، فى فرح هائل حقا ..

وارتجفت دار الارقم بالهتاف ، وهزت النشـــــوة أوصال الجميع .. حمزة وعمر ــ أشجع فارســـين فى قريش ــ ينضمان اليهم فى يوم واحد .. سينتصفون بهما معا ويمتنعون بهما معا ..

وتركهم عمر بعد قليل ، وانصرف .. وفى الطريق الى داره ، مر على دار أبى جهل عمر بن هشام فقرع البـــاب فخرج اليه ابو جهل .. وقال له : « مرحبا واهلا يا ابن اختى ، ما جاء بك ؟ » فأجابه عمر : « جئت لاخبرك انى قد صدقت بما جاء به محمد » فضرب ابو جهل الباب فى وجهه صارخا : « قبحك الله وقبح ما جئت به » .. وما ترك عمر احدا يستطيع أن يخبره الا اخبره .. وفى اليوم التـــالى خرج محمد يمشى فى طرقات مكة عن يمينه حمزة ، وعن يساره عمر .. والناس يتاملونهم فى ذهول ..

وانسلخ عمر بن الخطاب وحده ، وذهب الى الكعبة فأعلن في الناس انه قد امن بمحمد .. فثاروا عليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه .. حتى غابت الشمس ..

***

أقبل حمزة وعمر على تعاليم محمد بكل ما يملكان من طاقة ، وحمية أيضا .. وقال بعض الذين ارادوا أن يزروا على حمزة وعمر ، انهما قد تخليا عن شجاعتهما وتبعا تعاليم تقضي على الانسان ان يستسلم لقوى الخفاء ، وان يتخلى عن متاع الحياة ليسلك طريق المساكين .. وما زال حمزة وعمر يقرآن ويسألان محمدا حتى اطمأن منهما القلب الى أن التعاليم الجديدة تطلب من الانسان الا يستسلم في مصيره لآلة الكعبة ، وان عليه أن يسلم وجهه لاله واحد ، وهو بعد هذا يسعى في حياته مسئولا عن كل ما يعمله ، حرا يختار الطريق الذي يرضيه ، يصنع قدره بيده .. وله ما كسب .. انه ليس الاستسلام اذن .. ولكنه الاسلام ..

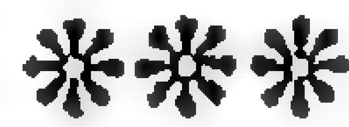
وليس من الحق أن هذا الاسلام يطالب الرجل أن يرمي سيفه ، بل ليحضه أن يحشد كل همته دفاعا عن العدل وكرامة انسانيته وحقه في الحياة .. على الانسان أن ينصف المظلوم ويعطي المحتاج ويبر الاقربين ، وليتمتع بالطيبات بعد هذا : ليتخذ زينته ، وليطعم ، ويتزوج النساء ، غير عاد ولا باغ ..

وهذا الاسلام لا يحرم التجارة التي تقوم عليها حياة مكة وتنمو عن طريقها الثروات ، انه ليحل البيع والشراء ، منفعة بمنفعة ، ولكنه يحرم الربا الذي يقوم على استغلال الحاجة لكسب مال لم يجهد صاحبه ليكسبه ، بل انتزعه منه بغير الحق ..

وهو يضع الى جوار الربح ، قيما أخرى .. هي الحب

والاخاء والتعاون والاتحاد .. فليست الحياة أموالاتكدس، وكنوز المودة اثمن من كنوز الذهب والفضة . وهـــذا الاسلام يدعو الى العدل فى الميزان ، والى تمجيد العمل.. فالانسان يعلو بعمله لا بماله الذى لا يعرف أحد كيف اكتسبه .. العمل الصالح هو قيمة الرجـــل او المرأة ، لا رصيده فى مصارف مكة ، ولا رصيدها من العشاق ، ولا صلاته بأصحاب السلطان .. فالسلطان لا يتنزل على فئة بالذات لان الاصنام راضية عنها ، وانما يلى الامر من يختاره الجمهور !

وهذا الاسلام يدعو الناس الى نبذ الشقاق فيما بينهم، الى أن يتحدوا فيصبحوا اخـــوانا بـــدلا من ان يتفرقوا فتفشل ريحهم ..



والملأ من قريش حائرون .. لقد خرج منهم ابو بكر منذ حين ، وها هو ذا عمر يخرج عليهم آخر الامر وينضم الى حمزة متبعين اسلام محمد .. وما من رجل أسلم الاونزل عن بعض ماله ليشترى العبيد والجوارى الذين أسلموا.. ثم يعتقهم ليتحولوا الى أحرار يتطاولون على الســـادة ويصدقون انهم افضل من ملأ قريش الذين لم يتبعـــوا محمدا ، وأن مكانتهم لا يحددها الا عملهم .. وحده !

ولقد هاجر منهم الى الحبشة نفر كثير .. كانوا ثمانية وبلغوا الآن نحو الثمانين من الرجال والنساء ، كلهم لقى من ملك الحبشة حسن الضيافة . ولقد أرسلت اليه قريش تحذره ــ وله مصالح مشتركة مع قريش ــ ولكنـــه لم يأبه .. وعاد المبعوثون يحملون معهم عار فضيحة غريبة جعلت المسلمين يهزأون بهم جميعا .. فقد ارسلت قريش فيمن ارسلت الى النجاشى عمرو بن العاص وابن الوليد ، الفتى القرشى الجميل الشجاع الذى حاولت ان تعطيه لابى

طالب فى مقابل ابن أخيه محمد .. وصحب عمرو بن العاص فى رحلته زوجة دخل عليها منذ قليل ، وهى امرأة جميلة فاتنة للألباب لعوب ، لم يكن عمرو يطيق أن يبتعد عنها.. وفى الطريق الى النجاشى ، رأت المرأة ابن الوليد وتحدثت اليه .. فشغفها حبا ، وذات ليلة هجرت زوجها عمرو بن العاص ، وارتمت فى فراش ابن الوليد ..

ولم تعد الى عمرو الا بشرط أن تتردد بينه وبين ابن الوليد .. وسبقت أنباء هذه الفضيحة الى النجاشى والى المهاجرين ، فلم تنفع حيلة لعمرو بن العاص .. ورد النجاشى الرسل الى قريش خائبين ، وظل على كرمه مع المهاجرين اليه .. أما المسلمون فى قريش فقد تلقوا عمرو ابن العاص بالسخرية ، وعلموه ان الاسلام وحده هوالذى كان يمكن ان يعصم امرأته ويعصمه من مثل هذا الهوان ! .. لقد بدأ المسلمون الآن يظهرون فى الاسواق ويقرأون ما جاء به محمد فى العلن ، ويحاجون خصومهم مستنصرين بعددهم المتزايد ، وبحمزة وعمر بن الخطاب ..

وأجمعت قريش أن تفاوض محمدا .. فليضموه الى الملأ ، أو فليجعلوه رئيسا لحكومة مكة عساه أن يسكت ، فلا يفسد عليهم ما بقى من الامر .. لا حل الا المفاوضة . وأرسلوا اليه . وأقبل محمد فرحا .. فلعل ما أقنع حمزة ثم عمر يكون قد اقنعهم هم أيضا .. كانوا كلهم مجتمعين .. من بينهم أبو جهل بن هشام ، وابو سفيان بن حرب ، وابو لهب ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف .. قال له واحد منهم : « قد بلغنا انما يعلمك رجل من اليمامة اسمه مسيلمة ويقال له الرحمن ولن تؤمن قريش لرجل من اليمامة أبدا » ..

وغام وجه محمد من الضيق .. الهذا دعوه فجاءهم ..؟ غير ان احد عقلائهم لحظ ضيقه ، وخشى فشل المفاوضة ، فبادره متلطفا : « يا أبا القاسم لقد عز علينا ما أنت فيه من عنت ، فما نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثلما ادخلت أنت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين والآلهة وسفهت الاحلام وخرقت الجماعة فما بقى امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت قد جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا » ..

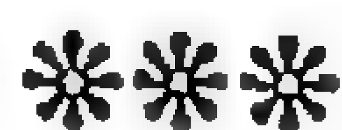
فاطرق محمد قليلا .. الهذا اجتمع اشراف قومه ..؟ لقد جئتهم فرحا يا أبا القاسم وفى قلبك احلام .. كم ذا تحلم يا ابن عبد الله .. ؟ ورد عليهم « ما بى ما تقولون .. ماجئت بما جئتكم به أطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا .. فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم »

ما زال ابو القاسم يحدثهم عن الهه ، وعن الاخرة وعن امر هذا الاله وحكمه .. وبعد ، وبعد يا أبا القاسم .. ؟ وساله احدهم ان يكف عن آلهتهم ، وسيكفون هم عن سب الهه ..

لكم هذا يا معشر قريش .. لن تسب آلهتكم بعد .. ولتكفوا أنتم أيضا ..

وشجع هذا رجلا منهم فقال لمحمد : فلنشترك نحن وانت فى الامر ، فان كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنا قد اخذنا بحظنا منه ، وان كان ما تعبد خيرا مما نعبد كنت قد أخذت بحظك منه » .. فلتعبد آلهتنا وتمتثل لها ، وسنعبد الهك ، ونمتثل له ..

ولكن لا .. لا اعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد .. لكم دينكم ولى دين ! .. لا حيلة اذن .. ! فلتدبر قريش أمرها قبل أن يستفحل خطر هذا الاسلام الذى جاء به محمد .. فقد بدأت القبائل من خارج مكة تسمع عنه .. وستسقط أصنام الكعبة بكل ما تجره من ثمرات وأرباح .. وعدد المسلمين يتزايد .. والارقاء يرفعون الرءوس معتمدين على أصحاب محمد الاغنياء ، ولم يعد منهم أحد يلقى العذاب حتى يخف اليه احد أصحاب محمد فيشتريه ويعتقه ..



لقد بلغ عدد الذين اعتقوا عدة مئات .. ومن الممكن أن يبلغوا عدة آلاف ويوضع فى يدهم السلاح ، فتعلن الثورة المسلحة ! .. ومنذ أسلم حمزة وعمر لم يعد فى فرسان قريش من تخشاه قريش غير خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام ..

لابد اذن من أسلوب جديد يقهر محمدا وأتباعه .. لم ينفعهم أبو طالب فى شيء ، وما زال يصر على أن ينصر ابن أخيه .. والمسلمون منذ انضم اليهم حمزة وعمر يمشون بلا وجل ، ويتلون ما جاء به محمد جهرة .. ولكن بنى هاشم هم المسئولون .. فلو أنهم زجروا محمدا لما تمادى .. واذن فليتفق كل أشراف مكة على ان يقاطعوا بنى هاشم .. فلتكسد كل تجارتهم وليموتوا من الجوع حتى يخلعوا محمدا ابن عبد الله !

واجتمع الملأ من قريش واتفق معهم أبو لهب فكتبوا بينهم صحيفة الا يزوجوا أحدا من بنى هاشم والا يتزوجوا منهم ، ولا يبيعوهم او يبتاعوا منهم شيئا .. وعلقوا الصحيفة على الكعبة .. واستثارت هذه الصحيفة بنى هاشم جميعا .. فانضموا الى أبى طالب وحمزة ، منتصرين

لمحمد .. حتى الذين لم يؤمنوا بتعاليمه . كان قرار حكومة قريش بحصار بنى هاشم استفزازا لنخوة كل بنى هاشم ..

وبدات حكومة قريش تنفذ هذا القرار بالحصار مستعينة بجندها .. وكان رجال الحكومة أنفسهم يباشرون تنفيذ القرار ، حتى لقد لقى أبو جهل غلاما يحمل قمحا وطعاما يريد به عمته خديجة زوجة محمد .. فضربه ابو جهل ومنع القمح والطعام واقسم الا يسمح بدخول طعام الى بيت محمد .. فتعرض له رجل بالطريق قائلا : « أفتمنعه أن ياتى عمته بطعامها ؟ » وصمم الرجل على ان يطلق ابو جهل سراح الغلام وتشبث أبو جهل فاقتتلا ،حتى أوشك أحدهما ان يقتل الآخر ..

حصار من الجوع أيضا حول بيتك يا محمد ، وبيت عشيرتك الاقربين فما يصل اليكم الطعام الا على جثة احد من الضحايا .. ؟ فلتنطلق كلمتك على الرغم من كل شىء .. لتجلجل فى طرقات مكة وشعابها كما لم تجلجل من قبل ، فعلى وهج الكلمة المضيئة ، تذوب قضبان الحديد .. وانطلق الآن فالعن أعداءك كما لم تلعنهم من قبل ، وبشر الصابرين ..

الى بلاد الأعناب

انفجرت الاحقاد العصبية ضد بنى هاشم .. فأقسمت العشائر التى كظمت غيظها من بنى هاشم طويلا الا تدعهم، حتى يهلكوا من الجوع ، ويشتكوا من الوحدة والذل .. لا طعام لبنى هاشم ، ولا بيع ولا شراء ..

والعشائر تسترد بناتها من بيوت الازواج الهاشميين ، وتطرد النساء الهاشميات من مخادع الازواج ، وتنتزع الاولاد من احضان الامهات .. وهكذا ردت الى محمد بنته أم كلثوم منبوذة من بيت زوجها قتيبة بن أبى لهب ، كما طردت أخت لها من قبل من نفس هذا البيت ..

وشعر محمد بأنه يجر على بنى هاشم كثيرا من البلاء ، وليسوا كلهم بالقادرين على ان يحتملوا ، وما منهم الا قليل قد أتبعه ، فهو يستعذب الالم فى سبيل ما يؤمن به .. وأشار عليهم شيخهم أبو طالب أن يخرجوا الى شعاب مكة ، ليتجنبوا احقاد القبائل الاخرى ..

ليلزموا بعض الحصون المهجورة على تلك الشعاب ، وليفتقدوا العيش يوما بعد يوم .. والجوع على أية حال خير لهم من ان تعيرهم القبائل غدا أو بعد غد بأنهم خلعوا واحدا منهم واسلموه الى سيوف الاعداء .. وكان أبو سفيان وأبو جهل يقودان حملة الحقد والحصار .. ويشددان النكير على من يحاول ان يتسرب الى بنى هاشم وهم فى وحدتهم النائية المضنية ، خلف جدران القطيعة ..

على أن الامر لم يدم طويلا ، فقد كشف تعنت أبى سفيان وأبى جهل وقبيلهما عن كثير من الامور ·· ليست المسألة اذن هى مسألة خلع محمد ولا تسليمه ، ولكنهـا مسألة اذلال بنى هاشم واهلاكهم ، ليرث أبو سفيان وأبو جهل وقبيلهما تجارة بنى هاشم ومالهم ومناصبهم فى حكومة قريش ··

تكشفت هذه البغضـــــاء لقلوب كثير من الطيبين فى قريش ، ممن لم يحملوا لبنى هاشم من قبل شيئا من حسد أو ضغينة ·· وان منهم لمن له قرابة ورحم لبنى هاشم : أخوال وأبناء خالات وعمات ··

وكان هؤلاء قد وقعوا الصحيفة من قبل ، عندما خيل اليهم أن الامر لا يعدو الضغط على بنى هاشم ليتخلوا عن محمد ·· ولكنهم منذ أدركوا أن القطيعة انما ايراد بها هلاك بنى هاشم وزوالهم جميعا عن مكة ·· منذ أدركوا هذا اخذتهم الرقة على هؤلاء الاقارب ، ثم دفعهم الى التفكير فى نقض الصحيفة ، ما بان من طمع أعداء بنى هاشم فيما يملكه بنو هاشم ··

ومضى هشام بن عمرو بن ربيعة ، يحمل الابل بالطعام ويدفعها الى بنى هاشم فى شعاب الجبل ، تحت ستار الليل ·· ولم يكتف بهذا ، بل انه مشى الى زهير بن أبى أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : « أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتتزوج النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا يتزوجون ولا يتزوج منهم ؟ أما أنهم لو كانوا أخوال أبى جهل الحكم ابن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه ابدا »

وشق على زهير ابن عاتكة بنت عبد المطلب ما يسمعه ،

وتفجر من قلبه الحزن على ما يلقاه أخواله أبو طالب وحمزة والعباس ، وبقية الاخوال من بنى عبد المطلب ، وأبناء الاخوال ، وعشيرة أمه جميعا .. فقرر أن ينقض الصحيفة التى تعاهد فيها مع بقية الرجال على مقاطعة بنى هاشم .
وما زال هشام بن عمرو بن ربيعة ، يحدث رجالا اخرين حتى ضم اليه المطعم بن عدى ، والبحترى بن هشـــام ، وزمعة بن الاسود .. وكلهم غنى واسع الغنى ، ذو مكانة فى قومه ..

وتواعدوا آن يذهبوا الى الكعبة من غدهم ليعلنوا نقض صحيفة المقاطعـــة التى وقعها سادة قريش وعلقوها على الكعبة .. وفى اليوم التالى ذهب الى الكعبة ، زهير بن أبى أمية « ابن عاتكة بنت عبد المطلب » يقول للمجتمعين حول الكعبة : « يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونشرب الشراب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى أشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » ..

وكان ابو طالب فى تلك اللحظة قد جاء من شعاب الجبل وجلس الى الكعبة منبوذا ، وأبو جهل يجلس فى أحد الاركان متخايلا بين الرجال .. فهب أبو جهل يرد على زهير بن ابى أمية : « كذبت .. لن تشق هذه الصحيفة » فقال زمعة بن الاسود لابى جهل : « أنت أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت »

وأيده البحترى : « ولا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ». وأيدهما مطعم بن عدى : « صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، اننا لنبرأ من هذه الصحيفة ومما كتب فيها »

وأيدهم هشام بن عمرو .. وأبو طالب ، يجلس بعيدا ، صامتا فى وحدته ..

وانتفض أبو جهل يعلن أنها لمؤامرة على الصحيفة ،

ويحاول أن يدفع عنها .. ولكن الرجال الخمسة الذين كانوا قد اتفقوا على رفع الحصار عن بنى هاشم ، قاموا معا فمزقوا الصحيفة ..

اضطرم غضب أبى جهل وابى سفيان ومن معهما .. ولكن موقف الرجال الخمسة شجع آخرين .. وأيقن أبو طالب وهو جالس يرقب ، أن المقاطعة لن تفيد بعد ، وأن الاسوار التى أقامتها قريش قد امتلأت بالثغرات .. فسيجد بنو هاشم من يبيعهم ويبتاع لهم ومن يسترد الزوجات الطريدات ، ومن يرد اليهم نساءهم اللواتى انتزعن منهم .. وعاد أبو طالب الى شعاب الجبل يؤذن فى بنى هاشم أن يعودوا الى بيوتهم وحياتهم فى مكة . وحرص بنو هاشم أن يعودوا كما كانوا ، فلا يظهروا أحدا من قريش على ما صنعته المقاطعة بهم ..

غير أن متاعب الحصار تركت اثارا لا يمكن ان تخفى فى أبى طالب الشيخ ، وفى خديجة التى جاوزت الان ستين عاما ، قضت السنوات الاخيرة منها فى آلام متصلة ، وفى قلق على مصير زوجها محمد ، تحبس عنه ألمها لما يعانى ، وتطالعه بوجه مبتسم ، وفى قلبها الدموع ..

اما محمد ، فقد عاد أقوى مما خرج الى شعاب مكة .. يسخر مما يلقى ، ويتحدى أعداءه ، ويمشى كما كان بين حمزة وعمر .. وقد قرر الان ألا يصبر على الاذى ، فما تستطيع قريش بعد أن تصنع به أكثر مما صنعت .. ويلقاه أمية بن خلف فى بعض الطريق .. وأمية رجل شرس مولع بالعدوان لا يخاف احدا ، وهو يستخف فى مجالسه بانضمام حمزة وعمر الى محمد ويقسم أنه سيقتل محمدا بيديه على الرغم من كل شىء ، ويواجه أمية محمدا بهذا ليرهبه .. يقول أمية : « انى أعلف هذا

الفرس لاقتلك من عليه » فيجيبه محمد : « بل أنا أقتلك باذن الله » ..

وهكذا مضى محمد يتلقى التحدى بالتحدى ويسخر ممن يسخرون به ، ويواجههم بما يسقط هيبتهم التى اعتزوا بها طويلا .. وهو خلال هذا كله ، يلقى بتعاليمه ويصر عليها ويطالب الناس أن يتبعوه .. ويقتحم ولا يبالى ..

ويعجب البسطاء بجسارته يوما بعد يوم .. ويشعر بعضهم أنه لو انضم الى محمد الان ، فلن يمتهن ويعذب كما حدث لمن سبق .. ذلك أن محمدا يواجه قريشا بجسارة تؤكد لمن يريد أن يتبعه ، أنه سيكون فى منعة من الاذى والعدوان ..

ولقد خشيت قريش أن يفتن به الغرباء الذين يزورون مكة للتجارة ويجتمعون فيها أيام الحج .. فقررت حكومتها أن تعلن أن محمدا خارج على القانون وأن من سمع اليه ، فانما يتحدى حكومة مكة ، وستحل حكومة مكة لنفسها أن تعامله كما تقتضيها صيانة مصالحها .. وكانت مكة تخشى الشعراء بصفة خاصة ، لان القبائل تفخر بشعرائها وتعتد بكلماتهم ، فلو أن أحد الشعراء اتبع تعاليم محمد فمدحها ، تشاعت هذه التعاليم فى قبيلة ذلك الشاعر ، ولراج ما جاء به محمد خارج مكة ، ولاستقبل الناس هذه التعاليم التي يمتدحها الشعراء بنفس الاحترام الذى يحملونه للكلمة المنظومة ..

وهكذا رصدت حكومة مكة من يصد الشعراء من الوفود على محمد ، ومن يذيع فى حكماء هذه الوفود أن محمدا ليس سوى مجنون يستهزىء به قومه .. ولكن محمدا حاول أن يقتحم الى هؤلاء الشعراء الحكماء . وعندما كانوا يجلسون حول الكعبة كان محمد يدخل عليهم ،

ويشرح لهم تعاليمه ، متحديا أصوات المستهزئين التى تغمر صوته ، وقد حدث فى أحد هذه المجالس أن وقف رجل غريب يستصرخ الناس : « يا معشر قريش ٠٠ هل من رجل يعيننى على أخذ حقى من عمرو بن هشام ، فانى رجل غريب ابن سبيل وقد غلبنى على حق » فأشار له بعض اهل قريش على محمد وهم يضمرون السخرية به !

وصدق الرجل الغريب ، وذهب الى محمد يقص عليه أن أبا جهل اشترى منه بعض الابل ، ولم يدفع له الثمن ٠٠ وهو لا يريد أن يدفع ٠ وتعالت ضجة المستهزئين ، وأيقنوا أن محمدا سيخيب أمل الرجل فيه ٠٠ سيجبن عن نصرته ، وتهيأوا لسخرية جـديدة بمحمد تسقطه وسط الذين يدعوهم الى تعاليمه ٠ ولكن محمدا قام مع الرجل الى عمرو بن هشام ٠٠ وكان محمد والمسلمون قد تعودوا أن يسموه أبا جهل ٠٠ قام الى أبى جهل ، مخلفا وراءه حيرة المتغامزين عليه ٠٠

جاء أبا جهل فى داره وهو بين عبيده وفرسـانه ، فضرب عليه الباب ، وطلب أن يخرج اليه أبو جهل هذا ٠٠ كان وجه محمد يحمل كل حزمه ، وكل ما فى طاقته من الثورة لهذا المظلوم ، ومن التحدى أيضا ٠٠ وخـرج أبو جهل مروعا يستقبل محمدا ٠ ماذا حـدث فى مـكة حتى يجرؤ محمد على أن يضرب عليه بابه بهذه الصورة ٠٠ ؟ وقبل أن يفيق أبو جهل من المفاجأة ابتدره محمد فى حسم : « اعط هذا الرجـل حقه ٠٠ » ولم يجب أبو جهل بل دخل ، ثم خـرج فأدى الى الرجـل ثمن الابل !! ٠٠ وعاد الرجل يعلن للناس حول الكعبة أن محمدا أخذ له بحقه من ظالم لا يجرؤ عليه أحد ٠٠

ملأت هذه الجسارة قلوب الغرباء بإكبار محمد ٠٠

وانصرف المستهزئون، يقلبون أكفهم من العجب ، والغيظ! .

لتكن الكلمة هى الخطوة اذن .. لتتحول كلماته الى خطوات .. فقد جاء الزمن الذى يجب فيه أن تعكس خطوات الرجل ، كل تعاليمه .. لقد انفق نحو عشر سنين فى مكة يدعو بالكلمة ، ويصبر على العدوان ، ولكن صبره أطمع فيه طغاة قومه . لقد شبع من الصبر ، فليواجههم اليوم قوة بقوة .. ولن يستطيعوا على أية حال أن يصنعوا به أكثر من يصنعون .. انه يطالب الناس أن يوفوا بالعهود اذا عاهدوا .. فليتحرك هو بنفسه ليحمل المتكبرين على أن يوفوا بالعهود ..

انه ليلعن الظالم ويدعو الى ألا يأكل أحد مال غيره .. فلينتزع هو بنفسه الحق من أظفار المغتصب ، وليفضح الظالم ويقهره .. وليرد الى المظلوم ما ينهب منه . ومن خلال هذا السلوك بدأ بعض الغرباء من زوار مكة يهتمون به ، وأتاه فى بيته شاعر « دوس » وحكيمها الطفيل بن عمرو ، فقال له : « يا محمد : ان قومك قد قالوا لى فيك ما قالوا ، وما برحوا يخوفوننى من أمرك حتى سددت اذنى لئلا اسمعك ، ثم سمعت قولك فوجدته قولا حسنا فاعرض على أمرك »

ها هو ذا سيد قبيلة بعيدة يسعى اليه .. وظل محمد يتحدث معه ويشرح له تعاليم الاسلام الذى جاء به .. حتى اقتنع الطفيل بن عمرو ، وعاد الى قومه فأقنع أباه وزوجته ، وما زال بقومه حتى أقنع منهم سبعين رجلا وامرأة .. وعلمت قريش نبأ الطفيل ، فبدأت تشعر بالخطر حقا ..

لو أن تعاليم محمد خرجت من مكة ووجدت من يناصرها لاستقوى عليهم محمد بجيش من هؤلاء الانصار الغرباء ،

ولما وجـــدوا حرجا حين يكثرون أن يجتمعوا ليقتحموا عليهم مكة ، ويجعلوا محمدا ملكا عليهم أجمعين ..

ولامت مكة نفسها أنها تركت الطفيل يلقى محمدا ..

لابد من أساليب آخر مع هؤلاء الغرباء ، لقد خوفوهم من محمد فلم ينفع هذا .. فلتتحرك القوة اذن لتمنع مثل هذا اللقاء . وأخذ جند مكة يراقبون الغرباء ، وملأت حكومة قريش أسواقها ومواسم الحج فيها بالجواسيس، ما يعثرون على رجل يتصل بمحمد حتى يطردوه من مكة ، مضروبا معذبا بعد أن يصادروا ماله وتجارته . ولكن محمدا لم يحفل بهذا ، وظل يقف حول الكعبة كلما جاءت وفود تطوف بها ، فيعرض عليهم الاسلام .. وكان بعض هذه الوفود يصغى ثم ينصرف ، وبعضهم يخشى عدوان حكومة قريش فيبتعد ..

وعلى أية حال فلم تتح حكومة قريش لاحـــد منهم أن يتحدث الى محمد أبدا .. حتى جاء رجل حكيم من بنى غفار ، مثقل القلب بصلف السادة الاغنياء .. حالمـــا بالخلاص من كل المظالم التى يراها .. وذات مســـاء اضطجع هذا الرجل الغفارى قريبا من الكعبة ، فرآه على ابن أبى طالب ، ولاحظ أنه وحيد رقيق الحال فسأله ، « كأن الرجل غريب ؟ »

ثم استضافه على ، فبات الرجل عنده .. ثم أصبح فلم يجده .. وفى المساء عاد الرجل الى بيت على ..كان وجهه النحيل يحمل ذلك الحزن الغامض الذى يرســمه طول التأمل . وقال له على : « ألا تحدثنى ما الذى أقدمك هذا البلد » . فقال الرجل : « ان اعطيتنى عهدا وميثاقا أن ترشدنى فعلت » وعاهده على أن يرشده ويكتم أمره

فقال الرجل انه سمع عن محمد فجاء يلتمسه ، ولكنه وجد ما تصنعه حكومة قريش بالغرباء الذين يقابلونه ، فخشى أن يسأل عنه • فقال على : « من أنت ومن أين؟» •• قال الرجل : « اسمى أبو ذر وقبيلتى غفـار » •• وقام على من فوره ليصحب أبا ذر الغفارى الى محمـــد وهمس له : « اتبعنى ، وادخل حيث أدخل فان رأيت أحدا أخافه عليك دنوت من الحائط كأنى أقضى حاجـــة فامض أنت » ••

وانطلقا حتى لقيا محمدا •• فشرح محمد تعاليمه لابى ذر الغفارى • وزاره أبو ذر فى الليلة التالية ســـالكا نفس الطريق اليه بصـــحبة على •• ســـأله عن موقف التعاليم الجديدة من العبيـــد والمرابين والمتكبرين ومن النساء والفقراء والمضطهدين ••

وتعود أن يزوره مع على فى الليالى التالية • ســـأله عن كل ما يشغله •• من العدل والمساواة ، وحق المحروم فى مال الغنى • ووجد أبو ذر فى التعاليم الجديدة جوابا لكل ما يسأل عنه •• هو ذا ما يريد أبو ذر ••

وأعلن أبو ذر الغفارى أنه ليؤمن بكل هذه التعـــاليم •• وسيحملها الى قومه بنى غفار • فقال له محمد وهو يودعه : « يا أبا ذر ارجع الى قومك فاخبرهم واكتم أمرك عن أهل مكة ، فانى أخشاهم عليك •• »

ولكن أبا ذر خرج الى الكعبة ، فوجد حولها رجالا من قريش ، فدعاهم الى الاسلام ! •• وانقض الرجال عـلى هذا الغريب الذى يتحدى حكومة قريش وظلوا يضربونه حتى لقد أشرف على الموت ، لولا أن العبـــاس بن عبـــد المطلب صرخ فى الناس وهو يدفعهم : « ويلكم ألســـتم تعلمون أنه من بنى غفار وأن طريق تجارتكم الى الشام

يمر عليهم » فرفعوا أيديهم عنه خشية أن يموت فيقطع بنو غفار طريق تجارتهم الى الشام ثأرا لابى ذر ·· وانطلق أبو ذر الغفارى الى قومه ، يحمل اليهم التعاليم التى حلم بها طويلا ··

ما الحيلة فى محمد بعد ·· ؟ ما زال أبو طالب يحميه، وبنو هاشم اذا جد الجد ينتصرون له ·· وها هى ذى دعوته تتسلق أسوار مكة وهضابها لتشيع فى القبائل الاخرى : دوس ، وبنى غفار ·· ومن يدرى ماذا يحدث غدا ·· ؟ ومحمد يتلو الان تعاليمه فى المسجد ولا يبالى · ويمضى رجال قريش الى عمه لآخر مرة ليروا معه رأيا فى أمر محمد ·· ولكن أبا طالب مريض قد اشتدت عليه العلة ، ومحمد الى جواره يدعوه وهو على فراش الموت أن يؤمن بما جاء به ··

ثم مات أبو طالب .. مات فسقط عن اعداء محمد حرج كبير ·· فقد كانوا فى النهاية يحسبون لابى طالب بعض الحساب ·· ولئن كانوا قد قاطعوه مع سائر بنى هاشم ، فأن حياءهم منه منعهم ان يبلغوا من محمد ما يريدون . ومضى محمد الى بيته مهموما يبكى عمه ·· فوجد اليد التى تعودت أن تمسح دموعه ترتعد هى الاخرى تحت وطأة الالم .. كانت خديجة مريضة ، منهكة ·· وسقطت ميتة بعد أن مات أبو طالب بأيام ··

فى أيام قلائل يفقد محمد عمه الذى رباه ، وزوجته التى شاركته فرح الحياة وعذابها أكثر من عشرين عاما

وشعر محمد ان المسرات تتخلى عنه ، وان بهاء الحياة يغيض وكانما تنهار فى أعماقه الضلوع . وانحنى يبكى على قبر خديجة .. ويبكى ..

وعندما أخذه أصحابه واهله الى البيت ، ظل واجما

.. لا يتكلم ، الزفرات تتصاعد ، والدموع تسيل من عينيه ..ما الذى أعدت له الحياة بعد .. ؟ لكم عاني عمه من أجله ، وكم عانت خديجة ... وها هو ذا يلقى نفسه وحيدا آخر الامر ، زايله ظل عمه ، وسيأوى من بيته الى فراش بارد تنوح فيه الذكريات

ونصحه بعض صحبه أن يتزوج امرأة شابة تعوضه عن فقد خديجة ولكنه أبى !! .. لقد عاش معها هذه الاعوام جميعها ، وكبرت سنها ودهمتها الشيخوخة، فلم يفجعها بضرة على كثرة ما نزعت اليه النساء .. غير أن المهاجرين الى الحبشة عادوا فجأة .. فقد اضطربت الامور بالنجاشي الذى يحميهم ، وحملت اليهم الانباء ان الحال فى مكة قد تغير .. عادت ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان .. وعاد صديقه عبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير .. كلهم عادوا بزوجاتهم .. الا القليل دفنوا هناك تحت أرض الحبشة . وعادت من بينهم امرأة وحيدة تركت زوجها تحت التراب هناك ، وما برحت تشكو بعده الحاجة والوحدة .. فعرض محمد على غير واحد من صحبه أن يأسو جراحها ويتزوجها .. ولكن المرأة لم ترق لاحد فخطبها هو لنفسه عسى أن يكون فى هذا عزاء لها

ولم تصبر عليه قريش حتى يمسح دموعه .. فما كاد يفجع بأبى طالب وخديجة حتى انقضت مكة على أنصاره الذين عادوا من الحبشة ، تطارد تجارتهم وتعذب منهم من يقع فى يدها .. من جديد يعود عصر آخر للعذاب !! ..

وتمنى محمد لو أنه استطاع ان يجد قبيلة تؤمن بدعوته ، وتدعوه اليها هو والذين اتبعوه ... لو ان بنى

غفار ، أو دوس ، تحتضن هذه التعاليم فستخلصه هو واتباعه من عذاب الحياة فى مكة .. ولكنه لم يظفر بدعوة من غفار ولا دوس .. وأغراه عمه العباس ان يذهب الى الطائف ، فهناك تعيش ثقيف ، ولعمه صداقة مع بعض سادتها وله فيها مزارع واسعة من اعناب وزيتون. وعبيد واجراء وزراع ونساء ضائعات !.. سيجد فى الطائف من يسمع له اذن وسيجد من يمنعه اكراما لعمه العباس . وصحب غلامه زيد ، وسار الى الطائف

ولاح النخيل له ومزارع الكرم ، وخضرة الزيتون من بعيد .. ما هى ذى مشارف الطائف ، وأسوارها الشاهقة البيضاء .. وامتلأ صدره بعطر الحقول وسط وهج الصحراء وأشرق وجهه فجاة وشعر بالطمأنينة تزحف اليه

قد يجد فى الطائف ظلا يعوضه عن وهج الرمضاء ، وانصارا يعتز بهم وينشرون دعوته .. سيجد هنا الامن ، والراحة التى ينشدها القلب .. هنا فى بلاد الكرم ..

ومن يدرى ، ربما ارتفعت من هذه الخضرة ، راية تعاليمه الجديدة !! ..

قاتلوا الذين يقاتلونكم

طريد أنت يا ولدى ، مسكين معذب كالمبشرين الاوائل ..

أيمكن اذن للجذوة التى اشتعلت فى قلبك ، أن تنطفىء فجأة ، فيضيع كل شىء ، ويطويه الدجى المترامى فى هـ الصحارى الشاسعة التى يصفر فيها الخواء والكيـــد والمنكر ؟ ! .. أيمكن أن تسقط تعاليمك وتنطمس تحت الرمال التى تقوم عليها آلهة ذهبية تسطع تحت وهج الشمس ، ويظل الانسان مهدرا ممزقا ، يقطع من لحمه بلا حساب ، ويبتذل عرقه واباؤه ؟ ! .. أتصبح أنت يا أبا القاسم ذكرى تطوف على قلوب المستضعفين كالحلم السعيد المتبدد ، ولا تثير غير ابتسامة السخرية على شفاه المتسلطين ؟ أممكن هذا اذن .. ؟

ولكنك لست كالمبشرين الاوائل المضيعين . لقد جئت بشىء آخر مختلف واستقبلك عصرك بطريقة أخرى .. لا ابن سنان ، ولا ابن نفيل ، ولا أحد على الاطلاق جاء على حين ينتظره الزمن كما جئت أنت بشفاء للنفوس مما تجد، مستجيبا للاحتياجات المادية والوجدانية ..

لا أحد من هؤلاء المبشرين الذين يحزنك مصيرهم ، وجد من المؤمنين بتعاليمه قدر ما وجدت أنت ، ومثل ما وجدت أنت .. مؤمنون يستعذبون الالم ولا يحنون الرأس أبدا.. ومع ذلك فما من أحد من هؤلاء المبشرين لقى مثل ما تلقى من الاذى والجحود والعنت ..

ولشد ما سخرت به الطائف وخذلته ، ولشد ما سحقت أحلامه ، وأدمته حتى القدمين ٠٠ العبيدوالاجراء والضعفاء الذين يحمل لهم الخلاص ، ويدعوهم الى الحرية ، هم الذين يطاردونه بالسخرية والزراية والحجارة !! .. لكم هو رهيب ومعذب ومذهل ، ان يلقى مثل هذا من الذين جاء لينتشلهم .. وأصدقاء عمه العباس تنـــــكروا له ورفضوه ، مجاملة للآخرين من تجار قريش ، وحرصــــا على استمرار قبضتهم على أعناق العبيد الاجراء .. علموا قبل أن يأتى اليهم انه يحرم الربا ، ويســـتنكر الخمر ، ويحض الناس على كراهية لحم الخنزير ٠٠ وكانت أموالهم تتكدس من الربا ، وكانت خير تجارة يكســـبون منها هى الخنزير الذى يملأ مراعى الطائف والخمر الذى تنتجه الكروم هناك ، وأدركوا أن وجوده بينهم سيغرى الضعفاء والفقراء بأن يطالبوا بما يسميه هو حقهم المعلوم فى أموال الاغنياء .. فنبذوه وأغروا به العبيد والصنائع يلاحقونه ، فى كل طريق ويسدون آذانهم اذا هم بأن يتكلم ويقذفونه بالحجارة المسنونة ..

وسال دمه .. وظل دمه يسيل على أرض الطائف ، وهم يطاردونه بالحجارة

وأعلن أنه عائد الى مكة ، فليكف عنه الســـادة كلاب الصيد . واستدار راجعا الى مكة وهو يناشـــدهم أن يكتموا عليه ما كان منهم حتى لايشمت به أعداؤه من قريش ويغرون بايذائه من جديد ، ولكن ثقيفا أصحاب الطائف أبوا أن يكتموا أمره واقسموا أن يشهروا به .. وجـــر قدميه الداميتين ، ومن ورائه زيد بن حارثة ، يغالب دمعه٠ وجلس محمد وفتاه تحت ظل جدار يعالج جرحه ويستريح ويريح فتاه ٠ كانت نظراته التى غام عليها الدمع تقتحم التيه الممتد امامه بصفرة الرمال كالضياع .. وفى أعماقه

يتردد صدى بعيد من كلمات عمه أبى طالب التى أوصى بها سادة قريش وهو على فراش الموت : « أوصيكم بمحمد خيرا فانه الامين فى قريش والصديق فى العرب .. لكانى أنظر الى صعاليك العرب وأهل البر فى الاطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت .. فصار رؤساء قريش وصناديدها أذنابا وضعفاؤها أربابا وقد أعطت له العرب قيادها .. دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم .. كونوا له حماة .. »

ولكن أبا طالب قد مات ، ولم يسمع نصيحته أحد من معشر قريش ..

وأهل البر ، والمستضعفون والصعاليك فى الطائف ، يرفضونه ويؤذونه ويطردونه ويمنعون عنه الطعام والماء .. ويقسمون أن يبلغوا سفهاء قريش بكل ما كان ليبتدره السفهاء فى وطنه بالاذى مرة اخرى . ماذا تحمل له الحياة فى مكة غدا .. لقد مات عمه الذى منع عنه كثيرا من الاذى ، وماتت زوجته خديجة التى حملت معه كثيرا من الضنى ..

وليس لعمه العباس مثل هيبة عمه أبى طالب ، وما زوجته الجديدة « سودة » بالتى تستطيع أن تعوضه عن خديجة شيئا . وصحابه العائدون من الحبشة يلقون من التعذيب مالا قبل لهم به .. وحكومة قريش بكل أجهزتها وسلطاتها تنطلق الآن كوحش مسعور تبطش بمن اتبعه فى مكة وبمن يحاول أن يتصل به من الغرباء ، غير عابئة بحمزة ولا بعمر .. وماذا يستطيع حمزة وعمر وعدة عشرات أن يصنعوا فى مواجهة آلاف يلهبهم الخوف على مصالحهم والاحساس الجنونى بالانهيار ؟ ..

ولم يكد محمد وفتاه يستريحان تحت ظل الجدار وقد توقف انصباب الدم من قدميه ، حتى عاوده مطاردوه

فانقضوا عليه ، وجذبوه ، ودفعوا به قسرا فمشى ، وهم يرجمونه ويتضاحكون . والدم ينزف من جديد .. حتى خرج من الطائف كلها ، فاستلقى وحيدا أمام أسوارها المنيعة البيضاء تتصاعد الزفرات من حبة قلبه ، وهمهم يدعو ربه : « الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى أم الى عدو ملكته امرى ؟ .. ان لم يكن بك على غضب فلا ابالى » .. ثم اخذ بيد فتاه ، وانطلقا ..

سيعرض أمره على آخرين .. سيقتحم السدود التى اقامتها حكومة قريش بينه وبين الغرباء .. وليتحمل كل مايمكن أن تصنعه به قريش . ان ثباته هو الذى يعطف اليه القلوب ويملأ نفوس أشد المنكرين له ، اعجابا به ..

ومشى بقامته المعتدلة الممتلئة فاقتحم مجلسا حول الكعبة ازدحم ببعض التجار الغرباء .. كانت أنباء رحلته الى الطائف قد سبقته الى مكة ، فاستعد أعداؤه فيها للقائه بألوان من الاذى لم يعرفها من قبل .. ولكنه كان قد قرر الا يبالى ! ..

واخذ يشرح تعاليمه للتجار الغرباء ويدعوهم الى الايمان بالاسلام الذى جاء به .. وتركهم يفكرون ثم انصرف . وعلم اعداؤه من رجال حكومة قريش بما صنعه فخفوا سراعا الى الكعبة ، وتشاوروا فى أمرهم ثم أقسموا ان ينتظروه من غد .

وفى الغد عاد محمد بكل ثقته واصراره على ان يواجه قريشا ولا يبالى .. ومر بهم وهم فى مكانهم من الكعبة فتغامزوا عليه وادرك محمد أنهم يدبرون له أمرا . وكان مقبلا وحده ، وهم عدة عشرات من سادة قريش وفرسانها وسفهائها فانقض عليهم قائلا : « يا معشر قريش لقدجئتكم بالذبح ! » .. بالذبح .. ؟!

باسم ماذا يتحداهم الى هذا الحد .. انه ليقتحم وحده مجلس القوم ، وليس الى جواره أحد .. لا حمزة ولا عمر .. ولا أحد يمكن أن يرهب به الآخرين .. وذهل الجالسون من المفاجأة فلم يتكلموا . وقال له أبو جهل متلطفا : « يا محمد .. ما كنت جهولا » .. عسى أن يعتذر محمد للسادة أو يقول ما يقنع الغرباء الجالسين انه انما يعني السفهاء وحدهم . ولكن محمدا أجابه وهو ينصرف مشمئزا منه : « يا أبا جهل .. أنت منهم » ..

وصمم سادة قريش على أن يحدثوا به ما يجعله امثولة أمام الغرباء ، فلا يستعلى عليهم بعد بشجاعة قلبه ، ولا يقوى على أن يواجه أحدا منهم باهانة .. وما لهم لا يصنعون به كما صنعت ثقيف عندما زار الطائف .. ؟ واحتشدوا بشجعانهم وفرسانهم وسفهائهم . وأقبل محمد على الكعبة من اليوم التالى كما تعود .. وتركوه حتى اتجه الى المقام فوثبوا عليه وهو قائم يصلى بالمحراب .. وثبوا عليه كلهم دفعة واحدة ..

ولف عتبة بن ربيعة رداء محمد حول عنقه الذى كان يحنيه خاشعا أثناء الصلاة ، ثم جذبه فسقط على ركبتيه .. وانهالوا عليه كلهم يكيلون له الضربات ..

وتعالى صياح بعض الناس فى المسجد وارسلوا الى حمزة وعمر لينجدا صاحبهما ، لكن مكة لم يكن فيها من صحبه غير أبى بكر ، فأقبل مسرعا ينحى المعتدين عن صديقه محمد ، ومحمد يدفعهم بيديه .. وحين انفلت محمد من أيديهم أنذرهم مرة أخرى « أنه سيذبحهم أجمعين »

ومضى ، وبقى أبو بكر ، فوثبوا به وضربوه ، وظل عتبة يضربه بالنعل على وجهه ، حتى أقبل رجال من عشيرة أبى بكر ، فاستخلصوه من أيدى المعتدين

وهكذا أخذت قريش تشرع النعال امعانا فى الزراية والاذى ، فأخذ محمد ينذرهم بعذاب الحريق •• وأنه لعذاب غليظ يصهر به ما فى بطونهم والجلود •• ولكنه عاد الى بيته فى ذلك اليوم بعد أن أوذى هو وصديقه أبو بكر ، فاستقبلته احدى بناته باكية •• كانت ثيابه ممزقة ، ووجهه المتورد شاحبا موجعا مما تلقى من الضربات وعلى رأسه تراب قذفه به السفهاء • وغسلت له ابنته رأسه ، وضمدت جراحه ، ورتقت له ثوبه وهى تبكى فى صمت •• أين يد أمها الحانية ؟! الزوجة شىء اخر •• واقترحت عليه أن يتخذ له زوجة تعوضه بعض ما فقد ، فسودة امرأة مسنة لا حيلة لها

وعرضت عليه ابنته أن يتزوج عائشة بنت صديقه ابى بكر . ولكنها صغيرة جدا ، هذه الفتاة الجميلةذات الشعر الاحمر ، والحس المرهف . على انه خطبها واستبقاها فى بيت أبيها حتى تؤذن الظروف بالزواج • ومضى يعلن أصحابه ببدء مرحلة أخرى من العمل المستمر .. سيخرج الى أسواق التجارة .. عكاظ ، وذى المجاز ، وغيرها ليخطب فى الناس كما صنع المبشرون الاوائل وكما يصنع الآن شعراء يتفاخرون ورهبان وكهان.. سيعرض الاسلام على الاخرين كما يعرضون هم أشعارهم وأفكارهم ، ولابد أن يجد فى النهاية قبيلة ينتصر بها ، ويقيم عندها .. وتحب دعوته فيجعلها قاعدة مطمئنة يتجه منها الى العرب أجمعين ••

وصحب معه أبا بكر ، ليتعرف على الوفود وانسابها ، فهو مثقف يعرف كل أخبار العرب . وفى أحد الاسواق تقدم محمد وأبو بكر الى أحد الوفود ، واستبق أبو بكر فسلم وسأل : « من القوم ؟ » فقال الناطق باسمهم : « من شيبان بن ثعلبة ؟ »

وتعرف عليهم أبو بكر وعدد لهم كثيرا من مفاخر قومهم فطربوا ..

ثم سألهم : « كيف الحرب والمنعة فيـــكم ؟ » : فقال الناطق باسمهم : « انا لنؤثر السلاح على اللقــاح والجياد على الاولاد »

فعرفهم أبو بكر بمحمد .. وتقدم محمد يعرض عليهم الاسلام : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق.. ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. فقال له قائلهم : « والام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ » . فقال لهم انه يدعو الى العدل ، والى الاحسان ، والى ايتـــاء ذى القربى والى اجتناب الفواحش والمنكر والبغى ..

ونظر الناس فاذا بأبى لهب يقف بينهم فى ملابســـــه الفاخرة ويقول : « يأيها الناس لاتسمعوا منه فانه كذاب » .. والى جوار أبى لهب يقف عبد له ، يحاول أن يرجم محمدا ..

وسأل القوم عن الرجل ، واذعرفوا أنه عم محمد يصحب عبده ويحرضه على ابن أخيه ، وانه مازال يزرى به امام الاغراب ، انكروا فى أنفسهم ما يصنعه أبو لهب بابن أخيه ، ورأوا فى سلوكه نذالة لا تليق بعربى شريف .. فدفعوا العبد عن محمد وهم يقولون : « لقـــد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك »

فسألهم محمد أن يؤووه ، وينصروه .. ولكن القــوم قالوا له انهم ينزلون فى أرض يحكم نصفها كسرى ، فهم لا يستطيعون أن يؤووه فى هذا النصف من أرضهم حتى يأذن لهم كسرى .. كسرى .. ؟ الى متى يظــل كسرى يحكم أجزاء من بلاد العرب ؟.. والى متى تظل بعض هذه

الارض تحت سيطرة الروم ..؟ متى اذن يلقى العرب كل هذه الاغلال ويصبحون أحرارا فى أرضهم ، اخوانا يعمر الحب قلوبهم .. ؟

لو انه وجد قوما ينصرونه ويؤوونه ، فمن الممكن أن تتحرر هذه الجزيرة كلها من سيطرة الاغراب ، ويصبح العرب كلهم آمة واحدة يؤمنون بنفس الاشياء ، ويفرضون وجودهم ومستقبلهم على الاكاسرة والقياصرة . وقال لهم محمد : « أرايتم ان لم تلبثوا الا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم واموالهم ويفرشكم نساءهم ؟» .. ولشد ما يبهرهم هذا ، ليتهم يتبعونه .. لقد وعدوه ان يفكروا فى الامر ، وانصرفوا الى ديارهم . اما هو فمضى يحدث كل وفد يلقاه ..

وأقبل عليه نساء كن يفدن الى المواسم مع النخاسين ليقمن الليالى الصاخبة ويبعن المتاع .. ولم يعرض عنهن ، بل عرض عليهن تعاليمه فبايعنه ، وعاهدهن الا يزنين ولا يسرقن ولا يأتين ببهتان ولا يتركن احدا يستمتع بواحدة منهن فى غير زواج ولو بقبلة أو لمسة ..

وانطلقن هاربات من قيود النخاسين وتجار الرقيق ، باحثات عن حياة جديدة حرة فى احضان رجال صالحين من أجل تكوين الاسرة . وظل يعرض نفسه على وفود القبائل المختلفة التى تتخذ لنفسها آلهة ..

فاما كلب وبنو حنيفة فقد ردوه ردا منكرا ، وأما بنو عامر فقد سألوه : « أرأيت أن نحن بايعناك وآويناك ثم ظهرت بنا ، أيكون لنا الامر من بعدك ؟ » .. ولكنه لا يدعو الى ملكية يقسم مغانمها منذ اليوم

وعبثا حاول ان يشرح لهم .. فقد انصرفوا عنه

قائلين : « افنجعل نحورنا هدفا لسهام العرب دونك ، فاذا ظهرت كان الامر لغيرنا ، لا حاجة لنا بك »

وهكذا ، من وفد الى وفد .. كل وفد يعتذر بشيء .. فما يبايعه الا بعض العبيد والنساء والمستضعفين والاجراء .. حتى لقى وفدا من يثرب فسألهم : « من أنتم ؟ » . فقالوا : « نفر من الخزرج » . فقال لهم : « الا تجلسون حتى أكلمكم ؟ » ..

وجلس يكلمهم ويدعوهم الى الاسلام الذى جاء به والى أن يؤووه وينصروه ، فبايعه منهم ستة رجال وامرأة .. وعاهدوه الا يزنوا ، والا يسرقوا ، والا يأتوا ببهتان ، والا يطغوا فى الميزان ، والا يقتلوا أولادهم .. على أنهم عادوا الى يثرب ، فدعوا الناس هناك الى أن يتابعوا محمدا ، وأن يؤووه وينتصروا له .. واستجاب لهم كثير من قومهم .. فقد كانوا من الحكماء ..

وشاع فى يثرب أمر الدعوة التى حملها وفدهم عن محمد فقامت الاوس تتساءل .. والاوس هى القبيلة الاخرى التى تنافس الخزرج فى يثرب . .. واقتنع من الاوس بعض الرجال ، ثم ذهب وفد كبير منهم الى السوق فلقوا محمدا وتحدثوا اليه .. وبايعوه . وعرفت مكة ما كان من أمر الاوس والخزرج ، فأرسلت اليهم فى يثرب من يحذرهم ولكنهم لم يبالوا ..

ولم تستطع حكومة قريش أن تصنع شيئا مع أهل يثرب فقد كانت فى يثرب وحدها تجارة السلاح ، وحى الصاغة ، وأسواق الذهب ، وتجار الطعام .. ويثرب — على خلاف مكة — واحة خصيبة ذات حقول ، فجزء كبير من تجارة مكة وغناها يعتمد على حسن العلاقات بيثرب

وهاهى ذى اذن آخر المطاف ، القلعة التى حلم محمد

بأن يمتنع فيها هو وصحبه وينتصر بها وينشر منها دعوته الى العالمين .. الى القبائل المتفرقةفى الجزيرة ، والى حيث يحكم الفرس والروم ، والى كل مكان مايزال يمتهن فيه الانسان ، ويهدر عمله ..

وادركت قريش أن محمدا سيظهر عليهم بأهل يثرب هؤلاء ، فقرروا ان يعزلوه عن أنصاره فى مكة .. وعكفوا على هؤلاء الاتباع يعذبونهم كما لم يعذبوا من قبل ، فلا يتركون الواحد منهم حتى يموت أو يعلن أنه تخلى عن محمد . وهكذا فتنوا كثيرين .. حتى من الذين كانوا قد هاجروا الى الحبشة ، وتحملوا العذاب من قبل ثم عناء الغربة والنفى ..

ونصح محمد للذين يخشون العذاب والفتنة ممن اتبعوه، ان يهاجروا من مكة الى يثرب . ثم أرسل مصعب بن عمير الى اهل يثرب يخبرهم بالهجرة ويهيئهم لاستقبال المهاجرين . وقبلت يثرب ان تؤوى كل من يريد أن يهاجر اليها ..

وعاد مصعب يحمل النبأ الى محمد ، ثم جاء رجال من يثرب فتعاهدوا جميعا على ان يقاتلوا المعتدين جنبا الى جنب . وبدأ المهاجرون يخرجون مختفين ، ليلقاهم المسلمون من الاوس والخزرج مرحبين يتنافسون على ايوائهم واكرامهم ..

وخرج مصعب الى يثرب مهاجرا ، وهو أعز الولد على أبويه .. يكسوانه أجمل الثياب ويمنحانه أزكى العطور ..

جزعت أمه وظلت تبكى ، وأقسمت ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يعود اليها ، وأخذت تقف فى الشمس حتى تسقط مغشيا عليها ..

وأرسلت قريش وراء المهاجرين من يحاول أن يردهم بالاغراء أم بالوعيد ، ولكنها لم تفلح فى رد أحد منهم ·· وحتى مصعب الذى كان يحب أمه أكثر من أى شىء اخر ، رفض العودة الى مكة على الرغم مما سمعه عن أمه · وقال لمن جاء يستعطفه : « انها ستأوى الى الظل ان اشتدت عليها رمضاء مكة ، وستأكل ان قرصها الجوع » ··

وحين فشلت قريش فى استرداد من هاجر منهـــا ، شددت الحصار على من بقى ، فأقامت جواسيسها على مخارج مكة ·· لتمنع أنصار محمد بالقوة من الهرب الى يثرب · وأمر محمد أتباعه أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ، وان كان قد طالب الضعفاء منهم أن يحتالوا للخروج ··

وكان يعرف الان أنه يستطيع أن يقاتل سادة مكـــة جميعا لو أن كل أتباعه من قريش هاجروا وانضموا الى أنصاره الجدد فى يثرب ··

وتدافع الناس أرسالا على يثرب ، بعضهم يخـــــرج متخفيا وبعضهم يتهيأ للقتال ان اعترضته احدى سرايا قريش التى جهزت بالسلاح لمنع الهجرة ··

ويوما بعد يوم كان معظم أصحاب محمد قد هاجروا ··

منهم من ترك الزوجة والاولاد لكيلا يتعرض النســـاء لاذى جنود قريش ، ومنهم من صحب أهله ، فلقى النساء ما لم يلقينه من قبل أبدا ··

ولم يعد فى مكة غير حمزة وعمر وعلى وأبو بكر ·· وعدد قليل جدا من أتباع محمد الذين لم يستطيعوا أن يحتالوا للهجرة ·· ثم محمد نفسه · وخرج حمزة مع بعض النفر ، واستحيا أن يخرج متخفيا ·· خرج مستعدا للقتال اذا اعتدى عليه أحد ، ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يسأل الى أين يمضى

وتقلد عمر بن الخطاب سيفه ، ووضع قوسه على كاهله وامسك فى يديه اسهمها ، ومضى الى الكعبة والملأ من قريش فى فنائها ، ووقف على الجالسين قائلا : « من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » . فلم يجبه أحد . وخرج فامتطى راحلته ومضى .. فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين ..

كانوا يريدون الهجرة ولا يجدون الوسيلة .. فقادهم عمر الى يثرب . وهكذا لم يعد فى مكة من المسلمين غير أبى بكر ، وعلى بن أبى طالب .. ومحمد نفسه . ولم يبد على واحد منهم أنه يستعد للهجرة ، حتى لقد سأل أبو بكر صديقه : متى الرحيل ؟ .. فطلب منه أن يصبروالا يحدثه فى هذا الامر بعد . ولكن قريشا أدركت بغريزة الصياد أن الصيد يمكن ان يفلت منها ، وأن محمدا يبالغ فى الكتمان لانه يدبر أمرا .. ولئن انضم محمــــد الى صحابه واعتصموا بيثرب ، فستأتى الايام الشداد اذن .. ودبرت قريش أمرا ..

رحلة المصير

عندما بلغ السن التى يجب أن يستريح فيها الانسان، ويتمتع بثمرات كفاحه الماضى ، كان عليه أن يرحل ! ٠٠ كان عليه وهو فى الثالثة والخمسين أن يترك وطنه ، وعشيرته ، وذكرياته ، وكل الاشياء التى خفق لها قلبه ذات يوم ، ليبحث عن المستقبل فى أرض جديدة ، لم تطأها قدماه من قبل ٠ ومع ذلك ، فما أكثر ما يواجهه من سخرية الحياة فى وطنه ٠٠

ان الحياة لتسلمه اليوم ، هو بكل تعاليمه ومصيره ، وبدمه نفسه ، الى أبطش عدوه به ، وأبغضهم اليه ٠٠ الى عمه أبى لهب !! ٠٠ فمنذ مات عمه الباسل أبو طالب ، أصبح عمه أبو لهب ، سيدا للعشيرة ٠٠ فهو بعد أبى طالب أكبر رجالها سنا ، وأنهم ليتمثلون جميعا لما يقضى به

فأى قضاء يمكن أن ينزله به أبو لهب ٠٠ ؟ لئن سكت اليوم عنه ، فلن يمضى عام أو بعض عام حتى يخلعه ، كما تعودت القبائل أن تخلع سفهاءها ٠٠ لكم كابد أبو طالب لكيلا يخذله ! ٠٠ ابتلى بالجوع ، فما استسلم ٠٠ حاصرته القطيعة وانهكته قسوة قريش وجحود أخيه أبى لهب ، فما تخلى عن محمد ٠ أما أبو لهب خليفته على رياســـــة عشيرة محمد ، فلن ينصر محمدا أبدا ٠٠

على أن عمه العباس يقوم الان منه مقام عمه الراحل أبى طالب .. انه لم يؤمن به بعد ، ولكنه يحرس دمه ، بكل ما امتلك من مال وهيبة ونفوذ فى قريش . ومهما يكن من فشله مع محمد فى الطائف ، فهو قادر دائما على أن يحميه فى مكة .. وهو من أجل ذلك يخرج معه الى لقاء سرى مع وفد يثرب على تل العقبة ، ليستوثق أن أهل يثرب جادون وأنهم لن يتخلوا عنه مهما يصيبهم ..

ويقول لهم العباس مشفقا على مستقبل ابن اخيه : « ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه .. ولكنه أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعـــوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم فى ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فدعوه من الان ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده »

وأكد أهل يثرب أنهم مانعوه وأنهم وافون بما دعوه اليه .. وأنهم ليحاربون من عاداه ، وما جاءوا فى الحق الا ليستعجلوه فى الخروج اليهم ، بعد ما خرج صحبه ، ونزلوا منهم فى يثرب منزلا كريما ..

وبدأ محمد يستعد للرحلة .. لقد رحل كل صحبه منذ الصيف . والخريف يقبل الان على مكة بأنسامه الرطيبة والتجار يستعدون لرحلة الشتاء .. ومنهم من يذهب الى محمد فى بيته ليودع عنده ما يخاف عليه ، كما تعـــود التجار دائما أن يصنعوا معه .. فهو على الرغم من كل شىء ما يزال فيهم هو الامين ..

ولم يشأ محمد أن يرد التجار الذين تعودوا أن يلجأوا

اليه فى كل موسم حتى لا ينير أثريب •• ومن يدرى ؟ فربما عادت رحلة الشتاء قبـــل أن يلحق هو بصحبه وأنصاره فى يثرب ؟ •• ولكن سادة قريش كانوا فى قلق مما يحمله اليهم الغد •• فلقد هاجر كل أصـحاب محمد منذ الصيف •• وصفى التجار منهم حسـابهم ، وحملوا أموالا طائلة الى يثرب • وقد احدث سحب كل هذا المال ، هزة فى ميزان الحياة التجارية القرشية • لقد حمل كل هذا الغنى الى يثرب لتستعلى بتجارتها بعد على مكة ••

وهكذا يؤلف محمد شيعة من الاغنياء فى بلد منافس، ويصيب هناك المنعة •• ومن يدرى ، فربما هدد تجارتهم وطرق قوافلهم فيما بعد •• وربما أصبحت يثرب هذه هى كعبة التجار العرب ، فدالت دولة قريش ! ••

واجتمع فى الكعبة سادة قريش جميعا فاجمعوا أمرهم: أن يتخلصوا من محمد • ووافقوا على ما اقترحه أبو جهل : « أن نأخذ من كل قبيلة شابا جليدا نسيبا فينــا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالدية ، فدفعناها لهم »

وبلغ محمدا ما تآمروا به عليه ، فخف من فوره الى صديقه أبى بكر وقت الظهيرة فى ساعة لم يكن قد تعود أن يزور فيها أحدا • ودخل فوجد أبا بكر بين ابنتيــه اسماء وعائشة • وقال أبو بكر مترفقا : « انما هم أهلك » •• غير أن محمد حرص على ألا يسمع أحد أيا ما يكن ما سيفضى به الى أبى بكر •• حتى عائشة التى عقد عليها وسيدخل بها بعد قليل ! •• وخرجت عائشة وأسماء ،

وخلا محمد الى أبى بكر فروى له كل ما بلغه .. واقترح عليه أن يهاجرا الليلة ..

والتزم أبو بكر بترتيب أمر الهجرة فى سرية كاملة ، ومضى محمد الى بيته ، فطلب من على بن أبى طالب ، أن ينام الليلة فى فراشه .. ثم سلمه الودائع التى تركها التجار عنده وكلفه أن يبقى بمكة حتى يسلم الودائع الى أهلها ، ثم يلحق به الى يثرب . أما أبو بكر فقد أعد راحلتين ، وخادما يثق به ، ولبث ينتظر صديقه اذا جاء الليل ..

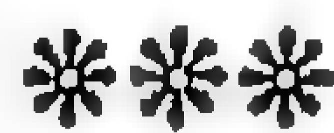
وجاء الليل على مكة ، فتسلل الشباب الذين اختارهم السادة لقتل محمد وبعدوا عن الحرم حتى لا يثيروا شبهة احد من عشيرة محمد .. ثم دلفوا فى دروب كثيرة ليعودوا مرة اخرى الى جوار الحرم ، حيث يقع بيت محمد الذى ورثه عن خديجة . ووقفوا يحرسون الباب وينتظرون .. فسيخرج محمد الآن بلا ريب ، ليصلى فى رحاب الكعبة كما تعود أن يصنع دائما بعد كل غروب . سيسلك الزقاق الضيق ، حتى ينتهى الى المسجد . وسينقضون عليه فى الزقاق الخالى . وينتهى كل شىء ..

ولكن محمدا لم يخرج ..

وجاء بعض السادة المتآمرين ليروا . فوجدوا الشباب يتربصون بسيوفهم ، وبيت محمد محكم الاغلاق .. ليس وراء بابه المغلق حركة ..

كان على بن أبى طالب يعرف الدور الذى ينهض به : ولقد استلقى فى فراش ابن عمه وجر عليه بردته .. وفى حجرة أخرى من حجرات البيت اضطجعت سودة الزوجة

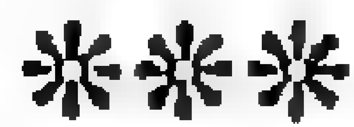
الجديدة التى لم يستطع محمد أبدا أن يحملها الى فراش زوجته الراحلة خديجة . وفى الحجرة الثالثة من الحجرات الاربع ، جلست فاطمة وفى صدرها قلق مبهم .. لم تكن تعرف شيئا على الاطلاق ، ولكنها لم تستطع أن تنام .. وكانت أختها الكبرى أم كلثوم هى الاخرى تشعر بمثل هذا القلق .. وقد أخذت تسير من حجرتها التى تعودت أن تنام فيها مع أختها فاطمة الى الحجرة التى تعود أبوها أن يخلو فيها الى نفسه أو يلقى فيها ضيفه .. ولحقت بهـا فاطمة ، فوقفت الاختان فى بهو الدار : نبضات القلب تقرع الصمت .. وكل شىء ساكن فى الليل الداجى !



أى شىء غامض يحدث الآن ؟ . لقد ذهب ابوهما وطلب منهما ألا يسألاه عن شىء ، فسيفسر لهما « على » من غده كل شىء . وطال الانتظار بالذين يتربصــون خارج البيت ، ويئسوا من خروج محمد ، فاقترح واحد منهم أن يدخلوا الدار ، فيقتلوا محمدا فى فراشه .. ودفعوا باب الدار ، وهم بعضهم بأن يتسلق الجدار الخارجى المنخفض ، ولكن صرخات الفزع انطلقت من داخل الدار ، فجمــدوا فى أماكنهم .. ربما سمع أحد من عشيرة محمد هذه الصرخات المستنجدة ، فأقبلوا مسرعين فلا يتمكن المتآمرون من تنفيذ ما اتفقوا عليه . وابتعدوا عن الباب والجدران .. وقال واحد منهم والخجل يجلل صوته : « انها لسبة فى العرب أن يقول الناس عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا »

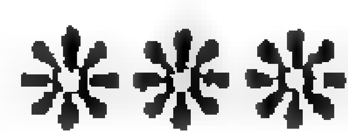
وقرروا أن ينتظروا حتى الصباح ، فسيفتح محمد باب بيته ليخرج الى الصلاة عند الفجر . ولكن الفجر اقبل ،

ولم يخرج محمد . وبدأت شمس الصباح من ذلك الخريف تلقى بأشعتها على الدرب الضيق .. ففتح باب البيت ، واقتحم المتآمرون الى الداخل فوجدوا عليا .. هو الذى يرقد فى الفراش الآن ..



أين محمد اذن ؟ .. كيف خرج ؟.. والى اين مضى؟.. أيكون قد تسلل من كوة فى ظهر بيته .. ؟ أيكون قد عبر من سطح الى سطح حتى هبط بيت ابى بكر .. ؟ وكيف عرف ما أعدوا له ؟ .. أيكون أحد الذين اتفقوا بالمسجد قد رق لمحمد فأبلغه ؟ .. ربما كان البخترى هو الذى ذهب الى العباس فحذره ، والبخترى صديق للعباس ، وهو الذى نقض الصحيفة يوم وقعتها قريش وقاطعت بنى عبد مناف !

ان محمدا لمختبىء فى دار أبى بكر بلا ريب .. فليلحقوا به هناك ، فيقتلوهما معا .. ومضوا يتدافعون الى دار ابى بكر ، وشمس الخريف تغمر طرقات مكة .. كانوا متعبين من السهر ، مجانين من الغيظ ! . تقدمهم ابو جهل، فقرعوا باب دار أبى بكر .. وخرجت لهم اسماء فسألوها : «أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ » .. فقالت لهم : « ما ادرى أين أبى » .. فلطمها ابو جهل على خدها لطمة عنيفة طرحت منها قرطها . وانصرف .. وانصرفوا وراءه ..



لابد من محمد قبل أن يلحق هو وصاحبه أبو بكر ، بأهل يثرب .. ومضوا ارتالا الى خارج مكة يفتشون فى الطريق الى يثرب عن أثر محمد وصاحبه .. ويسألون الناس أى طريق سلكا . أما محمد ، فقد خرج به أبو بكر من فجوة في ظهر داره ..

تجنبا الباب والطرقات المألوفة .. وأسرعا وحدهما تحت جنح الليل ، حتى خرجا من مكة ، حيث كان ينتظرهما خادم لابى بكر بناقتين ، ودليل أمين خبير بالطرق المهجورة وبمسالك الصحراء .. لكم يخشى ابو بكر أن تهتدى قريش اليهما . وما أكثر ما تملك قريش من رجال خبراء بالصحراء يعرفون مسالكها والطرق المهجورة فيها ..

ماذا يحدث اذن لو أنهم عثروا عليهما ؟ سيقتلونهما!. سيقتلونه وسيقتلون صاحبه محمدا .. أما هو ، فانه لرجل واحد يموت ، ولكنهم ان قتلوا محمدا فسيقتلون أمة كاملة .. سيقتلون مستقبلا بأسره . وأفضى أبو بكر الى محمد بمخاوفه وعيونه تدمع ، فربت محمد على كتفه وسأله ألا يحزن ....

ورأى محمد ان يختفيا فى بعض الكهوف حتى تخف حدة قريش في البحث عنهما .. وتيأس من العثورعليهما. ولجأ الى كهف قريب ، ودخل ابو بكر أولا ليتحسس لنفسه ولمحمد . فمن يدرى ؟ قد ينجوان من سادة قريش فيتلقفهما وحش أو أفعى فى هذا الكهف ..

وحين أطمأن أبو بكر الى سلامة الكهف أخذ بيد صديقه ودخلا .. كم من الايام سيقيمان فى هذا الغار ؟ لا أحد يدرى بعد .. يجب أن يظلا هنا حتى تيأس قريش من البحث عنهما ..

وأمر ابو بكر خادمه ان يعود الى ابنه عبد الله فليتحسس من أخبار قريش بعدهما فيوافيهما بالاخبار كلما هبط الليل ، وليرتب لهما أمر الطعام ..

وتعود عبد الله بن أبى بكر ان يوافيهما بأخبار

مطارديهما ، وتعودت أسماء بنت أبى بكر ان تحمل الطعام اليهما فى الغار وتجعل من نطاقها مائدة لهما

وظلوا ثلاثة أيام على هذه الحال حتى اذا يئست قريش من العثور عليهما فى كل الدروب والطرق الخفية المؤدية الى يثرب ، خرجا معا ، الى الفضاء العريض يخوضان معا فى الصحراء المترامية ، الى المصير الغامض ...

لكم يشفق ابو بكر على صديقه من هذه الرحلة ... انها حقا لرحلة المصير !

وان فيما يعرفه من الاخبار القديمة ، لمآسى تمزق الاكباد ..

فكم من المبشرين الاوائل أوشكوا ان ينجحوا ،وعندما امتدت ايديهم لتمسك بالحقيقة التى نشدوها طويلا ، هبط فجأة سيف غاشم بتار ، ليقطع منهم اطراف البنان . أيمكن بعد هذه التضحيات أيضا أن تسقط راس محمد ، وان يحملها الى آلهة الكعبة ، فرسان قريش ... ؟ ولكن لا ... فمحمد شيء آخر ..

وطالت الرحلة عبر دروب خفية صعبة .. والدليل صابر يخوض الرمال ، وكلما دنا من يثرب ، شعر بانه سيسلك طريقا مألوفا ، فعدل الى طريق آخر شاق مستخفيا وراء الصخور الشاهقة ..

وانهم لعلى مقربة من يثرب ، اذ بفرسان من قريش يظهرون فجأة على قمة صخرة بعيدة . وفرح قائد الفرسان ، واندفع بحصانه الى محمد ، عبر صخور جرداء وعرة منحدرة الى الاخدود .. ولكن الحصان تعثر به وأوشك ان يطرحه على الصخور فيدق عنقه ..

وتشاءم قائد الفرسان .. فعاد من فوره دون أن يخبر أحداً ممن كانوا معه بما رأى !

واخيرا دخل محمد وابو بكر ومعهما الدليل الى مناطق الحلفاء .. من هذه الخيام التى تنتشر خارج يثرب جاء رجال الى مكة ذات يوم فبايعوه

وخرجوا اليه متهللين وطالبـــوه ان ينزل عندهـــم وسيمنعونه كأهل يثرب .. ولكنه شكر لهم حســـن استقبالهم وسألهم أن يتركوه ليصـــل الى يثرب، حيث ينتظره الانصار من أهلها وصحبه المهاجرون .. فليتركوا ناقته تنخ حيث تشاء فانها المأمورة

ولاحت له يثرب ، بنخيلها وأعنابهـــا وحقولهـا الخضراء وحدائق الليمون والزيتون .. وتقدم وفـــود من رجالها ومن صحبه يستقبلونه ، ودخل يثرب وسط الترحيب كأنما هو فاتح مظفر ، لا غريب مهاجر يلتمس الملجأ والعون والانصار ! ..

ويثرب مدينة كبيرة نزح اليها اليهود منذ قـــرون ، فأقاموا بها ، يزرعون الارض الخصبة التى تسقيهـــا جداول كثيرة تنحدر من الجبال .. هى واحة ضخمة تجود فيها الارض بكثير من الثمرات ، وقد اختلط اليهود عبر السنين بسكانها العرب ومنهم من أنشأ فى يثرب معاصر للخمور ومراعى للخنازير وبيوتا للهو ! .. وكان يهود يثرب ينقسمون الى ثلاث عشائر : بنى قينقـــاع وبنى قريظة ، وبنى النضـــير .. أما بنو قينقـــاع فاستقلوا بحى فى يثرب هو حى الصاغة . وفى حى الصاغة هذا ، يتكرس ما تملكه يثرب من الذهب ، وتقع المصارف التى تقرض بالربا .. وكان كبار التجار من

الجزيرة كلها يلجأون الى هذا الحى ليقترضوا عندما يحتاجون ..

وكانت قبيلة بنى قينقاع هذه تملك معظم رءوس المال التى توظف فى صناعة الاسلحة وغيرها من الصناعات وفى تمويل القوافل ، وفى تجارة الذهب .. وقد وجد بنو قينقاع هذا الاسلوب من الاستغلال اكثر ربحا من استغلال الارض ..

أما اليهود الاخرون من بنى النضير وبنى قريظة ، فقد كانوا يقدرون الجاه الذى يمنحه امتلاك الارض فى بلد يعتمد معظم اقتصاده على الزراعة .. ولهذا آثروا أن يختلطوا بالاوس والخزرج ، وأن يخرجوا من أحيائهم المستقلة ، وأن يوظفوا أموالهم فى الزراعة ، فامتلكوا الحدائق الواسعة ... وكثيرا من الحقول والمراعى ..

وكان بقية سكان يثرب يشتغلون بالزراعة .. السادة من الأوس والخزرج يملكون ، والاجراء يعملون جنبا الى جنب مع عبيد الارض ..

هنا مجتمع آخر .. أكثر تقدما من مجتمع مكة . هنا علاقات اجتماعية اخرى ، اكثر قابلية للخضوع لتعاليم محمد .. فالمرابى اليهودى لم يكن يستطيع ان يستعبد دائنه العربى اذا عجز عن الوفاء كما كان يحدث فى مكة .. بين الدائن والمدين .. وهو لم يكن له الحق فى اخذ فتاة المدين أو امرأته ليكرهها على البغاء استيفاء لدينه ، كما كان يحدث فى قريش ..

والاجير فى الارض ـ مهما يكن حظه ـ كان أعلى درجة من العبد المكى الذى يحرس القوافل والمصارف .. كان يستطيع ان يختار من يبيعهم عرقه على أية حال ، على عكس العبد المكى الذى كان يرسف فى قيود

التبعية الى الابد . وحتى عبيد الارض فى يثرب ، كانوا يلتصقون بالارض نفسها وينتقلون معهـــا من مالك الى مالك ، ولم يكن المالك يملك حياة العبد ، كمـــا كان فى مكة ، فالزراعة فى حاجة دائما الى الايدى العاملة .. وانما كان يملك عمله ..

يثرب شيء آخر يختلف تماما عن مكة .. فســكانها عدد متفرق من القبائل لا يجمعون على دين واحـد وهم لم يرثوا مكانا كالكعبة ، يستعلون به على العرب ويثرون مما تقدم الى أصنامها من هدايا ومما يقـــام تشرفا بها من أسواق وما فى يثرب كلها عشيرتان تجتمعان على شيء واحد .. حتى اليهود ، لكل عشـــيرة منهم مذهب ولهم فيما بينهم خلاف على تفاصيل ما يؤمنـــون به .. والتنافس على الثروة فيما بينهم يؤجج العداوات ..

والعرب من الاوس والخزرج ايضا تنشب بينهم نفس الخلافات على نفس الاشياء ، وميزان الحياة يضـطرب فى كل عام يتحالف هذا القبيل مع ذلك ضـــد قبيـــل ثالث .. ثم ينقض الحلف ، ويتخاصم الحلفاء ويتحالف الاعداء ، وهكذا .. دورة مستمرة لا تنقضى من الخصام والتنافس ولكل معشر حاكم خاص ..

وقد أوشك أهل يثرب جميعا ان يتفقوا للمرة الاولى على اختيار حاكم واحد هو عبد الله بن ابى بن سلول .. وبدأ هو يستعد ويهيىء جبينه لاستقبال التاج حتى كان التقاء اليثربيين بمحمد ، ثم وصول المهاجرين اليهم .. ومن ورائهم محمد ، فتوقف كل شيء ، وأسرها بن أبى فى نفسه

وفى هذا الخضم المتموج الزاخر بالخصومات اقبـــل محمد يحمل الى كل أهل يثرب نداء بالحب ، والاخـاء ،

والعدل . وما هى الا ايام حتى اقبل على بن أبى طالب ، واهل محمد وأبى بكر ..

ولم يكد محمد يضع قدميه فى أرض يثرب بعد رحلته الطويلة المضنية حتى اعلن أنه سيبنى مسجدا .. سيكون مسجدا ضخما رائعا كالذى يقوم حول الكعبة ..

وطلب محمد من كل المهاجرين والانصار أن يعملوا فى بناء المسجد .. وتقدم محمد يعمل بنفسه .. واقبل الشباب من المهاجرين على العمل بحماسة يقودهم على ابن أبى طالب وعمار بن ياسر . وتحرج بعض الاغنياء من العمل ، ولكنهم راوا محمدا يعمل فاقبلوا متباطئين ثقالا كارهين ، وحاول محمد ان يلقى فى قلوبهم احترام العمل اليدوى ، بلا جدوى .. حاول ان يقنعهم ان الثقافة والبراعة فى التجارة ، وأى عمل عقلى آخر لا يفضل العمل اليدوى ابدا ، فلكل عمل شرفه ..

واراد على بن أبى طالب ان يبث الحماسة فى قلوبهم ، فانشد رجزا اثناء العمل ردده وراءه الاخرون . وارتفعت جدران المسجد على نشيد العمل .. ومضى عمار ابن ياسر يستحث بعض المتخلفين ، فانشد هذا الرجز امام جماعة منهم فيهم عثمان بن عفان ، فسخروا منه ولكن عمار ظل يستحثهم ، واذ ذاك برز له عثمان ..

وعثمان اذ ذاك هو زوج رقية بنت محمد ، وهو من أوائل الذين اتبعوه ومن أقرب صحبه اليه .. وهو فوق كل ذلك تاجر من سادات مكة واسع الغنى ، ولقد ضحى بتجارته بمكة وضحى بالكثير وهاجر وحمل معه أمواله الطائلة ليساند بها محمدا فى مهجره ..

كبر على عثمان بن عفان ان يستحثه عمار ، ابن سمية التى كانت صاحبة ابى جهل قبل أن تسلم ، والتى طعنها

ابو جهل بحربته فى عورتها حتى ماتت

وانقض عثمان بن عفان يهدد عمار بن ياسر بأن يضربه بعصاه على أنفه : لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية .. والله انى لاراني ساعرض هذه العصا على أنفك وسمع محمد بما كان بين عثمان وعمار .. لماذا يستعلى ابن عفان على ابن سمية الآن اذن ؟ .. بم يفضله ؟ .. أبماله ، أم بزواجه من رقية .. أم بمكانته فى قريش ؟! . ان عمارا ليتبع التعاليم كما يتبعها عثمان ، ولقد ضحى في سبيلها باكثر مما ضحى عثمان ، وانه اليوم لافضل منه لانه يعمل بيديه ويبذل عرقه لكى يقيم مسجدا

لن يصبر محمد على بقاء هذا الصلف فى نفوس رجاله ... انهم ليبرزون معا يتحدون الخطر لبناء حياة جديدة ، ومن المحتم ان يحمل كل رجل منهم نفس الاحترام لاخيه . لايجب ان يشعر واحد منهم انه يفضل أخاه .. الا بعمله .. ومضى محمد يعنف عثمان ابن عفان والذين معه .. واتهمهم بانهم بعدوانهم على عمار يسلكون سلوك الفئة الباغية ! .. ولم يجدوا ما يجيبون به محمدا ، ومضوا يسترضون ابن سمية ... ويقبلون على العمل بأيديهم الناعمة ..

وانتهى بناء المسجد فى أيام قلائل .. فأقبل رجال من أهل يثرب يعلنون محمدا انهم سيسمون يثرب باسم « المدينة » . فهى مدينة محمد .. وتهيأ محمد لعقد اجتماعاته فى المسجد ، مقبلا على عهد جديد حافل فى المدينة .. وقد اطمأنت نفسه الى المصير ، وأخذ يعدهم بأنهم سيقهرون مكة بصلفها وفسادها .. وشرع يتلو عليهم « وكأين من قرية هى اشد قوة من قريتك التى اخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » ..

نحو المعركة

أصبح المسجد الجديد ناديا يتعلم فيه المهاجرون والانصار قواعد السلوك فيما بينهم ، وأصول التعامل مع الحياة فى ظل التعاليم الجديدة .. فاذا جاء الليل تحول هذا المسجد الى فندق يبيت فيه فقراء المهاجرين الذين لم يجدوا المأوى بعد . كان كل رجل من الانصار يستضيف الى داره أسرة من المهاجرين ، ولكن دور الانصار لم تتسع لكل من هاجر ، فاذن محمد لمن لم يجد دارا تأويه ان يتخذ من المسجد دارا له . وتعود الانصار أن يقاسموا المهاجرين طعامهم ..

ولقد آخى محمد بينهم .. عقد عهد الاخوة بين هذا النصير وذاك المهاجر : ان يحبه كأخيه ، وان يمنعه مما يمنع منه نفسه ، وان يطعمه ويقاسمه حلو الحياة ومرها ..

وارتفعت الهمهمة من قبائل اليهود ، ان محمدا قد جاء بعدد من الرجال والنساء لا يعلمون شيئا ، وانما يثقلون على أهل البلد ، ويقاسمونهم الطعام والرزق بلا مقابل . وحث محمد رجال المهاجرين على العمل .. وفى الحق انهم جميعا كانوا لا يعرفون كيف يكسبون القوت فى يثرب .. الا من الزراعة غالبا ..

وأهل مكة لا عهد لهم بالزراعة .. ولكنهم اخذوا يتعلمون كيف يمسكون الفأس ويضربون بها الارض ويلقون البذر ويستنبتون الحقول ويجرون فيها الماء ..

ووجــدوا من فلاحى يثرب عونا كبيرا .. كانت الحقول خصيبة تتسع لكثير من الايدى العاملة الجديدة ، لتعطى أضعاف ما كانت تعطى ..

أما محمــد فلم يقم من نفسه ملكا على يثرب كما اراد له المتحمسون من أنصاره ، ولم يعف نفسه من العمل.. ولكنه خرج بنفسه ليتعلم الزراعة بعــد ان جاوز الثالثة والخمسين ، وهى مهنة جديدة غريبة عليه . وطلب محمد من النساء ان يعملن - أيضـــا - كما يعمل الرجال .. فخرج كثير منهن .. حتى اللواتى تعودن ان يعشن فى مكة من قبل ، ناعمات مستغنيات وراء جدران بيوتهن الحافلة بالغنى ..

وكان محمد وهو يعمل فى الحقول بين الرجال والنساء، يوصى الرجال دائما ان يخففوا عن النساء عبء العمل .. ولقد شاهد أسماء بنت ابى بكر ، تعمل وتثقل رأسها بما تحمله أثناء العمل فى الحقل .. وكان هو عائدا على دابته فطلب منها أن تركب خلفه أوأن ينزل لها عن دابته ،ولكنها استحيت وأبت .. وعندما حكت لزوجها الذى يغار عليها من كل الناس ، أبدى ضيقه بانها تقوم بأعمـــال شاقة فى الحقول .. وأكد لها ان هذا هو ما يزعجه ، لا ان تركب خلف محمد ..

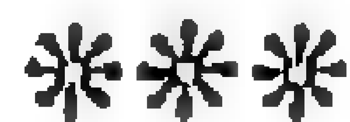
مابال بنت أبى بكر تعمل بيديها وابوها تاجر واســع الغنى ، ولقد حمــل معه الى يثرب اربعين الفا من العملة المكية ، ولكن كل مهاجر قادر على العمـــل مطالب ان يكسب عيشه بيديه لكيلا يكون عالة على الانصار ..

على ان المساحة المزروعة من حقـــول يثرب لم تكن لتكفى كل هذا العدد ، فطالب محمد صحبه الاغنيـــاء الذين هاجروا بأموالهم ، أن يشتروا الارض القابلة للزرع

فيستصلحوها ، لتنبج من الثمرات مايقيم ميزان الحياة الاقتصادية بعد تدفق عدد كبير من المهاجرين ..

وهكذا وجد عدد آخر من المهاجرين عملا فى الحقول الجديدة ، وسالت الاموال تنعش السوق والحياة الاقتصادية فى يثرب . وكان من بين المهاجرين عدد كبير من التجار الحاذقين الاغنياء .. فاندفعوا يستثمرون اموالهم لا فى الارض وحدها بل فى التجارة ايضا ..

اما ابو بكر فقد وضع الاربعين الفا التى هاجر بها تحت تصرف محمد ، ليوزعها على الذين لم تتح لهم فرصة العمل ، وعلى غير القادرين . وحث محمد اصحابه ان يصنعوا كما صنع ابو بكر .. ان يضعوا جزءا من اموالهم لمحاربة البطالة ، والعجز .. وعار عليهم ان يجوع بينهم اخ مسلم أو يشكو الحاجة او القلق . وقدم عمر بن الخطاب نصف ثروته ، وقدم آخرون ما جادت به النفس . واندفع الاغنياء من المهاجرين والانصار يرفعون اخوتهم المسلمين الى مستواهم فى المعيشة .. فما يليق ان يلبس واحد منهم ، الخز ، واخوه المسلم فى ثياب مهلهلة . وما يليق ان يأكل واحد منهم اللحم والثريد ، ومن المسلمين من لا يجد غير التمر ..



وهكذا تقاربت المستويات ، فى يثرب .. لا جوع ولا عرى ، الكل يعمل ويأكل ، والذين لا يستطيعون العمل ، يجدون حقوقهم المعلومة فى اموال اخوتهم المسلمين القادرين . وشعر أغنياء يثرب ممن لم يدخلوا فى الدين الجديد ، ان ثمة طبقة من الاغنياء تنافسهم على الثروة ، وتفسد عليهم أسلوب العلاقات مع الآخرين .. ان الاسلوب الجديد فى العلاقات بين الاغنياء والفقراء ليشكل خطرا مباشرا عليهم

.. ايجب على كل الاغنياء اذن ان يطعموا الفقراء ممـــا يطعمون ويكسوهم مما يلبســـون .. ؟ أجاء الزمن الذى يعيش فيه الاجراء كما يعيش الملاك .. ؟ فأين اذن هو الامتياز الذى يمنحه الغنى .. ؟ ايعطى العمل للاجير حقا مثل المالك الذى يستأجره ؟ .. انه لانقلاب فى كل القيم والموازين .. ولابد من وقف هذا الطوفان قبل ان يقتحم بالثورة على الملاك الاغنياء ! .. وكان معظم هؤلاء الاغنياء من اليهود .. فقددخل العرب جميعا من خزرجهم وأوسهم تحت راية الدعوة الجديدة ..

وتناجى اغنياء يهود ، ومعهم عبد الله بن أبى بن سلول الذى حلم طويلا بتاج يثرب ، فحرمه مقدم محمد تاجه ، وكل ماتهبه السلطة من هيبة وجاه .. ولكن ما الحيلة ؟ ما دام الاغنياء قد قبلوا أن ينزلوا من عليائهم ليعطوا الفقراء فان الفقراء سيحاربون حتى الرمق الاخير دفاعاعماحصلوا عليه .. سيحارب الفقراء جميعا من المهاجرين ومن أهل يثرب ، وسيحارب الاغنياء من أتباعه أيضا .. فقد ادخل فى روعهم أنهم لا يملكون ما اكتسبوه من مال وانما هـو ملك للقضية التى يدافع هو عنها . وكان محمد يعـرف ما يتناجى به أغنياء اليهود ، وعبد الله بن أبى سلول وشيعته من سراة يثرب ..

***

ورأى محمد الا يبـــادرهم بالعداء ، فهـــو فى موقف شديد .. انه لفى حاجة الى أن يتألف قلوب أهل المدينة جميعا ، ولقد نجح فى عقد الصلح بين الاوس والخزرج ، وتصافوا الى حبة القلب فأصبحوا الآن كأن لم يكن بينهم من قبل دم ولاثارات .. وهو يشعر أن من واجبه أن يجمع كلمة أهل المدينة التى نزل بها لاجئا مستنصرا ، ليستطيع

أن يواجه قريشا عندما تطارده .. فلو أن قريشا هاجمته ـ وفى القاعدة التى يطمئن اليها ثغرات ـ لاقتحمت عليه قريش من هذه الثغرات ..

***

ان اغنياء اليهود ، ما زالوا هم سادة الحياة الاقتصادية فى يثرب ، فلديهم المصارف وصناعة الذهب .. وعبدالله ابن أبى ، وشيعته سادة فى قومهم ، لهم نفوذ .. وانهم ليبكون على ما فاتهم من الملك منذ اقبل محمد .. ومحمد يقدر هذا الضعف ويرحمه .. فليحاول أن يطب له ..

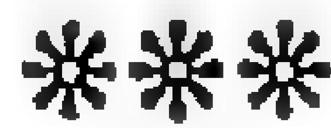
ودعا الناس جميعا الى المسجد ، فحضهم على الوحدة والتعاطف .. ثم انه اقترح أن تكتب صحيفة يتفق فيها الجميع على أن يتحابوا وعلى أن يكونوا فيما بينهم صادقين، وعلى أن يكونوا امة واحدة من دون الناس ، وان يعطوا المحتاجين ، وان يرعوا حق الجار والا يجيروا قريشا ولا من نصرها ، وانه لا بغى ولا عدوان ولا اثم ، فمن قتل يقتل، ومن جرح غيره أو آذاه جوزى بمثل ما صنع . وأن اليهود والمسلمين حلفاء .. ان اختار اليهود الاسلام فهو خير ، وان بقوا على دينهم ، فلهم اموالهم ومعابدهم آمنين عليها، ولكن عليهم جميعا أن يحاربوا من يهاجم يثرب ، وأن ينفقوا من أموالهم على الحرب ..

ووقع المجتمعون من اليهود والانصار والمهاجرين هذه الصحيفة ، وتعاهدوا على أن ينزلوا العقاب بمن يخرج عليها . ومضى محمد يلاطف اليهود ويترفق بهم على كره من بعض اهل المدينة الذين تعودوا ان يعاملوا اليهود بطريقة مختلفة .. على انه استطاع ان يقنع من كره هذا الاسلوب بأن ما جاء به : انما هو الاخاء والرحمة . واطمأن به المقام، ورأى أن الحائط الذى يستند اليه الآن قد أصبح بلا ثغرات ..

ولكن حياته فى البيت كانت مضنية حقا .. فهو يعيش مع امرأة لا يحمل لها غير الاشفاق والعطف ، وقد ارتفعت بها السن ولم تعد صالحة لتدبير حياته فى البيت. وكانت عائشة قد بلغت الآن مبلغ الانثى ، أنضجتها شمس يثرب. وحدثه أبو بكر ان يأخذها الآن ، فقد شب جسدها ونضج حتى اصبحت كالنساء وان كانت ما تزال طفلة ترتع وتلعب مع الصغيرات ..

واتفق أبوها وزوجها على أن تحمل الى بيت الزوجية، فذهب اليها بعض النساء فجذبنها من على الارجوحة فغسلن وجهها من التراب وحملنها الى بيت الزوج .. وهى ما زالت تنهج من كثرة الجري أثناء اللعب . وسكن محمد الى عائشة ، وأمر ابنته فاطمة أن تحتفى بها وتتودد اليها ..

وتقدم عمر بن الخطاب يخطب فاطمة .. كانت قد جاوزت السادسة عشرة جميلة ملحوظه الجمال فاعتذر محمد ، وتقدم ابو بكر فاعتذر أيضا . وتقدم عدد من فتيان الانصار والمهاجرين ، وقد خشى محمد أن يعطيها لواحد من الانصار دون الآخر فيغضب .. وتغضب لهعشيرته.. أو أن يؤثر بها أحدا من شباب المهاجرين فيغضب الآخرون، من مهاجرين وأنصار .. وكان كل منهم يمنى نفسه بها ، وأبوها محمد يخشى أن يستعلى أحد على صحبه بالزواج من فاطمة ..

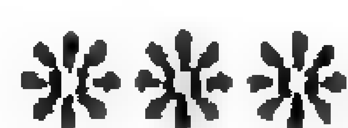


انه ليريد أن يؤكد فى كل القلوب دائما ان القربى منه ليست سببا للاستعلاء ، وأن الانسان بعمله .. حتى لقد عنف عثمان بن عفان ، صديقه وزوج ابنته رقية لانه أغلظ لعمار بن ياسر .. ابن سمية . ومضى محمد يستشير صاحبه أبا بكر ، وعرض عليه أسماء الذين تقدموا الى خطبة

فاطمة .. كلهم فتيان بواسل ليس فى أحدهم ما يعاب .. فقال ابو بكر : « اين انت من على بن ابى طالب .. ؟» فقال محمد : « انى لاكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه » . وكان على فى الثانية والعشرين .. ولكن ابا بكر قال : « متى رعته عينك حفت بهما البركة واسبغت عليهما النعمة » .. وما زال به حتى أقنعه . وخطبت فاطمة لعلى

ولكن عليا لم يكن يملك بيتا ليتزوج فيه . فسألت فاطمة اباها ان يمنحها بيتا .. فزجرها ، وتقدم رجل غنى من الانصار يهب الزوجين الشابين بيتا صغيرا له من بين عدة بيوت يملكها . وتمنع على وفاطمة ولكن الرجل اقسم الا يدخل هذا البيت ابدا . وظل يلح فى هبته حتى اذن محمد لعلى وفاطمة ان يقبلا بيت الرجل بيعا وشراء لا هبة .. وشرع الفتيان والفتيات من المهاجرين يتزاوجون مع الفتيات والفتيان من الانصار ..

واستقرت الحياة الجديدة بالمهاجرين .. وقد وجدوا العمل والرزق وزوجات يسكنون اليهن .. ولكنهم لم ينسوا مكة ابدا ..



حتى محمد نفسه لم يستطع ان ينسى مكة .. كان دائما يذكرها ، وان له هناك تحت التراب لاعزاء . وله فيها كل ذكرياته .. لكم اضطرمت به الاحلام هناك ، وكم شهد من العذاب والضنى ، ومع ذلك فما من بلد احب اليه من مكة . وزاره مهاجر اقبل حديثا من مكة .. فسألته عائشة : « كيف تركت مكة ؟ » ومضى الرجل يصف مكة من بعدهم ، وصوته يرتجف بالاسى على فراقها .. وصف بيوتها ورمضاءها وشوارعها وزحام الناس فى أسواقها والزهرات البرية المتضوعة العبير فى شعابها .. وفاض

الحنين بمحمد حتى لقد سال دمعه فقال للرجل « لا تثر أشواقنا .. دع القلوب تستقر » . وفى الحق أن كل صحابه المهاجرين كانوا يلقون من يوم الى يوم رجلا يحرك منهم القلب ، ويثير فيهم الشوق والحنين .. ولقد تمنوا جميعا أن يأتى يوم تفتح فيه مكة أبوابها لاستقبالهم ..

ان ما يمنعهم عن مكة لهم فئة من التجار تحكم هناك وتنفيهم عن أرض الذكريات والامل .. والمستقبل ! ... متى اذن يقودهم محمد الغلبة على هذه الفئة الظالمة ليفقوا ما بقى لهم من العمر فى وطنهم ذاك . ولكنهم الآن ما زالوا أقل عددا من أن يحطموا أسوار مكة ، وان منهم رجالا يخشون أن يطالبهم محمد الآن بمثل هذا ، وقد وجدوا هنا الراحة بعد الشقاء ، والكفاية بعد عذاب الحرمان أن منهم لمن يطمئن الان الى حياته الوادعة هنا ..

على أن سادة قريش ما كانوا ليتركوهم وادعين ..

وقد بدأت الرسل تسعى من حكومة قريش الى كبار التجار الاغنياء اليهود فى يثرب تسالهم الحماية حين تمر القوافل فى طريقها الى الشام ، بصحراء يثرب .. فقد كان تجار قريش يخشون ان يوجه اليهم محمد جيشا من الفقراء يغير على هذه القوافل .. وان من بين هؤلاء الذين يخشاهم تجار قريش ، من استولت قريش على أموالهم وتجارتهم عنوة منذ اتبعوه ، ومنهم من صادرت قريش أمواله أو تجارته التى تركها فى قريش ، واشترطت عليه أن ينزل لها عن ممتلكاته لتتركه يهاجر فى سلام..

قريش تخشى أن ينقض هؤلاء جميعا لانتزاع مااغتصب منهم من قبل .. وتسلل رسلها الى اثرياء اليهود ، وخشى أغنياء اليهود أن ينقضوا عهد الصحيفة علانية فيبطش بهم مواطنوهم من الاوس والخزرج ، وينفذ فيهم محمد ما

تضمنته الصحيفة من جزاءات لمن ينقض احكامهــا .. فلجأوا الى اسلوب آخر فى تحطيم وحدة المدينة . اشاعوا ان قريشا فى خوفها من انقضاض المهاجرين على تجارتها، ستقطع الطريق على تجارة المدينة ..

وهكذا يحمل محمد اهل يثرب مالا طاقة لهـم به ، ويعرضهم لعدوان قريش وانصارها .. ويدفع بهم الى كساد فى التجارة . يجلب الازمة والبأساء على الجميع .. حاولوا ان يملأوا الرءوس بهذا التفكير .. ومضوا يثيرون الناس ضد محمد ومن آخاوا معه . بينما كان محمد يجلس فى المسجد يتحدث عن السماحة والحب ويطالب الناس الا يظلموا والا ينكثوا بالعهود وان يؤدوا الامانات ثم ينظر الى بلال معجبا به قائلا له : « انت اول ثمار الحبشة » .. ثم يلتفت فيجد صهيبا الرومى . الذى سعى اليه من اقصى بلاد الروم فيطلق ضحكاته على اجنحة الاحلام قائلا : « وانت يا صهيب اول ثمار الروم » . ويقع بصره على سلمـــان الفارسى الذى اندفع اليه بكل قلقه فى البحث عن الحقيقة عبر فارس . والموصل ، والشام وانطاكية . حتى ينتهى الى يثرب فيدخل فى الاسلام .. فيقول محمد لسلمـــان هذا : « وانت يا سلمان اول ثمار فارس » ..

اليهود تكيد . وتحاول ان تصب الفزع فى النفـــوس . ومحمد جالس بين اتباعه من العرب يبتسم لبلال الحبشى، ولصهيب الرومى وسلمان الفارسى .. حالمـا بأن ترتفـع راية تعاليمه فتظل هذه البلاد جميعا وتجعلها امة واحدة

ثم يأتيه من يحدثه عن رجل باليمامة يحرم الخمـــر ، ويدعو الى الزهد . ويحرم الرجال على النساء بعـد أن ينجبن اول ولد ، ويحض اتباعه على الصدق ..

ورجل آخر فى حضرموت يطوف بحماره يدعو الناس

الى الفضيلة ، كما كان عيسى بن مريم يركب حماره من الجليل الى القدس يدعو الناس الى العدل والحقيقة .. مرحى ! .. فهو القلق الروحى اذن فى كل مكان ! ..

فى هذه البيئة وحدها ينبت المبشرون ، ويستطيع هو ان يجد المؤمنين بها ليخوض بهم المعارك الى مكة يقهـــر المستكبرين من قريش ، ويحرر العرب الآخرين من سلطان الفرس والروم ، ويرفع راية العدل والمساواة حيث يقيم القساوسة والدهاقنة والماهرات ، دولة سوداء تسحق كرامة الانسان . ولكن اغنياء اليهود يكيدون .. والحقد الذى ملأ قلوبهم من الطبقة الجديدة المنافســة لا يهدأ .. انهم يريدون أن يستخلصوا يثرب لانفسهم ، يمارسون فيها سلطان رأس المال على مصائر الاجراء والعبيد ، فليقيموا عبد الله بن ابى سلول ملكا لهم يحكم بما يريدون ، ويضع قواعد للتعامل تخدم الاستثمار فى مواجهة ماجاء به محمد

ومحمد فى المسجد بين صحابه .. يعلمهم ، ويحـــلم بالمستقبل ، واذ بصيحات تاتى من خارج يثرب ..وصراخ بالاستغاثة .. أهى قريش تأخذهم بغتـــة ؟ .. ويراع الناس ، ويضطربون .. ويسرعون الى خارج المسجد . ويتقدم محمد ولكنه يدخل الى بيته الملتصق بالمسجد ، فيمتشق سيفه ويخرج الى الناس ويجد حصانا بلا سرج فيمتطيه ويسرع به الى خارج يثرب وحده ، شاهرا سيفه هاتفا فى الناس : « لن تراعوا .. » وقبل ان يلحق به احد .. كان قد خرج وعاد ، ليقول للناس انه لم يجد غارة ، وانه ما من شىء هنالك يخافونه .. على انه آثر ان يحتاط حتى لا يدهمهم أحد بعد على غرة .. ولكى يقضى على حرب الاعصاب التى يشنهرها اليهود خفية ، قررأن يرسل سرايا من المهاجرين ، تطوف حول المدينة والطرق المؤدية اليها ..

فليطمئن كل من فى المدينة وليأمن ..

ولم يكد يتهيأ لارسال هذه السرايا ، حتى دهم المدينة وباء ، ومرض عدد كبير من المهاجرين .. وقيل فى المدينة ان المهاجرين حملوا معهم هذا الوباء ، فعلى هؤلاء الذين اقبلوا بالوباء أن يعودوا

اما المهاجرون فقد ايقنوا ان الوباء جاءهم من المدينة فكرهوها .. بعد أن اطمأنت حياتهم فيها .. على ان اثرياء الانصار بذلوا من اموالهم ليلتمسـوا الطب للمرضى من المهاجرين . والوباء ينتشر رغم ذلك حتى لم يعد فى المدينة درب او زقاق لا يرقد فى أحد بيوته مريض يهـذى من الحمى .. والحت الحمى على الناس حتى لقد حسـب المهاجرون انها القاضية .. وتمنى بعضهم لو انه عاد الى مكة بدلا من ان يموت غريبا فى يثرب ، ومضى محمد يطوف بهم ويدعو ربه أن يحبب اليهم يثرب كما حبب اليهم مكة

وعندما خفت حدة الوباء بدأ المسجد يعمر برواده .. ولكنهم كانوا منهكين من اثر الحمى .. حتى لم يكن الواحد منهم يقدر على الوقوف . وكان أبو بكر من بـين الذين مرضوا ، واشتدت عليه الحمى حتى لقد كان يهذى .. فأرسل اليه محمد عائشة تخدمه حتى يشفى . ومرضت رقية ، فطلب محمد من زوجها عثمان بن عفان أن يلازمها ..

وعندما انقشع الوباء تماما ، كان قد خلف وراءه كثيرا من الضحايا .. وخلف رقية معتلة نحيلة لا تقـوى على النهوض . وهذا الوباء .. ثم الذعر ايضا !.. هاهم أولاء اعداؤه من اليهود قد عادوا يتحدثون عن غارات وهمية

وكشف عبدالله بن أبى قناعه ، فواجه محمدا اثنـاء طوافه بالمرضى بلهجة منكرة ان يلزم بيته ، والا يأتى الناس فى دورهم بما يكرهون !

وصبر محمد .. فلم يكن يريد ان يثير فتنة فى المدينة ، والناس فيها يتساقطون من أثر الوباء صرعى كالاوراق الجافة .. ولزم محمد داره عدة أيام . ولكن رجالا من يثرب سمعوا ما قاله ابن أبى لمحمد ، فعجلوا اليه ياومونه ويغلظون له ، واقسموا على محمد ان ياتى الناس فى دورهم كما كان يفعل ، فليس أحب الى الناس من أن يلقوه ..

وكان اتباع ابن أبى ، يعاملون بعض المهاجرين بنفس الطريقة : يحرجونهم كلما سنحت الفرصة ، ويحملونهم مسئولية الوباء ، ويمنون عليهم أنهم آووهم واطعموهم .. وانهم يعرضون يثرب الآمنة لغارات قريش وحلفاء قريش

ونصح محمد صحبه أن يصبروا ، ولكن رجالا من الانصار غضبوا لما يحدث وحاولوا أن يضربوا من يتعرض للمهاجرين فنهاهم محمد ، وطلب منهم ان يصفحوا وأن يلقوا الاساءة بالعفو .. فما ينبغى ان تحدث فتنة فى المدينة ، التى يعتبرها مركز انطلاق لدعوته

وهيأ سرية من ثلاثين رجلا ، كلهم من المهاجرين الذين يحسنون ركوب الخيل والضرب بالسيف ، وجعل حمزة سيد الفرسان اميرا عليهم ، وامرهم أن يخرجوا فيطوفوا فى الصحراء خارج يثرب ، فليتحسسوا ان كان أحد يدبر غزوا .. وامر عبيدة بن الحارث وسعد بن أبى وقاص أن يخرجا على راس ثمانين من فرسان المهاجرين ليبحثوا فى طريق آخر ..

ستطوف السرايا منذ اليوم خارج يثرب ، تبحث فى كل الطرق المؤدية اليها ، لترى ان كان هناك من يهددها ، على أن ترجع هذه السرايا بالاخبار دون أن تشتبك فى قتال .. أما سرية عبيدة ، فقد لقيت قافلة عظيمة من قريش ، فهرب من القافلة ثلاثة رجال لحقوا بالمهاجرين

.. واضطرم غيظ عكرمة بن أبى جهل رئيس قافلة قريش فأطلق سهما على سعد بن أبى وقاص ، وضمد سعد جراحه وانتزع السهم دون أن يخوض الحرب .. عليهم الا يخوضوا الحرب الان مهما يلقون ، بهذا أمرهم محمد

وكان سعد أول من رمى السهم من أصحاب محمد .. «سيأتى يوم ترد فيه هذا السهم ياسعد .. فأصبر

وأما حمزة فقد اختار أن يمضى بسريته الى شاطىء البحر الاحمر ، فربما اختارت قريش ان تأتيهم عن طريق الشاطىء .. لكن حمزة لم يعثر بغزاة بل قابل قافلة ضخمة يقودها أبوجهل نفسه ، ومعه ثلاثمائةرجل مسلحون يحرسون القافلة .. هو ذا أبو جهل مرة أخرى يا حمزة ، لكم يغريك منظره بأن تشج رأسه كما صنعت منذ سنوات.

واستفز أبو جهل غضب حمزة مستنصرا برجاله الثلاثمائة فأوشك حمزة أن يخوض غمرات المعركة برجاله الثمانين ضد الثلاثمائة قرشي .. غير أن رجلا حكيما من قبيلة جهينة التى تقع على شاطىء البحر الاحمر ، تدخل فى الموضوع وكان موادعا للفريقين ، وكان حمزة وأبو جهل جميعا يحرصان على الا يغضباه .. وفرق الجهنى بينهما .. ومضى كل فى طريقه .. وعاد حمزة وهو يحس ان الايام القليلة القادمة تحمل فى أطوائها الحرب .. وحكى لمحمد كل ما كان .. وبدأ محمد يستعد للمعركة ..

متاعب جديدة

قال رجال فى المدينة لو انه كان كما يزعم لنا حقا لما مرضت ابنته وصحبه ، ولما فقد بعض اصدقائه ولما دهم مدينته الوباء . ومضوا يتهامسون : ان هو الا ســـــاحر كما قالت عنه قريش ، وقد بطل هنا سحره ! .. وسمع هو ما قاله المرجفون فى المدينة لبعض من اتبعه ليفتنوهم عنه .. ! وادرك ان الشك قد بدأ يغزو قلوب بعض الاتباع .. فلئن كان صادقا فيما جاء به فلماذا لا يقوى بعد على ان ينتشل ابنته رقية من الحمى ، ولماذا لم يستطع ان ينقذ حياة بعض اتباعه الذين سقطوا فى الوباء ! ..

ذهب اليه بعض المؤيدين يستنكرون ما يقال فى المدينة عنه ويواسونه ، واخذوا يطرونه .. فرفع اليهم رأســـه التى اثقلها الفكر ، ليقول لهم فى ضيق : « لا تطرونى » .. وتقدم اليه رجل من الاتباع متحديا المرجفين والمتشككين قائلا : « لماذا لا نطريك وأنت سيدنا جميعا ؟ »

ولكنه نهر الرجل ، وثار عليه ، وعلى الرجل الذى كان يطريه .. ومضى يحذر السامعين ان يمدحوه مرة أخرى ، فيفسد كل شيء اذن .. يجب ان تتنزه علاقاتهم به عن هذا الاطراء . يجب الا يجعلوا له مقاما فوقهم ، يجب الا يقدسوه .. فان هو الا بشر مثلهم يخطىء ويصيب فى شئون الحياة ، فعليهم ان يواجهوه بالرأى الصريح فالامر كله شورى بينهم .. ولئن سكتوا عنـــه ولم ترتفع الا

أصوات الثناء ، فستختنق دعوته الى الحق والخير فى ضجيج الطقوس ، ورنين الاطراء ..

ان هو الابشر ..بشر مثلهم ، لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو غيره المرض أو الموت .. وانه ليبكى مثلهم ويضحك ، ويتعب جسده وينشط .. وينام ويصحو ، وانه ليغضب مثلهم تماما .. وانه ليجوع ويعطش ، ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. ولا يعرف الغيب وما هو بمعجز ، فما البشر بمعجزين .. لكنما فى الصدر منه تتأجج الكلمة المضيئة التى يقتحم بها مجاهل الظلمات ليضيء شعاعها كل طرق الانسان الى الحق والعدل والعافية والصدق والخير

واحتقن وجهه ، وغلى دمه ، ومرض هو نفسه .. فجاء اليه طبيب يعالج المرضى بفصد الدم .. وجرحه الطبيب ليسيل الدم الفاسد منه ، وعندما سال الدم حاول الطبيب أن يلعقه .. ولكن محمدا اشمأز من الطبيب وزجره ، ونظر الى من حوله غاضبا : كل الدم حرام .. حرام .. »

وصح من مرضه ليواجه هذه الحالة الغريبة التى تغشى المدينة : أعداؤه من اليهود وحلفاؤهم من شيعة عبد الله ابن أبى يشككون فيه ، بينما يبالغ أنصاره فى تقديره حتى ليوشكوا أن يحولوه الى اله يتعبدون له . ومضى يؤكد لهم أن ما جاء به ليس هو التقديس لذاته ، ولكنه جاء بالاخاء والمساواة والعدل .. جاء لتحرير القلب من سلطان الكهنوت والاوثان ، وبتحرير الجهد الانسانى من الاستغلال وتحرير الرقاب من النخاسين .. جاء بتحرير الوجدان من الزراية والهوان والخوف ، لتنطلق كل طاقات الانسان تؤكد فوق هذه الارض نبالة المجهود البشرى ..

انه ليطالبهم بالعبادات التى جاء بها .. لكنه يطالبهم أن يثقفوا عقولهم ويغنوها ، أن يتعلموا الكتاب والحكمة .. أن يطلبوا العلم ولو فى بلاد بعيدة لاتؤمن بما يؤمنون به .. ولو فى الصين ! فالعلم وحده هو الذى يشعر الانسان بما له من خطر .. هو الذى يؤكد له أن لا فضل لاحد على الآخر الا بالمعرفة التى يزخر بها القلب .. هو الذى يحطم الصلف الزائف ، ليدعم فى النفس الشعور بالكبرياء الصادقة .. هو الذى يجعل الانسان مهيبا امام كل القوى الغاشمة كقلعة حصينة الاسوار ..

ومن أجل ذلك فهو يقول لهم .. الحق يقـــول لهم : « فضل العلم خير من فضل العبادة » . ان أصـــــحابه ليسرفون فى العبادة : يقومون الليل ويصومون النهـــار ، ومنهم من يعتزل النساء .. ولكنه لم يجىء بهذا ، وانه ليقنعهم انه هو نفسه يأكل ويشرب ويحيا الحياة ويعاشر النساء ويستمتع بالطيبات من الرزق .. فالدين الذى جاء به هو اسلوب فى معاملة الآخرين ايضا .. لقد قيل له ان فلانا مؤمن عميق الايمان يكثر من صلاته وصدقته وصيامه غير انه يؤذى جيرانه ، فقطب وجهه قائلا : هو فى النار !.

ولقد دخل ذات مرة على زوجته عائشة فوجد عندها نسوة من صاحباتها ، بينهن واحدة لا تخطىء جمالهــــا العين ، ولكنها رثة الثياب زرية الهيئة يختفى حسنها فى كآبة غامرة .. فسألها : ما بال المراة ؟ فقالت له عائشة انها لزوجة أحد اصحابه ، ان زوجها يصــــــوم النهار ويقوم الليل !

ما عسى أن تصنع الزوجات ان شغل عنهن الرجــــال بالعبادة .. انه لم يجىء بمثل هذا أبدا .. وأرسل الى

من يدعو الزوج .. حتى اذا لقيه قال له : « بلغنى انك تصوم النهار وتقوم .. الليل ، فلا تفعل .. فان لجسدك عليك حقا ، ولزوجتك عليك حقا » ..

وانصرف الرجل ممتثلا للنصيحة .. وفي الصباح التالى كانت زوجته تملأ مجلس عائشة مرحا ، يفوح منها العطر ، وقد تورد خداها وجرى ماء الحياة فى وجهها .. وسألتها عائشة : « ما هذا ؟ » . فقالت الزوجة وجذوة السعادة تتوهج فى عينيها الباسمتين : « أصابنا ما أصاب الناس » .. وهكذا مضى يكسر حدة الاعداء الشانئين ، وحدة الاتباع المتزمتين على السواء ..

والحياة فى المدينة بعد ذلك تمتحنه بما لم يواجهه من قبل .. فصحبه المقربون الذين يعتز بهم ، يسلكون على غير ما يرضيه .. حمزة ، عمر ، وآخرون .. لقد اعتزت الدعوة بحمزة وعمر وقد زلزلت قريش كلها حين انضما اليه ، ومع ذلك فقد جاء الزمن الذى يواجه فيه حمزة وعمر وغيرهما بما يكرهون ..

وها هو ذا حمزة بعد أن رجع من رحلته التى قابل فيها أبا جهل وفرسان قريش ، يعود الى سلوكه السابق وحياته القديمة من الخمر والغزل .. انه أذن فى الخامسة والخمسين ، انقطع طويلا عن حياة الليل ، ولكنه منذ رأى الموت يواجهه فجأة على ساحل البحر عاد الى المدينة يجرع من متاع الحياة بظمأ غريب ، لا يرويه شىء .. حتى لقد ظل ليلة كاملة يشرب الخمر ، مع فاتنتين من بنات اسرائيل رقصتا له وغنتا ومتعتاه ، فغدا على المسجد يتحدث عن جمالهما ولا يخفى على أحد أنه استمتع بهما .. كان يتطوح ويتضاحك وهو يقبل على المسجد ..

وأنكره محمد حين رآه ، ولكن حمزة الذى كان ما يزال

فى سكر الليلة الماضية نظر اليه والى من حوله قائـــــلا باستخفاف : « ان انتم الا عبيد آبائى » .. وانطلق يتهيأ لاستقبال ليلة أخرى ممتعة مع حسان المدينة المغنيات فى بيوت يهيئها بعض سراة اليهود لاستقبـــــال الرجال المسلمين ! . . هذا اذن هو ما تفعله الخمر ببعض الرجال . . وهكذا تكيد اليهود !!

ماذا يفعل الآخرون ان كان حمزة يصنع مثل هذا ؟ . . ومضى محمد يحض اصحابه أن يمتنعوا عن الخمر ، فمهما يكن فيها من منافع فان فيها لاثما كبيرا . . لـكم يحرجه سلوك حمزة . . على ان حمزة افاق لنفسه ، فأعلن ندمه أمام الجميع ، وأقسم الا يقرب الخمر ولا نساء غير زوجاته . . وظل يبكى من الندم حتى غسل خطيئته بالدمــــع فأخذ محمد يخفف عنه . .

ولم يكد محمد ينتهى من امر حمزة حتى سعى اليــه أبو بكر يشـــكو عمر بن الخطاب ، فقد اختلفا على شىء فاحتد عليه أبو بكر . . ولكن عمر بن الخطاب اغلظ له . . وخيل لابى بكر أنه هو الذى اعتدى على عمر ، وحاول أن يعتذر اليه ولكن عمر رفض اعتذاره . . ايمكن أن يحدث كل هذا بين الصق الناس به .. ؟

على ان عمر بن الخطاب جاء بعد هذا ، فقال له محمد وهو ينظر الى الملتفين من حوله : « ابو بكر صدقنى حين كذبتمونى ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل انتم تاركـون لى صاحبى ؟ » .. وتصافى عمر وأبو بكر ..

خلافات أخرى كثيرة بين المهاجرين ظلت تشتجر حول حدود الارض التى استصلحوها فى المدينة . . ومحمــــد يطالبهم الا يتخاصموا والا يتفرقوا والا يفرهم متاع الحياة . . فالاموال فتنة . كل هذا ويهود يثرب يكيدون . حرب الاشاعات ، وحرب الاحراج ، وأخيرا حرب المال . .

لم يطق يهود يثرب وجود طائفة أخرى من اغنيـــاء المهاجرين ممن اتقنوا التجارة .. وليس آبرع من تاجر قرشي ، ان منهم الآن من يفوق أغنياء اليهود مالا .. كعبد الرحمن بن عوف مثلا : ووضعوا الخطط لضرب الاقتصاد الجديد : صفقات وهمية فى سوق بنى قينقاع ،ومضاربات ومغامرات لتثير الذعر أو الانهيار فى الســوق .. وهكذا خسر تجار المهاجرين والانصار !

وما فى المدينة كلها غير سوق بنى قينقاع ..وطلب محمد من التجار المسلمين أن ينشئوا سوقا جديدة لايتسرب اليها احد من مضاربى اليهود أو من شيعة عبد الله بن أبى ، فيخرب اقتصادياتهم . وأنشأوا السوق الجديدة، فنشطت المعاملات فيها ، واقبل التجار الغرباء اليها .. آثروها على سوق بنى قينقاع فقد كانت قواعد التعامل فيها أكثـر عدلا وأوفر ضمانا للبائع والمشترى . وكان دستور العمل فى هذه السوق هى القواعد التى جاء بها محمد : لا ربا ، ولا ارهاق ، ولا غـرر ، ولا غـرار ، ولا تعــامل على بضاعة لم توجد بعد .. البائع يضمن سلامة مايبيع ويضمن للمشترى نقاءه من العيوب . العـــدل واحترام الحقوق المتبادلة دستور هذه السوق الحديثة ..

ثم حسن التعامل مع المعسرين .. فقد قال لهم محمد: « من يسر على معسر فى الدنيا يسر عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ثم وعد من يتنازل عن جزء من دينه للمدين المعسر بأن « يظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله » ووعدهم أيضا أن « من يفرج عن معسر تستجاب دعوته وتفـــرج كربته » ..

وفى هذه السوق ارتفعت نـــــداءات المبشرين بالدين

الجديد .. ورأى التجار الغرباء أن هذه القواعد الجديدة التى تحكم البيع والشراء ، لهى أعدل واحرى بأن تتبع من كل ماعرفوه ،واذن فالعقيدة التى تشكل اخلاق المؤمنين بها على هذا النحو ، جديرة بأن تعتنقها القلوب ..

ودخل فى الاسلام عدد من هؤلاء التجار الغرباء ... فأيقن كبار التجار اليهود فى المدينة أن هذه العقيدة بتعاليمها فى البيع والشراء ، يمكن أن تشيع بين القبائل والمدن العربية ، وتجذب الناس فتفسد الامر عليهم ، وتهدد مصالحهم تهديدا جديا .. والتقت مصالح يهود المدينة بمصالح كبار التجار فى مكة .. فشرعوا يصدون القبائل الاخرى عن السوق الجديدة ، وعن محمد جميعا ..

واهتموا بصد الشعراء من القبائل الاخرى .. وكانت سوق المدينة ، قد اخذت تجتذب الشعراء ، فقد صمم التجار المسلمون ان ينافسوا بها أسواق مكة .. واقاموا فيها المنابر ، ليلقى عليها الشعراء آخر ما نظموه من قصائد .. والشاعر هو المعبر عن آلام القبيلة ومفاخرها .. هو الذى يرفع ذكرها بين القبائل الاخرى بالكلمة الساحرة التى تبهر ، ثم ترسخ فى العقول وتتناقلها الاجيال ..

لو أن واحدا من هؤلاء الشعراء الفحول أقبل الى سوق المدينة ، فاقتنع بتعاليم محمد ، أو اغدق عليه بعض الاغنياء من أتباعه ما يشتهى من مال ، فانطلق الشاعر يتغنى بمحمد وتعاليمه ، لاشتهرت هذه التعاليم عبر الجزيرة ، وارستها الكلمات الساحرة المنظومة فى كل القلوب ..

ان محمدا نفسه ليدرك هذا ، وقد اصطنع هو بنفسه الشاعر حسان بن ثابت ، ومحمد فى ادراكه لسلطان الكلمة ودورها فى الدفاع عن العقيدة يتمنى ان ينضم الى حسان شعراء آخرون من الفحول . ولكن تجار اليهود

وتجار مكة بفهمهم لخطورة الشعراء فى المعركة اتفقوا على أن يحولوا بين محمد ، وبين هؤلاء المثقفين الرواد ذوى النفوذ الادبى الكبير ..

وخشى اليهود أن يستفزوا غضب محمد .. وهم مواطنون له بالمدينة بينه وبينهم معاهدة مكتوبة فى صحيفة. أن يحموه ويحميهم ويمنعهم ويمنعوه ! ..

لقد صبر محمد كثيرا عليهم ولكنه لن يصبر على صدهم الشعراء عنه .. الا الشعراء ! .. فهو رجل يمجد الثقافة والمثقفين ويعرف خطر الشعراء ، ويتمنى أن يعتز بهم وينتصر ، وانه ليعامل حسان بن ثابت برعاية خاصة لا يعرفها أقرب الناس اليه حتى أبو بكر .. انه على الاقل يفهم نزواته ، ويؤكد له ان كل دوره فى الدين الجديد : هو ان يقول الشعر .. ان الدور الذى يؤديه هذا الشعر ، ليخفف عن الشاعر كثيرا من الاعباء التى يطالب بأدائها الآخرون ، حتى لقد جاء رجل من المسلمين المتشددين يلعن حسان بن ثابت أمامه لانه يشرب الخمر ، فقال محمد : «لا تلعنه .. انه يحب الله ورسوله »

وان اصحاب محمد ليعاملون الشاعر باكبار خاص ، انهم ليعرفون انه اعلى الاصوات تعبيرا عن الوجدان الجديد .. انه مفخرتهم بين الامم والقبائل وهم ايضا يتمنون لو اعتزوا بشعراء آخرين من طراز حسان بن ثابت .. ليتهم يضمون اليهم أمية بن الصلت ، ولكنه فى الطائف .. وما زالت ثقيف منذ طردت محمدا تحمل لهم العداء ، ولقد حالفت قريشا عليهم ..

ومالك بن زهير .. ليته يقتنع بالعقيدة الجديدة ..

والاعشى .. هذا الرجل الذى تتردد أشعاره كأنغام الصناجات ، لو انه اقبل اليهم أيضا فستردد الجبال

والوديان رجع تعاليمهم ، وتتغنى بها العذارى فى الخدور والجوارى فى بيوت اللهو ، وفرسان العرب وهم يخوضون المكاره ..

ولم ينتظر أصحاب محمد حتى يسعى اليهم الشعراء فقد مضوا هم اليهم بينما رسل قريش يصدون هؤلاء الشعراء .. ويغرونهم بالمال الكثير . على أن من الشعراء من لا يثنيه اغراء المال .. وما من شىء يمكن أن يصده عن السعى الى الحقيقة .. لا المال ولا التهديد بالاذى ، فهو يندفع مع أشواقه وقلقه الى المدى ..

وكان القلق يغزو قلب أمية بن الصلت ، ولكنه لم يحاول أن يسعى الى محمد لانه وجد نفسه ــ هو الشاعر الفحل ــ أحق من محمد بهذه الدعوة !. أما مالك بن زهير فقد رفض تعاليم محمد أول الامر ، وبدلا من أن يكسبه المسلمون الى جوارهم لينتصروا به ، انطلق يهجوهم ، ويفحش لهم .. وتدفقت عليه الاموال وسبائك الذهب يحملها رسل من أثرياء اليهود وأثرياء مكة ..

ولكن الاعشى وجد فى التعاليم الجديدة شفاء لبعض قلقه .. كان دائما يبحث عن المجهول ، وعن حل لما يراه ويسخطه .. فهو أبدا ينتقل من بلد الى بلد ، يتغنى بالحياة ، ويطرب الناس بشعره ، ويحظى بالهدايا والمال من السادة الذين يتنافسون على استقباله واستضافته .. من بلد الى بلد ،من فاتنة الى فاتنة أخرى جديدة على أجنحة تصنعها الخمر المعتقة ، بحثا عن الراحة وسعادة القلب .. حتى لقد ألف الخمر والغزل . وفى بعض هذه الرحلات سمع عن محمد ، وعن سوق المدينة وعن تعاليم الرجل .. فقرر ان يخوض المغامرة وان يذهب الى محمد ..

وأنشأ قصيدة طويلة أقسم فيها الا يرحم ناقته من

السفر « حتى يلاقى محمدا » وعرفت قريش بالامر ، فهرع اليه رسلها يصدونه .. وحاولو أن يمسكوا بزمام ناقته ، فزجرهم وطلب منهم أن يتركوها فان لها فى « أهل يثرب موعدا » .. وأغروه بالمال فما نفع الاغراء ، وأخيرا احتالوا عليه .. قال له قائلهم متلطفا : « يا أبا بصير انه يحرم الزنا » ومضوا يصورون له الحرمان الذى يجب أن يعانيه فى ظل التعاليم الجديدة .. لاغزل بعد ، ولا انطلاق من عشيقة الى اخرى وانما التزام بالزوجة ..

وفكر الاعشى قليلا ، ثم قال : « هذا لا أرب لى فيه بعد » . فقال له قائلهم : « فانه يحرم الخمر يا أبابصير » فبهت الاعشى .. ثم لوى زمام ناقته راجعا وهو يقول : « أما هذه فان فى النفس منها لعلالات ، ولكنى منصرف فارتوى من الخمر عامى هذا ثم آتيه فاسلم » ..

غير أن الاعشى لم يأت محمدا أبدا .. ظل يشرب ويشرب فى جنون الاحساس بأنه سيحرم الى الابد من هذه الخمر التى يحبها ، حتى مرض ومات .. وعلم محمد وصحبه بما كان . ولم تكن الخمر قد حرمت تحريما قاطعا بعد ، ولكنه كان يحض الناس الا يشربوها لان شرها أكثر من نفعها

وحزن المسلمون لانهم خسروا عبقرية الاعشى ! .. ان قريشا تفرض عليهم الان حصارا جديدا بصدها الشعراء الفحول عنهم ، وهى بعد تغرى بعض هؤلاء الشعراء ليشهروا بهم .. هذا الاسلوب الخطير من الحرب الباردة يجب أن يقابل بمثله ..

كل هذا الكيد من قريش ، وفى الجبهة الداخلية يكيد اليهود وعبد الله بن أبى وشيعته .. ويذيع شعر لمالك ابن زهير يهجو به محمدا وصحبه وأنصاره ، وينتشر فى احياء اليهود بالمدينة شعر آخر ساخر .. صنعته يهودية

شاعرة .. ويستفز محمد بيان حسان بن ثابت ويغريه بأن يرد على شعر الاعداء جميعا ، ويرد حسان فيفحش ، ويتحرج بعض صحاب محمد من هذا الشعر الفاحش ولكن محمدا يتركه يقول كما يشاء .. فليكل لهم حسان بنفس الكيل ..

والمهاجرون لا يسلكون معهذا كما يحب لهم محمد.. لم يعد أحد يشرب الخمر باسراف منذ حادثة حمزة ، ولم يعد أحد يخاصم اخاه بغلظة منذ تصالح عمر وأبو بكر .. ولكن الطمع لم يكن قد هجر القلوب بعد ، وما برح رجال من المهاجرين يعتدون على حدود بعضهم ..

أحلام الغنى قد بدأت تملأ رءوس البعض منذ منحهم العمل فى الارض شيئا من المال .. وانمنهم لمن يستمرىء الراحة الان ، بعد أن كافح فى مكة وتحمل العذاب هنالك ، وان منهم لمن ينتهز فرصة النعيم الجديد ليستقوى .. وقد أخذ محمد ينظم شئون المدينة فيقيم فيها المسئولين عن هذا العمل أو ذاك . ومع ظهور المناصب ، بزغت طائفة تتقرب وتحاول أن تحصل على مالا تستحقه .. ظهر من يطالبون بالتعويض عما تحملوا فى سبيل العقيدة الجديدة . لقد كافحوا لبعض الوقت وهم يطالبون الان بالاتعاب وان منهم لمن يحسد أخاه على ما نال ..

الطريق ما زال بعدطويلا شاقا ، مليئا بالمتاعب !. .
ومحمد ينصح لهم جميعا الا يحملوا فى قلوبهم غير الحب فما يجتمع فى جوف عبد الايمان والحسد ..

وانه ليؤكد لهم أن خيرهم هو من يتفانى في سبيل ما يؤمن به ، وان الطمع فى متاع الحياة الدنيا يفسد القلب وان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب ..

ثم انه ليأمرهم أن يكون الانسان فى عون أخيه ، وأن افضلهم ليس هو أغناهم ولا أعلاهم منصبا ، وانما هو أعفهم يدا وأتقاهم قلبا .. وانه ليغريهم بأن يملأوا قلوبهم بقيم الفضيلة لا بالطمع فى الغنى والجاه ..

وكان لتعاليمه رجع طيب فى كثير من القلوب ، ولكنه فوجىء ذات يوم على الرغم من كل ما يقوله بأحد المهاجرين يطمع فى درعين عند زميل له ، فيسرقهما .. السرقة أيضا .. على الرغم من كل النصائح ، ومن كل التحذيرات ؟! .. وأمر محمد أن تقطع يد السارق ان ثبت عليه انه سرق .. فهذا هو الحد الذى جاء به .. فالذين كتموا أحقادهم ليتهم الواحد منهم أخاه بالسرقة .. انفجرت المنافسات ، واليهود وراء هذا كله يؤججون القلوب بالبغضاء ويلقون العداوة فى نفس المسلم ضد أخيه المسلم ليحرجوا محمدا ..

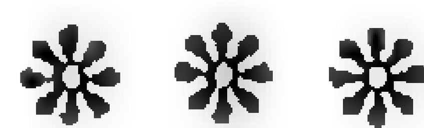
وأعلن محمد أن من شهد زورا ، عوقب على شهادة الزور ، ومن اتهم غيره بلا حق عوقب على هذا الاتهام ، ومن شهر بغيره عوقب على هذا التشهير .. على من يدعى ضد غيره أن يثبت دعواه ، وعلى المدعى عليه الا يكذب فان كذب اخذ بكذبه ..

واهتم محمد بحادثة سرقة الدرعين فأخذ يحققها بنفسه .. ودخل فى دوامة عجيبة أغضبته .. هذا الرجل يتهم ذاك ولا يقيم بينة ، ويسأل محمد المتهم فيغضب أقاربه ويرون فى التحقيق معه اهانة له !.. لقد تألف القلوب المتخاصمة فى المدينة ، ولكن قلوب الذين هاجروا معه تتنافر الآن ، وان من هؤلاء المهاجرين لمن يذكر تضحياته ، ويطالب بالقصاص ممن يشهر به ، والحقيقة غامضة .. والسارق الحقيقى لا يريد أن

يتقدم فيعترف . ومحمد مصمم على أن يجد السارق الحقيقى فيعاقب ليبين الحق ، وتظهر براءة الذين اتهموا .. ولكيلا تكون سرقة بعد ..

وخلال هذا الضجيج الذى ثار فجأة هرب السارق الحقيقى .. عاد الى مكة ، والتجأ الى بيت امرأة كان يعشقها قبل أن يدخل الاسلام .. اذ لم يجد له فى مكة دارا ولا مالا ، فقد صارت قريش كل شىء له ..

وحركت هذه الفتنة شاعرية حسان ، فأنشد قصيدة يهجو فيها السارق والذين أججوا البغضاء .. وعرض لهرب السارق الى مكة ، وذكر المرأة التى آوته هناك ، وشهر بسمعتها .. وذاع الشعر حتى حفظه فتيان من قريش ، واسمعوه لتلك المرأة ، فدخلت على صاحبها السارق تشتمه وهى تقول : « انما أهديت لى شعر حسان !! » ثم أخذت رحله وطرحته خارج المنزل ..



على الرغم من هذا كله ، فقد كان على محمد أن يحرس المدينة من العدوان

كان عليه خلال هذه الدوامات المتموجة أن يواجه قريشا بكل سلطانها ، أن يفرض عليها هيبته .. فلا تصد عنه الذين يريدونه ، ولا الشعراء ، ولا تغرى به من يهجوه ولا تتآمر ضده مع بعض مواطنيه فى المدينة

كان عليه أن يتابع ارسال السرايا ، ليتحسس من أمر قريش ، وليؤمن الصحراء من حول المدينة ، فلا تفاجئهم قريش بالغزو .. لا قريش ولا احدى القبائل التى تحالفت معها .. كان عليه وسط كل هذه الدوامات المتلاحقة ، أن يهيىء للكفاح قلوبا بدأت تأنس اللين وتألفه، بعد أيام الاستبسال الاولى ..

اليهود يكيدون ، وشيعة عبد الله بن أبى تثير البغضاء ، وبعض المهاجرين يشغله جمع المال ، ومنهم من ينفس على أخيه مكانته .. وبعض الذين ناضلوا بشجاعة فى أول الدعوة ، يستنيمون اليوم الى طيب المنام .. وقريش تتأهب للعدوان عليهم جميعا .. ! ومضى محمد يذكرهم بالطريق الطويل الذى يجب عليهم أن يخوضوه معا ، على الرغم من الاشواك والصخور ..

فليستعدوا اذن للايام الصعبة القادمة .. فلمن حارب ومات فى الحرب دفاعا عن عقيدته ، فسيعوض عن مزرعته حديقة فى الحياة الاخرى ، وسيكون له بدلا من بيته قصرا ضخما .. وبدلا من زوجته حوريات أبكارا لم تقع العين على مثل جمالهن .. الحياة عرض ، سيتركه الانسان ذات يوم .. فكل انسان يموت ، ولكن الموت فى الحرب شىء آخر ، انهم لن يحاربوا طمعا فى الاستيلاء على قريش ، ولكنهم سيحاربون دفاعا عن وجودهم ، وعن الاشياء التى يؤمنون بها والتى يحبونها .. انهم سيقاتلون دفاعا عن المستقبل . وليذكروا أن الانسان يجب أن يموت ذات يوم .. ويوم يموت تتبعه الى قبره ثلاث : أهله ، وماله ، وعمله .. ثم يعود الاهل الى سيرتهم ، ويتفرق المال ، ولا يبقى للانسان غير عمله !

وألح محمد على المهاجرين والانصار بهذه التعاليم .. فأخذت سبيلها الى الاعماق يوما بعد يوم ، تحتل مكانها الى جوار الطمع فى السلطة والمال والارض ، وامتلأت بعض القلوب بهذا الايمان ، وبدأت تتواثب بين الضلوع فى شوقها الى يوم تلمع فيه السيوف دفاعا عن المستقبل

وبدأ هو يقود السرايا بنفسه ، ويخرج ثم يعود بالطمأنينة الى أهل المدينة . وكان كلما خرج يضع مكانه

رجلا من بسـطاء المسلمين .. لكيلا يستعلى أحـد من السابقين الى الايمان به أو المقربين اليه ..

ورأت اليهود موجة نشاط جديدة تهز القلوب فعادت تكيد .. وكان من رجال اليهود ونسائهم من يقوم بأعمال السحر .. وللسـحر اذ ذاك سـلطان مخيف على بعض العقول ، وصنعت امرأة يهودية سحرا يقعده عن الخروج ويمنعه من النساء ولقد ضاق هو بهذا السحر ، ولكنه تحداه .. وخرج يقود احدى السرايا ، وعاد الى المدينة كما تعود .. ساخرا بهذا السحر ..

غير انه امتنع عن النساء .. فأما سودة الزوجة الكهلة فقد صبرت للأمر عـدة شـهور ، وأما عائشـة زوجته الجديدة الشابة فقد احتملت هذه الشهور ثم طالبته أن يصنع شيئا يبطل السحر .. وكان هو يدللها ويصطفيها ويتركها تتكيء بذقنها على كتفه أمام الناس ، وشـعرها يلمس خده وهى ترى معه العاب الاحابيش فى ساحة المسجد

وكان يشق أن اليهود انمـا يشغلونه بهـذا الامر ، فى وقت حرج بالنسبة الى دعوته وأنه على أية حال سيشفى ، فما هذا الوهم الذى القوه فى نفسه ! ولكن عائشة الحت عليه أن يلتمس الطب ، أو ما يبطل هـذا السحر ، وأن يعاقب الذين صنعوه ..

وكان هو لا يريد أن يشغل أحـدا بغير الاستعداد لاستقبال قريش وحلفائها ان بدأ العدوان على المدينة أو تجارتها .. انه فى المرحلة الحرجة ، ليحرص على أن يسد كل الثغرات فى جبهته الداخلية ، وأن يشد الصفوف لتتماسك فقال لعائشة : « أكره أن أثير على الناس شرا »

ومضى يعد سرية بقيادة عبد الله بن جحش ، وسـبعة آخرين من المهاجرين فيهم سعد بن أبى وقاص ، وأعطى قائد السرية كتابا وأوصاه بألا يفتحه الا بعد يومين

وعاد الى حياته الطبيعية ، وعادت اليه العافية بعد ايام .. فاطمأنت الحيـاة بعائشة ، وعمرتها بشاشتها القديمة . أما عبد الله بن جحش فقد سار يومين ثم فتح الكتاب ، فاذا هو أمر منه أن يسيروا الى « نخلة » بالقرب من مكة فيرصـدوا منهـا قريشا ثم يأتوا المدينة بخبر قريش . وفى الكتاب أمر لعبد الله الا يستكره أحدا ممن معه فمن شاء فليرجع ومن رغب فى الاستشهاد فليتقـدم

واقام عبد الله بن جحش وصحابه بوادى نخلة ، حتى اذا مرت بهم قافلة صغيرة لقريش تحمل جلودا وزبيبا ، هاجموها ، وقتلوا رجالها وأسروا اثنين وغنموا البضاعة وعادوا الى المدينة .. وفى أثناء القتـال أسرت قريش اثنين من السرية ، أحدهما سعد بن أبى وقاص

كان ذلك فى رجب .. الشهر الذى تعود الحجاج أن يفدوا فيه الى مكة .. الشهر الحرام فلا قتال فيه .. فلما عاد عبد الرحمن بن جحش الى المدينة ، دخل على محمد ظافرا منتشيا بما حمله من غنائم وبما احرزه من انتصار . ونفر عرق من جبهة محمد ، وصاح فى عبد الله وبقية صحبه : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام!» .. وطلب الا يمس أحد شيئا مما حمله عبد الله بن جحش..

وامتلأت المدينة بالوجوم .. بينما انطلق المرجفون فى المدينة يقـولون قد استحل محمـد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال . وانقض المسلمون على عبـد الله يعنفونه مغلظين له .. وكل منهم يشعر بخجل كبير ، لان واحدا منهم ارتكب مثل هذا العمل فى الشهر الحرام ..

وانتظر عبد الله وبقية صحبه .. ما سيحل بهم من عقاب .. أتراهم قد أفسدوا فى الأرض .. ؟ ولم يكلمهم محمد أياما ..

يوم التقى الجمعان

يجب أن تنتهى ــ على الفور ــ كل هذه المناقشات حول موقف عبد الله ، فلن يستفيد منها أحــــدا غـــير الأعــداء .. ! ولقــد مضى الأعداء يؤججون المناقشات ويثيرون النفوس ، وهم يزورون على هذا الدين الجديد الذى يسمح لاتباعه بالعدوان فى الشهر الحرام .. وهكذا عاش عبد الله بن جحش أيامه يطارده الاتهام بالغدر ، وباهدار المقدسات المتوارثة .. كانت أيامه قاسيةمضنية من الشعور الزرى بالعار ، فلم يعد عبد الله يستطيع بعد أن يرفع الرأس أمام أحد فى المدينة ، حتى صـحبه المسلمين . ولكن الندم المعذب الذى استسلم لهعبدالله، ليس عقابا كافيا .. لابد من عقاب صارخ يمظ ويدوى ، ويغمر بصداه رجع أصوات الاستنكار عبر الجــزيرة العربية .. أهو النفى من المدينة .. ؟ النفى ليس عقابا كافيا أيضا . فليقتل عبد الله اذن ، وليغسل دمه عن اتباع الدين الجديد هذا العار الذى يلطخهم حتى الحياة

غير أن بعض المسلمين السابقين الى الاسلام ، ذكروا لعبد الله بلاءه القديم فى تلك الايام الاولى من الدعوة ، حين كان العقاب الذى تنزله قريش بمن يتبع العقيدة الجديدة ، هو النفى من الارض ، والتعذيب حتى الموت ومصادرة الممتلكات ، والهوان ، وانتهاك الحـرمات . والحرمات قصاص . ومهما تكن خطيئة عبد الله ، فان قريشا قــد ارتكبت وما زالت ترتكب خطــايا يجب أن

ينكرها كل ذى قلب شريف . لقد أخطأ عبد الله وضل ، ولكن قريشا شر مكانا وأضل عن سواء السبيل . فما بال رجال المدينة لا يغضبون لأن قريشا تصد المسلمين عن الحج بالكعبة ، أم يريدون كيدا

لقد جاوز عبد الله كل الحدود حين اعتدى على القافلة القرشية وقاتل فى الشهر الحرام .. هذا حق ، ولكن فليذكر مغاضبوه من المهاجرين ، بعض ما صنعته قريش بهم هم أنفسهم قبل أن يصبوا كل هذا الغضب على عبد الله المسكين ! وانها لتصدهم عن المسجد فى الشهر الحرام .. وما زالت تفتن من بقى فى مكة من أصحابهم المستضعفين ، عن دينهم الجديد ..

انها لكبيرة أن يقتل عبد الله أحدا فى الشهر الحرام ، ولكن الفتنة أكبر من القتل .. وصد الناس عن البيت العتيق واخراج أهله منه أكبر . وخرج محمد الى الناس ليقضى على هذه المناقشات التى لا تنتهى .. فلتحسم الأمر يا محمد .. فما تدعو اليه ، يحتاج الآن الى أن تحشد كل قواك والى أن تحسن تدعيم الصفوف . انهم لا يعلمون .. فلتعلمهم انهم مطالبون الآن أن يرفعوا السلاح فى اى وقت دفاعا عن المصير . انهم ليسألونك عما ستصنعه بعبد الله بن جحش ، ولكن جرائم قريش أكبر .. ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير

لا تتخاذلوا يأيها الناس أمام من عذبوكم وأخرجوكم من دياركم .. وما زالوا يفتنون أصحابكم .. قاوموهم .. وأخيفوهم .. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ..

ولم يكد محمد يعلن على أصحابه هذا الموقف ، حتى عادت الحياة تدب من جديد بكل عنفوانها فى بدن عبدالله

.. بعد أن أوشك الندم المعذب أن يمتص رونق شبابه قطرة بعد قطرة

وخرج عبد الله الى الناس يرفع رأسه ، راضيا عن نفسه .. وقال لمحمد : « انطمع فى غزوة أخرى نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ » .. انه ليتوق الآن الى الاستشهاد فى سبيل ما يؤمن به .. ألم يعلمه محمد ـ كما علم غيره ـ أن من مات فى سبيل العقيدة الجديدة ، جوزى بعد الموت بجنات تجرى من تحتها الانهار فيها كل ما تشتهى الأنفس .. ؟

صبرا يا عبد الله .. فاليوم الذى تصبو اليه أنت وزملاؤك ، آت لا ريب فيه . وما كانت قريش تتركهم واعين . وبعثت قريش فى فداء أسيرى عبد الله ، فرد محمد : « لانفديكموهما حتى يرد صاحبانا »

وأطلقت قريش سراح سعد بن أبى وقاص، وصاحبه، فعادا الى المدينة . أما رجلا قريش الاسيران ، فقد أسلم أحدهما ورفض أن يعود ، ولحق الآخر بمكة ..

وأقبل محمد على حياته التى تعـودها فى المدينة : النهار للعمل ، والليل للتأملات والعبادات والنوم .. من بيت سودة الى بيت عائشة ، ليلة هنا وليلة هناك ، وهو يفكر ويتدبر ما عسى أن تصنعه قريش بعد أن أعلن أنه سـيقاتل حتى لا تفتن قريش من يؤمن به .. وانه ليستشير أصحابه كلما التقى بهم فى المسجد ، فيعلم أن قريشا تصفى خلافاتها مع القبائل لتنشىء ضده حلفا ثم تبدأ العدوان

وطرب أعداؤه فى المدينة لهذه الانباء .. سيخرج محمد ذات يوم مع صحبه المهاجرين والانصار ، فيلقوا قريشا .. ستفنيهم قريش ، فتموت تعاليمه فى المدينة ، ويغلق

السوق الذى أنشاه التجار المسلمون ، وتعود العلاقات فى المزارع والاسواق بين الملاك والاجراء ، كما كانت قبل أن يأتى محمد بتعاليمه التىأثارت مطامع الفقراء ،وقررت فى اموال الغنى حقوقا للمحتاجين ، وسـدت على تجار المدينة كثيرا من الطرق الى الاثراء ..

على أن يهود المدينة أرادوا أن يواجهوا محمدا مجتمعين فقـد لاحظ رؤساؤهم أن من فقراء المدينـة من يميل الى محمد ، وأن من أغنيائهم بعض الذين تعجبهم تعاليمه ويكبرون سيرته بينهم ، حتى لقد أوشكوا أن يتبعوه ..

لكم من تجربة عاناها رؤساء اليهود فى المدينة .. كم من مرة نجحوا فى اثارة الشكوك حول محمد وصحبه ،وكم من مرة نجحوا فى القاء الذعر فى القلوب ، وفى خلق حالة من الضيق بمقدم محمد .. ولكن محمدا كان فى النهاية يقضى على الشكوك ويحمل الىالقلوب كثيرا من الطمأنينة، فترتاح له النفوس التى كان يساورها الضيق به ! ..على انه مشغول بالاستعداد لقريش ، وهو متعب القلبلمرض ابنته رقية التى لم تسـتعد عافيتها الاولى منذ دهمها المرض أيام الوباء ..

الفرصة سانحة لاثارة الشك فيه من جديد ، ولصد بعض اليهود الذين يفكرون فى الالتفاف حوله .. لقـد جاء بكثير من العقوبات التى لم يتعودها العرب ، ولقـد هرب منه احد المهاجرين وعاد الى قريش منذ قرر محمد أن يعاقبه بقطـع اليد على سرقة الدرعين .. فلو أن بعض الذين يميلون الى محمد من اليهود امتحنوا بمثـل هذا ما تبعه أحد منهم ، ولتماسكت قبائل اليهود جميعا وكونوا حلفا قويا ضد محمد ..

واجتمع بعض أغنياء يهود واجمعوا أن يكيدوا لعشيرة

منهم كان رئيسها يبدى لمحمد بعض الميل . كانت له ابنة جميلة اسمها بسرة تعشق رجلا اخر من سادة عشيرتها . ودبر بعض كبار تجار يهود المدينـــة الامر فى احكام .. فضبطت بسره مع عشيقها.. وذهب زوج بسره ، وزوجة العشيق مع شهود من كبار اليهود يشـــكون الى محمد ويسألونه أن يقضى بينهم .. وكانوا يعلمون ما يأمر به محمد فى مثل هذه الحالة ، انما هو الرجم حتى الموت ..

وأدرك محمد كل شيء .. انها لمحاولة جديدة لتنفير الناس منه .. فعشيرة بسرة هم اقرب اليهود الى الايمان به .. وقال لمن جاءوا يســـألونه : ان لديهم التوراة ، فليحكموا بما فى التوراة .. ولكنهم الحوا عليه أن يقضى هو بنفسه ، فاصر على أن يعودوا الى التوراة فيحتكموا اليها ..

وعاد كبارهم يتدارسون الامر .. ان محمدا باصراره على تحكيم التوراة ، يوشك أن يفسد المكيدة .. وانطلقوا يثيرون الشكوك فى المدينة ، لماذا يخشى محمد أن يقضى بالرجم حتى الموت على بسرة وعشيقها .. أيعطل الاحكام التى ينادى بها لانه يطمع فى ضم عشيرة بسرة اليه ؟ .. فاى عدل هذا ! .. ومحمد مشغول القلب بالاستـــعداد لقريش ! حزين لمرض ابنته رقية ..

ويرجع اليه رؤساء يهود يقولون له ان التوراة تقضى بأن توضع الفتاة وشريكها كل على حمار ، ثم يشهر بهما فى الاسواق ويطلى وجهاهما بالقار ..ولكنه كان قد عرف أن ما تقضى به التوراة فى مثل هذه الحالة انما هو الرجم حتى الموت .. رجم الرجل والمرأة جميعا فى حفرة واحدة .. وأعلن لهم هو نفسه حكم التوراة .. واســـتحلفهم أن يعودوا الى التوراة التى يملكونها ويحتكرون الاطلاع

عليها فيعلنوا للناس ما فيها .. ولكنهم أكدوا أن التوراة ليس فيها شيء مما يقوله ، غير أن شـــابا منهم يدرس التوراة انتفض صائحا : « يا أبا القاسم انك لصـــادق ولكنهم يحسدونك ويحرجونك ! »

وعلى الرغم من ذلك ، فقدحزنت عشيرة بسرة وعشيقها، وجزع الجميع من مثل هذا العقـــاب ، فلم يفكروا فى الانضمام اليه بعد ، لكيلا يكون له ســبيل على علاقاتهم فيما بينهم ..

ومضى يهود المدينة جميعا يحلمون بأن تهب قريش وحلفاؤها ، فتخلصهم من محمد ، ومن تعـــاليمه التى أفسدت العلاقات بين الملاك والاجراء .. والتى توشــك الان أن تفسد العلاقات الحرة بين النســاء والرجال .. متى تهاجمه قريش .. ؟

ولكن محمدا كان قد قرر أن يبدأ الهجوم .. فالهجوم خير وسيلة للدفاع . كان قد استشار صحبه واســتقر رأيهم جميعا على أن يفسدوا الحلف الذى تسعى قريش لعقده بين القبائل .. سيقومون بعمل يفرض هيبتهم على قريش ، وعلى القبائل الاخرى ، فلا تفكر قبيـــلة فى أن تتحالف مع قريش ضدهم!.. فلئن سكتوا لاستضعفوهم! ومن يدري ؟ ربما اقتحموا عليهم المدينة نفسها فأبادوهم جميعا !

وعلم محمد أن قريشا قد أعدت قافلة ضخمة خرجت من رحلة الصيف الى الشام ، وأن أبا سفيان بنفســـه يقود حرس القافلة .. والقافلة الان فى طريق العودة من الشام . وهى قافلة جهزتها قريش بخمسين ألف دينار، شاركت فيها عشيرة أبى سفيان بأربعين ألفا ..

لكن هذه الالاف العديدة قد انتزعها أغنياء قريش من

عمل المستضعفين ومن أموالهم المغتصبة ! ..

ان فيها لاموالا اغتصبت من هؤلاء المهاجرين الذين نفتهم قريش من أرض وطنهم مكة بعد أن استولت عنوة على ما يملكون ! .. لقد جاء الزمن الذى لم يعد فيه هؤلاء المستضعفون ، مستضعفين بعد ، وعليهم أن يستردوا أموالهم التى اغتصبت منهم من قبل .. عليهم ان يفرضوا هيبتهم على قريش لكى ينقذوا اخوانا لهم اخرين ما زالوا فى مكة يتلقون العذاب ، ويفتنون عن عقائدهم !!

وجمع محمد المهاجرين وحضهم على أن يخرجوا فيصادروا أموال القافلة.. وأعلن أن ما فى القافلة سيوزع على من يغنمونها .. من مهاجرين وانصار ، فمن لقى الموت منهم فهو خير له من أن يموت فى فراشه ذات يوم حتف أنفه .. انه يموت الان دفاعا عن العقيدة فى وجه الذين يكيدون لها ! على أن الامر لن يحتمل قتالا ، فما يحرس القافلة غير ثلاثين رجلا !! ..

وخرج محمد الى القافلة فى نحو ثلثمائة من المهاجرين والانصار ، بعد أن استخلف على المدينة رجلين من بسطائها .. أحدهما يؤم الناس فى الصلاة ، والاخر يقضى بينهم . وأوصى الذى هو قاض بينهم أن يستفتى قلبه فيما يعرض له من قضاء لا نص فيه ..

وأرسلت اليهود الى أبى سفيان تنذره وهو فى الطريق .. فأرسل أبو سفيان الى مكة يطلب المدد ، ويامر بوصفه رئيسا لحكومة مكة أن تخرج قريش بكامل فرسانها فيلحقوا به فى وادى بدر ، حيث ماء الغدران والظلال التى ستستريح تحتها القافلة ، وتستقى !ولتعجل قريش فتبلغ ماء بدر ، قبل أن يصله محمد واصحابه

وخرج كل المساهمين فى القافلة لينجدوا أبا سفيان..

ولم يبق رجل منهم قادر على حمل السلاح الا خرج أو ارسل مكانه من يحارب باسمه .. ولقد تخلف أبو لهب لمرضه ، فبعث مكانه أحد مدينيه ليحارب باسمه .. وتخلف أمية بن خلف فسخر به بعض شباب قريش واخذوا يطوفون حوله بالبخور قائلين له « انما أنت كالنساء » فقام من فوره يتجهز للحرب ..

وظلت هند زوجةابى سفيان تستصرخالرجال لينجدوا زوجها وتستفز عداوتهم لتعاليم محمد ، وتغرى الفتيان بالثأر لضحايا عبد الله بن جحش ، حتى أحتشد جيش كبير يتزعمه عتبة والد هند ، وعمها شيبة وأخوها الوليد .. واندفع هذا الجيش على قرع الطبول ، تحت قيادة أبى جهل .. غير أنه لم يكد يوغل فى الصحراء حتى جاءهم رسول من أبى سفيان يطلب منهم أن يعودوا الى مكة فقد نجا بالقافلة

ولكن أبا جهل طالب الرجال أن يسيروا حتى يردوا بدرا فيقيموا فيها ثلاثةأيامبلياليها ينحرون الذبائح، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف الجوارى المغنيات ، ويخيفون محمدا وصحبه ، فتسمع العرب بهم وبمسيرتهم وجمعهم فما تزال تهابهم القبائل بعسدها أبد الدهر ..

وكان محمد اذ ذاك ما يزاليتقدم الى بدر متتبعا قافلة أبى سفيان ، التى اتخذت طريقها على شاطىء البحر الاحمر .. وأتاه نبأ قريش . لم يكن يحسب أن قريشا ستخرج بكل فرسانها وجنودها ، فقد خيل اليه لبعض الوقت أنه وصحبه،سيتعرضون بغتة للقافلة التى يقودها أبى سفيان ،فيغنمونما فيها ويعودون بعد أنيلقوا الرعب فى قريش ! .. ولكن الامر لم يعد الان سهلا كما تخيلوا

فانها الحرب اذن ضد قريش بكل عدتها ، وجيشها !

واستشار محمد اصحابه .. أيمضى الى بدر فيلقى جموع قريش أم يؤثر العافية ويعود الى المدينة ؟ فأشار أبو بكر ان يمضى الى بدر ، وأيد عمر رأى أبى بكر فقد تظن بهم قريش والقبائل ضعفا ان هم رجعوا الى المدينة مكتفين من الغنيمة بالاياب ! .. وتكلم مهاجرون آخرون مؤيدين رأى أبى بكر وعمر ، ولكن احدا من الانصار لم يتكلم .. لقد عاهدوه من قبل أن يمنعوه فى المدينة ،اما ان يسير بهم الى عدو خارج المدينة ، فهذا .. شيء آخر

كانوا مازالوا يطاردون ابا سفيان على شاطىء البحر . وقال محمد وهو ينظر الى من خرج معه من الانصار : « اشيروا على أيها الناس » . فقال له سعد بن معاذ « لكأنك تريدنا ؟ » .. فقال محمد : « أجل » فقال له سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك .. فلو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا .. » .

واذن فقد اجمعوا كلهم على أن يلقوا قريشا ؟ .. وقادهم محمد الى وادى بدر .. فوجدوا فتيان بن قريش يملآن بعض الاوانى من احد الابار .. وتقدم اليهما على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام يسألونهما .. فقال الفتيان : « نحن سقاة قريش » .

وتقدم محمد يناقش الفتيين حتى عرف أن جيش قريش بين التسعمائة والالف ، وأن فيهم أبا جهل الحكم بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، وأبا البخترى بن هشام وامية بن خلف والاسود بن عبد الاسد .. وآخرون من فرسان قريش وساداتها ، فقال لرجاله : هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ اكبادها ..

لقد ارسلت مكة نحو الف رجل ، وأما محمد وصحبه فهم نحو الثلاثمائة .. انه لصراع لا تكافؤ فيه ! هو ذاك .. ولكن يجب أن يلاقوا قريشا كي لا يحسب أحد انهم فروا ، فتسقط هيبة الدعوة الجديدة ويتخلى عنهم الذين بدأوا يميلون اليهم ..

ولكن لابد من خطة للانتصار .. لقد أقنع محمد رجاله أن من مات منهم مات شهيدا ، وسيعوض عما خسر جنات عرضها السموات والارض ! انهم ليؤمنوا بما جـاء به فليدافعوا عن الاشـياء التى آمنوا بها .. ليدافعوا عن مستقبل هذه العقيدة .. سـيصبحون هم الاعلون يوم تنتصر ! كثيرون منهم لا يملكون شيئا يخسرونه ان ماتوا .. انهم لن يخسروا غير الغربة ، والضنى والاغلال ..

وبدأ محمد يسـتعد للمعركة .. لقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تسـحقه ، ولم يكن هو حين خرج قد قدر أنه سيخوض مثل هذه المعركة .. فأرسل الى المدينة يطلب مزيدا من الرجال ، ولكنه رأى أن الوقت قد يضيق .. فقد تهاجمه قريش فى أية لحظـة ! .. فلينظم صفوفه اذن ، حتى لا تباغته قريش ..

ورأى أن ينزل بعسكره فى أول وادى بدر ، على ضفاف الماء .. ولكن رجلا من صحبه سأله : « أهو منزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال محمد : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » .. فأجاب الرجـل وهو الحباب بن المنذر : « فان هـذا ليس بمنزل .. فانهض بالناس » واقترح الحباب أن ينزلوا آخر وادى بدر ، وأن يكون معسـكرهم على مرتفع من الارض ، بين وادى بدر بغدرانه ومائه ، وبين الكثيب المنخفض الذى نزلت به قريش .. وهكذا يقفون بين قريش وبين الماء ، فيقاتلون

وخطوطهم مؤمنة ·· خلفهم الماء والشـــــجر · وتقاتل قريش فلا تجد ماء تشربه الا أن تقتحم صـــــفوفهم الى هذا الماء .. وقام اصحاب محمد فبنوا حوضا كبيرا تدفق اليه الماء من غدران وادى بدر وأقاموا بالقرب منه .. وطرب محمد للفكرة .. هكذا سيقاتلون قريشا ، بالسلاح والعطش أيضا !

وقرر أن يتقدم هو الصفوف ، ولكن سـعد بن معاذ اقترح عليه الا يصنع .. لانه سيكون أول هدف لسهام قريش ورماتها وفرسانها .. ورأى سعد أن يبقى محمد في المؤخرة ليقود المعركة ، فتبنى له خيمة يســتظل بها فان غلبوا قريشا فبها ، وان غلبتهم قريش أمن محمد .. وتم الانسحاب دون أن تتعرض حياته للخطر ! وعدل عن رأيه الى رأى سعد ..

واقيمت الخيمة واصطف أنصـــار محمد مكانهم امام الماء .. وأخذ رجال من قريش يقبلون طلبا للماء فتتلقاهم السهام .. ولم يعد أحد منهم لجيش قريش بماء ! .. والح العطش على رجال قريش وتشـاور بعض كبارهم فرأوا أن يعودوا ..

ما بقاؤهم على هذه الحالة ؟ وفى وجه من سيرفعون السلاح .. أن لهم لاقارب واخوة وأبناء اعمام بين هؤلاء المهاجرين . ووقف عتبــة بن ربيعة يقول لهم : يا معشر قريش والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا! ولئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه قتل ابن عمه او ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فان اصــابوه فذلك ما أردتم » ·· ولكن أبا جهـــل اتهم عتبة بالجبن ··

وكان بعض رجال قريش قد بدأوا يعانون من العطش،

فخشي ابو جهل أن يستجيبوا لعتبة .. وخشي بصفة خاصة أن يتذكروا أنهم انما يقاتلون أقاربهم ! فأعلن صيحة الحرب فجأة .. واندفع الاسود بن عبد الاسد من صفوف قريش وهو يقسم أن يشرب من حوض محمد عنوة أو يهدمه ! وكان الاسود رجلا شرسا مرهوب الجانب .. ووجم المسلمون والاسود يتقدم ، ولكن حمزة بن عبد المطلب برز له فتقاتلا أمام الحوض .. حتى قتله حمزة. وهكذا بدات الحرب .. واصطف الجمعان .. وقفت قريش فى مواجهة المسلمين . ثم خرج من صفوفها عتبة بن أبى ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعا الى المبارزة متحديا ! كان هؤلاء الثلاثة هم خير المبارزين فى قريش .. فبرز اليهم ثلاثة من اقوى المبارزين الانصار .. لكن عتبة صاح : يا محمد اخرج الينا أكفاءنا من قومنا .. فأمر محمد أن يقوم حمزة ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث .. فبارز حمزة شيبة بن أبى ربيعة وكان هو أفتك قريش ، وتقدم على يبارز الوليد ، وعبيدة يبارز عتبة . أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وكذلك صنع على بالوليد .. وأوشك عتبة أن يظفر بعبيدة لولا ان خف حمزة فأجهز على عتبة ..

وهكذا سقط فى لحظة واحدة ثلاثة من أكبر سادات قريش .. وهم فى الوقت نفسه أفتك شجعانها .. وكبر أصحاب محمد وهللوا حين رأوا الثلاثة يسقطون ..

وصاح محمد بأصحابه : « لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة » . فقال له رجل يأكل تمرات : « أما بينى وبين ان أدخل الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء » وقذف التمرات واندفع يقاتل .. واندفعت صفوف المسلمين تقاتل . والتقى الجمعان ..

كان كل رجل من المسلمين يطمع فى أن يموت فيكسب الجنـــة .. اما رجال قريش فكانوا يقاتلون بالرغبة فى الخلاص من محمد ليعيشـــوا من بعده آمنين بين المتاع والغنى الفاحش والخمر والنســاء .. ثلاثمائة يقاتلون فى حرص هائل على الموت يلهبهم الايمان والحب ، يواجهون بعقيدتهم ألف رجل يقاتلون فى حرص جنونى على الحياة، ولا تحركهم غير البغضاء ونار الانتقام وأحلام السيطرة!.

كانت قريش بفرسانها الالف تملك الاسلحة الحديثة ، ولها خيلها ودروعها ، اما الثلاثمائة مسلم فلم يكن لديهم غير فرسين اثنين ..

وامر محمد رجاله أن يجعلوا همهم وهم يقــاتلون أن يقتنصوا قادة قريش .. فليبحثوا عن أبى جهل الحــكم ابن هشام .. فستنخلع لموته قلوب شجعان قريش ، كما انخلعت تلك القلوب لمصرع شيبة وعتبة والوليد !

لقد أحسن حمزة افتتاح المعركة ، وها هو ذا يخوضها الآن بكل الجسارة التى تعرفها قريش منه . وان فرسانها ليتفادونه ويختفون من طريقه .. والى جوار حمزة يقف على بن أبى طالب باسلا كعمه حمزة .. والى جوارهما سعد بن أبى وقاص .. وهنا وهناك تهوى سيوف يرفعها عمر بن الخطاب ، وبلال بن رباح وكل فرســان العقيدة الجديدة .. ولكن المعركة لم تنته بعد ، فما زالت قريش تزحف بفرسانها الدارعين وقد بدأ بعض فرسان الدعوة الجديدة يسقطون مثخنين بالجراح

أول الانتصارات

مازالت جموع قريش تزحف بمائة من الخيـــــل وســـبعمائة بعير مدربة على القتال ، وألف من الرجال مدرعين .. ان هذه الجموع لتكاد تجتاح ثلثمائة مسلم حاسرين بلا دروع ولا خيل ، فيهم من يدور بسيفه لكيلا يغمده من عدوه فى صدر اخ او اب أو قريب أو عزيز ..

والمقاتلون المسلمون يسقطون : الرجل بعد الرجل !.. لا حيلة بعد ! ..

لتمض السيوف الى غايتها مهما تكن الصـــــدور والرقاب التى تتلقاها .. ومحمد على باب خيمته يدعو بقلب واجف! .. فلئن انتصرت قريش اليوم، لما ارتفعت راية لدعوته بعد ، ولانتهى كل شىء الى الأبد ... وأبو بكر الى جواره يخفف عنه ، ويحمل له العزاء ، والأمل فى الانتصار ..

غير ان قريشا تتقدم من الكثيب الذى نزلت به ، وهى الآن توشك أن تجلى المسلمين عن مكانهم المرتفع ، وتبلغ الماء ، ولئن بلغ فرسانها الماء فشربوا واطفأوا ســـعير العطش ، لما استطاع رجال محمد ان يقفوا بعـــد أمام خيلهم الزاحفة

وحمزة واقف يمنع قريشا عن الماء ، ويقاتل مع نفر قليل موجات مدرعة تحاول أن تنـــدفع الى الماء .. ويسقط فرسان قريش دون الماء ، ولكن رجـــلا منهم

يفلت .. لقد فتح ثغرة وستندفع منها أرتال الفرسان.

ويعود حمزة فيقف بجسده الشامخ يسد هذه الثغرة .. السيف فى يده ، وعلى صدره تخفق ريشة نعامة ، وهو يقاتل شجعان قريش المندفعين الى الماء فيصرعهم الواحد بعد الآخر ويصيح محمد برجاله الا يتركوا قريشا يردون الماء .. انهم عطاش الآن .. فليكن العطش سلاحا ايضا ، وهم متعبون تلفحهم الشمس .. فليمزقهم التعب ، وليستظلوا بسيوف المسلمين ..

اضربوا أيها الناس .. اضربوا أعداءكم ، قاتلوهم بلا هوادة، فالجنة تحت ظلال السيوف. وينتفض المسلمون .. لا تتهيب سيوفهم – بعد – رقابا ، أية رقاب مهما تكن عزيزة ..

وينقض عمر بن الخطاب على خاله فيقتله .. ويحاول عبيدة بن الجراح أن ينحى أباه عن طريقه ليخلص الى فرسان قريش ، ولكن أباه يظل واقفا أمامه بسيفه .. فيقتل أبو عبيدة أباه ثم يخوض فى دم أبيه الى صفوف الأعداء المهاجمين ..

ويقتل على بن أبى طالب بعض بنى عمه .. ويندفع حمزة لايبالى الى الصفوف المتراصة من قريش فيجعل همه أن يضرب شجعانها وساداتها .. وهكذا قتل حنظلة بن أبى سفيان ، والحارث بن عامر ..

ثم لمح نوفل بن خويلد يقاتل المسلمين ويثخن فيهم ، ويدهس بفرسه جثث الضحايا حتى لقد أوشك أن يثير الرعب فى قلوب المسلمين ، فأسموه الشيطان ..

فيندفع حمزة الى نوفل بن خويلد .. ونوفل على فرسه ، خلف الدروع والزرد وراسه فى الدرقة ، ويلكز نوفل فرسه ليدهم حمزة، ولكن حمزة يثب بعيدا ويستدير ويضرب الفرس فيوقعه .. ثم يتفادى ضربة

من سيف نوفل والمسلمون وأعداؤهم على السواء ينظرون ويترقبون فى لهفة نتيجة هذا الصراع الرهيب • ثم يكر حمزة على نوفل ، ويسدد سيفه الى عنقه ، ويخلص حد السيف من بين الحديد والزرد ، ويطير رأس نوفل ..

وهكذا انتصر حمزة على شيطان قريش .. فاطمأنت قلوب كثيرة ، وتدفق المسلمون بصدور حاسرة لادروع عليها ورءوس مكشوفة يشدون على أعدائهم المدرعين .. وريعت قريش ، فتراجعت ...

وخف أبو جهل الى بعض الاحراج ينتظر فرصة يجمع فيها صفوف قريش .. وانتظر على صهوة جواده يتربص لجموع المسلمين .. ولكن المقاتلين كانوا يبحثون عنه ، وخلص اليه اثنان منهم فقاتلاه .. وأيقن محمد أن النصر آت لا ريب فيه .. فهاهم أولاء سادة قريش وفرسانها يتساقطون ..

ما أروعك يا حمزة .. أنت الذى قدت هذه الفئة القليلة الى النصر المحقق .. أنت وحدك وقفت شامخا صامدا تمنع قريشا عن الماء ، وجعلت همك أن تصرع الاقوياء من فرسان العدو • وعندما سقط الشجعان منهم سقطت همة الاخرين ..

أن بعض الفارين من رجال قريش ليتساءلون : « من الرجل المعلم بريشة نعامة فى صدره يحجب وجهه دائما غبار المعركة » فيقول واحد منهم : « أنه حمزة بن عبد المطلب » ، ويتنهد الباقون فى حسرة : « ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل » حقا .. لقد فعلت بهم الأفاعيل .. كنت أنت وحدك جيشا بأسره !

ان عديدا من رجال قريش ليفرون الآن فى طلب النجاة وقد بدأت الهزيمة تغزو القلوب ، حتى قلوب الذين ما

برحوا يقاتلون في الميدان .. وها هو ذا صوت أحـدهم يرتفع منذرا : « أصحاب محمد يزيدون على الثلثمـائة وليس لهم منعة الا سيوفهم وما يقتل منهم رجل الا بقتل رجل منا ، فاذا اصابوا منا أعدادهم وقتلوا منا ثلثمائة فما خير العيش بعد ذلك ؟ .. »

وابو جهل وراء الاحراج مازال يقاتل .. ويسـمع هذا النذير فيرسل ابنه عكرمة الى صـفوف قريش يحضهم على الثبات .. ويذكرهم انهم سادة العـرب وانهم الأكثرون . والمسلمون يندفعون .. ليقتلوا مزيدا من أشراف قريش وشجعانها .. هاهو ذا بلال بن رباح يلقى سيده القديم اميـة بن خلف .. لكم عذبه على رمضاء مكة .. ولكن أمية الآن يستجير بصديقه عبـد الرحمن بن عوف ، ويستأسر له .. هربا من الموت .

غير أن بلال يرفض هذا ، ويصرخ فيمن حوله : «هاهو ذا رأس الكفر أمية بن خلف » .. وعبثا يحاول عبـد الرحمن بن عوف أن ينقذ صديقه ، فقـد صرخ بلال « لا نجوت ان نجا » ..

وان هي الا لحظات حتي اجتمـع حول بلال بعض المستضعفين الذين لاقوا الأذى من امية حين كانوا جميعا في مكة فلاموا عبد الرحمن بن عوف : أن يجبر رجلا اذاهم وآذى محمدا ..

أتهموه بأنه هو التاجر الغنى مازال عـلى الرغم من اسلامه ، يعطف على نفس أفراد طبقته القديمة من أسرة قريش ! مازالت صلاته الشخصية وعواطفه الخاصة ، أعمق من ايمانه .. واغلظ لهم عبد الرحمن وصاح ببلال مزريا عليه : « يا ابن السوداء »

ولكن الوقت لم يكن صالحا للمناقشـة ولا للزراية

بعد .. ان حمزة وعلى يقتلان من بني العمومة ، وعمر يقتل خاله ، وعبيدة بن الجراح يقتل أباه .. فما بال ابن عوف يابى هذا المصير لصديقه الغنى .. الا انه غني مثله . . ؟ واندفع بلال بن رباح يحرج امية بن خلف ، وقاتله حتى قتله .. وحمل راسه على سيفه وهو يرقص طربا تحت غبار المعركة الذى اخذ ينقشع الآن وفرسان مكة يفرون وصفوف قريش تتراجع مضطربة ...

ويتقدم محمد ليرى بنفسه كم من ساداتها يتساقطون، ويرى على ارض الوادى صرعى من بنى عمومته .. رجالا لم يسيئوا اليه من قبل . ويرى المسلمين يتدافعون فى صفوف قريش يصرعون من يلحقونه مهما تكن العلاقة به ، فيأخذه الحزن .. ويصيح بالناس : « انى عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى أبا البخترى فلا يقتله لانه كان اكف القوم عنا ونحن بمكة ، وما بلغنا عنه شيء نكرهه وهو ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم .. ومن لقى عمى العباس بن عبدالمطلب فلا يقتله فانه انما أخرج مستكرها »

كانت صفوف قريش ما زالت تتراجع .. فرد احد الرجال المسلمين مستنكرا :

« انقتل آباءنا وأبنائنا واخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ .. والله لئن لقيته لالجمنه السيف » ..

ونظر محمد الى من ينصفه ممن يلومه ، وانتظر حتى اقترب منه عمر بن الخطاب فلاذ به قائلا : « يا أبا حفص ، أيضرب وجه عمي بالسيف » وعرف عمر بما كان، فغضب على المعترض وقال : « لقد نافق .. دعنى فلأضرب

عنقه بالسيف » ..

وتهيأ عمر للانقضاض على الرجل الذى يعترض ،ولكن محمدا لم يسمح للسيوف التى تتجه الان الى اعناق العدو ، بأن تستدير الى رقاب اخرى ..

وتابع المسلمون زحفهم على جيش قريش ، فوجد بعض الرجال البخترى أمامهم فجأة .. فأبلغوه قول محمد فيه . وطلب البخترى الامان لزميل له ، ولكن الرجال رفضوا واذ ذاك قال البخترى : « اذ لاموتن انا وهو جميعا ، لا تتحدث عني نساء مكة انى تركت زميلى حرصا على الحياة » .. وقاتل حتى قتل ..

ولم تكد الشمس تميل حتى كانت قريش قد انهكها العطش والقتال ، وامضها فقد خير فرسانها وشجعانها وساداتها .. فجمعت فلول جيشها تاركة جثث قتلاها على أرض الوادى .. ولكن المسلمين انقضوا عليهم يأسرون كل من يجدونه .. واذ رأى المسلمون جموع قريش تفر ، امتلأت قلوبهم بنشوة الظفر فمضوا يهنئون بعضهم البعض بالنصر .. ولكن محمدا خشى أن يكون فى الامر مكيدة ــ والحرب خدعة ــ فقد تستدير جموع قريش لتطوقهم ، أو لتداهم المدينة وهم خارجها فأمر الرجال أن يتابعوا الجيش المهزوم ، وأن ينالوا منه .. ومن يدرى فقد يفتح لهم اليهود ابواب المدينة من وراء ظهره ! ..

وانقض رجاله فى أثر الجيش المهزوم ، والجيش يسرع مجهدا من العطش ، معذبا من الهزيمة .. حتى لقد ترك كثيرا من العتاد والمؤونة .. وتأكد المسلمون أن جيش قريش ، انما يعود الى مكة حقا ..

وانقضوا على أرض المعركة يلتقطون منها الغنائم من

الدروع والسيوف والخيل والملابس الحريرية الفاخرة التى كان قد خرج فيها سادة قريش متعطرين ، ليقيموا أياما فى بدر يطعمون الطعام ويسقون الخمر وتغنى لهم الجوارى ، فيخيفوا محمدا وتتسامع بهم العرب ، فيهابوهم

واحتفظ كل رجل بما غنمه لنفسه من العتاد والاسرى .. ولكن محمدا أمر بأن يحمل كل ماغنم ، وكل من أسر الى خيمته . وكان الأسرى سبعين رجلا من بينهم عدد طيب من اغنياء قريش .. وامر بأن يتفقدوا القتلى ليروا عدد قتلاهم وعدد قتلى قريش ، وأمرهم أن يبحثوا عن أبى جهل بصفة خاصة أقتيل هو أم فى الاسرى ؟! وعاد اليه عبد الله بن مسعود براس أبى جهل ! ...

كان أبو جهل فى حقل المعركة يلفظ انفاسه وهو يلعن محمدا وصحبه ، فوضع عبد الله قدمه على صدره .. ثم قطع راسه ليحملها الى محمد .. وحين رأى راس أبى جهل قال لعمار بن ياسر : قتل الله قاتل امك ..

وتفقد محمد أرض المعركة بنفسه فوجد أن من قتل من رجاله أربعة عشر بينهم اخو سعد بن أبى وقاص ثم زوج حفصة بنت عمر .. اما قتلى قريش فانهم لسبعون

وأخذ محمد ينظر فى وجوههم : عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، وابنه الوليد بن عتبة ، ثم أمية بن خلف ، وزمعة ابن الاسود ، ونوفل بن خويلد ، وأسود بن عبد الاسود .. سادات وفرسان وشجعان من قريش ، كلهم آذاه ذات يوم واستعلى عليه وازرى به ، وكلهم كذبه واهانه .. وكلهم حاول أن يقتله

وطلب محمد من رجاله أن يواروا القتلى التراب بلا استثناء .. وان يلقوا كبار رجال قريش فى بئر جاف ، ويضعوا عليهم الحجارة ..

وعاد فى موكب ظافر متجها الى المدينة، وحوله رجاله يجرون الاسرى مشدودى الوثاق .. ونظر فى وجـــوه صحابه فوجدها تضىء بنور النصر .. الا وجه حذيفة ابن عتبة . وكان حذيفة يسير الى جوار حمزة قاتل أبيه . فسأله محمد : « لعلك قد دخلك من أمر أبيك عتبة بن ربيعة شىء ؟ » فقال حذيفة : « ما شككت فى ابى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من ابى رايا وحلما وفضلا ، وكنت أرجو أن يهتدى فلما رايت ما أصابه بعد الذى كنت أرجوه له أحزننى ذلك » ..

واندفع الموكب الظافر .. وسمع محمد ضـــحكات رجاله من خلفه وهم يسوقون الأسرى او يجرونهم .. ومصعب بن عمر يقول لبعض صحبه : « أحكموا شـــد وثاق أخى فان له أما غنية ذات متاع لعلها تفديه » .. ونظر محمد فوجد الأسرى يسيرون مشدودى الوثاق.. فقال لصحابه : « استوصوا بالاسرى خيرا .. »

وأمر الراكبين أن يحملوا الأسرى معهم ، وأمرهم ان يسقوهم حتى لا يهلكوا من العطش .. ولمح بين الأسرى زوج بنته زينب ، وعمه العباس بن عبد المطلب ..

وعلى مشارف المدينة أقبلت وفود من القبائل الموالية لمحمد تهنئه بالنصر ، فقال لهم رجل من صحبه فى زهو الانتصار : « ما الذى تهنئوننا به ؟ .. ان لقينا الا عجائز صلعا كالابل فنحرناها . . »

وكره محمد من صاحبه هذا الصلف فقال : « أى ابن أخى أولئك الملأ » فما يليق أن يستهينوا باقدار الناس لأنهم هزموا . .!

ولم يكد محمد يصل الى أبواب المدينـــة حتى وزع الأسرى بين صحبه ونصحهم مرة أخرى ان يحســـنوا

معاملتهم ، حتى يرى فيهم رأيه . وفكر مليا ثم استشار اصحابه فرأى عمر أن يقتلوا جميعا ، فقد أقبلوا عادين يريدون البطش بالمسلمين ، ولكن أبا بكر رأى أن يمنحهم الفرصة فقد يتبعون الدين الجديد فيما بعد ..

ومال هو الى رأى أبى بكر .. فليس كالعفو شيء يفتح القلوب المغلقة .. وقضى أن يطلق سراح كل أسير يرسل قومه فديته ، والأسير الذى يعلم عشرا من صبيان المسلمين .. فتقدم اليه أسير يشكو فقره ، فما لديه ما يفتدى به نفسه : لا مال ، ولا علم ، وله بنات فى مكة يقوم عليهن .. فأطلق سراحه وتركه لبناته يعولهن واشترط عليه الا يعود الى حربه مرة أخرى .. !

وأرسلت قريش تفتدى أسراها ، وعلم محمد من بعض الذين اقبلوا يفادون الأسرى ، أن قريشا تستعد ليوم الانتقام ، وأنها ستحشد للمسلمين جيشا يسد عليهم عين الشمس . وكان قد أطلق كثيرا من الأسرى ، ولم يعد غير القليل .. فانقطع يفكر ، وخرج الى أصحابه يقول انه انما أخطأ هو وأبو بكر حين لم يستمعا لنصيحة عمر ، فما كان له أن يترك لقريش أسراها لتستعين بهم على حربه مرة أخرى .. ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ! ..

ولكنه على أية حال لا يستطيع أن يطبق على الأسرى قاعدتين مختلفتين ، فليقبل الفدية اذن فيمن بقى ! .. كان مازال مقيما عند بعض حلفائه خارج المدينة يقبل الفدية عن كل أسير يفتديه اهله فيضمها الى الغنائم التى غنموها .. وبلغ ما جمعه من الفدية أربعين الف درهم .. حسنا ، انه لمبلغ صالح يتجهز به للحرب أن فكرت قريش فى عدوان جديد ! .. واستبطأ المجاهدون توزيع

الغنائم التى غنموها فى الحرب . لقد أمرهم محمد أن يلقوها اليه .. ولكنه لم يوزعها بعد !

وتحدث بعضهم الى بعض عن الامر ، فذهب كل منهم مذهبا فى توزيع هذه الغنائم ، حتى لقد اختلفوا عليهـا خلافا كبيرا وساءت أخلاقهم فى هذا الخـلاف . فأما الذين كانوا يقاتلون العدو فقد رأوا أنهم أحق النـاس بهذا المتاع ، فلولاهم لما أصاب الذين غنموا ما غنموه !

وقال الذين غنموه انهم هم أصحاب الغنائم وحدهم فليس لأحد سواهم حق فيهـا ! .. وقال الذين كـانوا يحرسون خيمة محمد انهم كانوا يستطيعون أن يحاربوا كالمحاربين وأن يغنموا كالغانمين ، ولكنهم خافوا ان يتركوا خيمة محمد فيكر عليه العـدو ! .. أوشك القوم أن يقتتلوا فى توزيع الغنائم ، واسـتحمق بعضهم فكاد أن يرفع السيف فى وجه أخيه ..

وخرج محمد يصـيح فى الناس مغضبا : انكم لاولى الناس ببعض ، فليكن الحب هو ما يحكم بينكم لا المنافسة على عرض الدنيا ! فانكم اذا لم تجعلوا بعضكم احباء بعض وأولياء بعض .. ان لم تجعلوا الصفاء دسـتوركم .. تكن فى الارض فتنة وفسـاد كبـير .. ثم أمر أن توزع الغنائم بين الذين خرجوا جميعا .. على السواء !

واذعن الجميع لهذا الحكم . وخرست أصوات الطمع ولكن بعض النفوس كانت تميـل الى أمتعة بالذات ، فقصدت محمد تسأله ، فلم يرفض محمد لأحد سؤالا .. ومنح الارقم سيفا كان قد غنمه ، عندما مالت نفس الارقم الى هذا السيف ..

ودخل محمد الى المدينة فأتى المسجد يخطب فى الناس ويعلنهم بأسماء سادات قريش الذين هلكوا . ثم خرج

من المسجد الى بيت ابنته رقية يعودها فى مرضها ، قبل أن يذهب الى بيته ولكن رجالا استقبلوه واجمين ! ..

كانوا عائدين من جنازة رقية بعد أن دفنوها ..

وعانقه زوجها عثمان باكيا .. ومضى به الى قبر رقية ، فانحنى محمد يبكى على القبر بين صحابه .. ومال عليه أصحابه يواسونه ، وقال له أحدهم : « كفى بكاء على القبر .. اتفعل ما تنهانا عنه » وأخذوه وعادوا الى بيته، يخالج زهوه بالانتصار ، شعور عميق بالحزن ، ويبلل الدمع صوته المظفر ..

ولم يكد يتقدم فى الطريق الى بيته بين صحابه حتى اعترضه رجل من سراة اليهود بنظرة غريبة .. ومضى اليهودى يهمهم : « أن قريشا لا علم لها بالحرب أما لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس » ..

حتى انتصاره على قريش يشوهه اليهود !! .. مابالهم يتحرشون به ويستفزونه الى القتال .. ولكنه لا يريد أن يصدع الحلف فى المدينة . سيصبر على اليهود ، ولن يرفع السلاح فى وجه أحد من سكان مدينته .. فهو اليوم أشد حاجة الى الوحدة من أى وقت مضى ، فقريش تستعد للثأر ، وقد حرمت البكاء على قتلاها السبعين حتى تثأر لهم .. !

ومضى هو قبل أن يدخل الى بيته يواسى أسر القتلى الاربعة عشر !

ثم عاد الى بيته .. ومر بسودة أول الامر ، فوجدها تعنف قرشيا أسيرا أوثق الى ركن فى الحجرة وتنهره لانه لم يقاتل حتى الموت وقد آثر الحياة واستأسر!

ما هذا أيضا ؟! .. امرأته سودة تحرض عليه ؟! وزجرها .. فاعتذرت ! . اين هذه من خديجة ! ؟ ..

وتركها وانصرف الى عائشة ، زوجته الصغيرة الحسناء التى افتقدته طويلا ..

ووجد عند عائشة طيب اللقاء ، وحسن المواساة عن موت ابنته رقية ..

وما هى أن استراح حتى جاء رسول من مكة يحمل من ابنته زينب فدية زوجها الاسير . واستلم محمد الفدية ، وفتحها فاذا هى حلية لزوجته الراحلة خديجة كانت قد وهبتها ابنتها زينب ليلة الزواج .. وامسك محمد الحلية فى يده .. وتأملها طويلا ، وسالت دموعه. ها هو ذا الآن يمسك بيده شيئا عزيزا من زوجة راحلة أحبها كما لم يحب أحدا من النساء او الرجال .. وانه الآن ليوشك أن يضم هذه الحلية الى مال الفدية فتباع!!

وارسل الى بعض أصحابه يستأذنهم أن يرد الى ابنته فديتها ويطلقوا لها أسيرها .ووافق كل صحبه. فأرسل الى زوج زينب ينبئه باطلاق سراحه على شرط ان يطلق زينب ، ويرسلها الى المدينة ..

وكان زوج زينب يحبها ، ولقد واجه قومه حين أمروه ان يطلق ابنة محمد ليزوجوه خيرا منها فقال لهم انه لا يعدل بها كل أبكار قريش ، على أنه قبل أن يرسلها الى أبيها !

وانطلق زوج زينب الى مكة بحلية زوجته . وحاول أن يرسلها الى أبيها ، ولكن قريشا عارضته وخشيت أن يظن بهم محمد الخوف بعد الهزيمة .. وسألوه أن ينتظر أياما ، فلم يقبل وأرسلها على ناقته ، فوثب بعض رجال قريش على الناقة واوقعوا المرأة الصغيرة من عليها .. وكانت حاملا فأجهضت .. وسأل محمد أصحابه أن يهبوه عمه العباس ــ اذا شاءوا ــ فأطلقوا سراحه بلا فدية وعاد

العباس الى قريش ليرسل الى محمد كل أنباء الاستعدادات !

لقد منعت حكومة مكة البكاء على الاموات حتى تأخذ بثأرها من محمد وحمزة .. وكل المساهمين فى القافلة التى كان يقودها أبو سفيان يتنازلون عن أموالهم لتجهيز غزوة ضد المدينة

ورفض ابو سفيان ان يفدى ولده الاسير ، واقسم أن يطلقه بحد السيف .. وأقسمت زوجته هند الا تتعطر والا تقترب منه حتى يأخذ بثأر أبيها عتبة وأخيها الوليد

وسمع حمزة بما تصنعه هند بنت عتبة فابتسم مستخفا ، وسمع حسان بن ثابت بتحريضها على قتل محمد وحمزة ، وبدورانها بين نساء قريش وعبيدها الاحباش ، فانشد شعرا يهجوها ويهون من شأنها ، ويسخر باغرائها الرجال ، وافحش عليها ..

وتجار قريش يرسلون الوفود خفية الى تجار اليهود فى المدينة ليساعدوهم على النيل من محمد .. وان يحصلوا على رأسه ان استطاعوا ، أو على رأس حمزة

ووسط هذا الغليان الجنونى المتوحش من الكيد والرغبة المفترسة فى الانتقام عاش محمد أيام ما بعد النصر ..

وهو يذكر باعجاب بلاء على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبيدة بن الجراح ، وبلال وعمار بن ياسر .. وقبل كل هؤلاء حمزة بن عبد المطلب !

صراع من الداخل

انطلق عبد الله بن ابى يهمس لبعض المسلمين الذين لم يخرجوا الى بدر ، ان محمدا يحرمهم من الغنائم ويوزعها على من يحب ، فعثمان بن عفان لم يخرج مثلهم الى الحرب فى بدر ، لكن محمدا أعطاه نصيبه من الغنائم ايثارا له لانه زوج ابنته رقية ! ..

وحذر بعض المسلمين عبد الله بن أبى ، أن ينشر بينهم البغضاء ، فما آثر محمد صهره عثمان بخير ، وانما أنجز وعده .. فقد كان عثمان يلح على محمد فى الخروج معه الى بدر ، ولكن محمدا أمره أن يبقى ليقوم على تمريض رقية ، زوجته ، ووعده أجر المجاهدين .. ومهما يكن من شىء فقد ماتت رقية بنت محمد ، ومحمد مجروح القلب .. فما يليق بأحد أن يؤذيه فى عثمان زوج ابنته الراحلة ، وعثمان بعد تاجر واسع الثراء لا حاجة له بأموال الغنائم ..

وعاد عبد الله بن أبى يحرض الرجال على المطالبة باقتسام الاموال التى افتدت بها قريش أسراها .. ولكنهم وعظوه أن يكف ، فهم يقرون محمدا على تخصيص جزء كبير من هذه الاموال للدفاع عن المدينة ان فكرت قريش فى الثأر ..

ولم يسكت عبد الله بن ابى ، فقد رجع محمد ظافرا من بدر ، ورجع معه المسلمون سكارى بنشوة النصر .. ولقد مكن هذا الانتصار لمحمد فى الارض فلم يعد لعبد

الله بن ابى ، أمل بعد في ان يضع على رأسه تاج المدينة !..

وانه ليوسوس للناس أن محمدا يأمر غيره بالاعراض عن متاع الحياة الدنيا ، ثم ينفق هو الاموال على طعامه وشرابه ، واثاث بيته .. فقد اتخذ لنفسه اثاثا كالذى يتخذه كسرى .. قال هذا ودس الى امرأة من الانصار فراشا وثيرا ثمينا حملته الى عائشة ، المرأة الصغيرة الحسناء التى تحب المتاع وتهوى الثراء . وسمع محمد هذا فعاد الى بيته ليجد عائشة مسترخية على الفراش الجديد تغمرها الفرحة ، وهى تتحسس بجسدها لين الفراش .. فسألها فى غضب : « ما هذا يا عائشة ؟ » .. فقالت له : « امرأة من الانصار دخلت فرأت فراشك فبعثت الى بهذا » .. فأمرها أن ترده ..

رد الفراش الى المرأة التى اهدته ، واستلقى محمد على الحصير كما تعود .. واقبل عمر بن الخطاب ليتبين الصدق فيما يتهامس به بعض الناس فى المدينة أن محمدا ينفق أموال الفدية على آثاث جديد فاخر يزين به بيته .. دخل عمر واخذ يتامل كل مافى بيت محمد من متاع وطعام . ان كل شىء على حاله لم يتغير ، ومحمد على الحصير . وفاض الدمع من عينى عمر فسأله محمد : « مايبكيك يا ابن الخطاب؟ » . فقال عمر : « ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها الا ما أرى »

واخذ محمد يسرى عن عمر ، ويعلمه ان قيمة الانسان ليس فيما يملكه من متاع ، بل فيما يملكه من قدرة على اسعاد الاخرين ، فالاعمال الطيبات هى مايبقى للانسان ، والباقيات الصالحات خير ابدا . وعلى اية حال فان

مايجب أن يشغل الناس اليوم ؛ انما هو الموقف بعد المعركة.. أما مايرجف به بعض المنافقين فى المدينة، فلا يجب أن يشغل الناس عن مواجهة المستقبل ..

وشكا عمر لمحمد مايلقاه الارامل بعد وفاة أزواجهن فى بدر .. وأحس محمد أنه هو المسئول عن كل شىء ، وأن عليه أن يأسو هذه الجراحات .. سيجرى على أسر الشهداء نفس المعاش الذى كان يكسبه عائلوها الشهداء ، أما الارامل الصغيرات ، فانه لمسئول عن تعويضهن بالازواج ، خوف الفتنة .. وبث عمر لمحمد الما يضيق به صدره .. فابنته حفصة ، أرملة صغيرة جميلة استشهد زوجها فى بدر، ولقد عرضها عمر على عثمان فقال له أنه لا يفكر الان فى الزواج ، ثم عرضها على أبى بكر فسكت ولم يقل شيئا ..

وابتسم محمد وسأل عمر الا يغضب ، وستتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة . وخطب حفصة لنفسه .. فقام عمر يجهزها ، معجبا فرحا . ولقى ابا بكر فى بعض الطريق ، فأنبأه بخطبة حفصة فقال ابو بكر : «ان الرسول ذكرها أمامى فلم أكن لافشى سره ولو تركها لتزوجتها » .. وجهز عمر حفصة وحملها الى بيت محمد ، ومضى محمد يحض صحبه القادرين ان يتزوجوا أرامل الذين استشهدوا عسى ان يعوضوهن عما فقدن ..

وقسم محمد لياليه بين زوجاته الثلاث : سودة وعائشة ، وحفصة .. ولكنه معذلك كان يجمعهن عند صاحبة النوبة فى الصباح ، ليعظهن ، وفى المساء ليسمر معهن ويقص عليهن ما رآه فى رحلاته ، وكثيرا من

الحكايات والامثال ..

وكثر تردد عمر على بيت محمد ، منذ دخلتـــــــه حفصة ، فلاحظ ان النــــاس يدخلون بيت محمد فى النهار والليل بلا استئذان ويقتحمون اليه فى مخادعه ، ويتحدثون الى زوجاته وقد تـكون الواحدة منهن فى ثياب منزلية لا تصلح لاستقبال رجل غريب

وضاق عمر بهذه الحال ، واوشك ان يأمر ابنته حفصة أن تحتجب .. ولكنه آثر أن يتحدث الى محمد نفسه فقال له : « يارسول الله ان نساءك يدخل عليهن البـر والفاجر فلو أمرت امهات المؤمنين بالحجاب » .ولكن محمدا كان فى شغل عن هذا .. بأمر قريش ، ومستقبل المدينة بعد انتصاره فى بدر .. انه ليثق فى نسائه ويثـق فيمن يدخله بيته ، فعلام يغار عمر ؟ .. فليفكر معه فى امر قريش .. فهذا أجدى ..

وقريش لم تذق أبدا مثل تلك الهزيمة التى ذاقتها فى بدر .. وصديقه ابو بكر ذو الثقافة الواسعة يؤكد له أن الجزيرة العربية لم تعرف فى كل تاريخها مثل هـــذه النكبة .. حتى المعارك التى دامت سنوات طويلة بين هذه القبيلة او تلك لم ينكب فيها اى المتحاربين بسبعين قتيلا وسبعين أسيرا ..

والوسائل السرية ترد مـن العباس بن عبـد المطلب تحمل انباء استعدادات قريش للقتال ، وحرص قريش على أن تظفر براس محمد وراس حمزة جميعاً ، وســعى تجار قريش لمحالفة يهود المدينة ومحالفة القبائل التى تضرب خيامها خارج المدينة ..

لقد غيرت قريش طريق تجارتها الى الشام منذ بدر، واتخذت طريقا طويلا عبر العراق ، معتمدة على قبائل بنى

سليم .. ولكنها لن تلبث أن تتحالف مع القبائل المجاورة للمدينة ، فتطوقها ، وتعود قوافلها الى الطرق المألوفة

ولقريش حلفاء فى قلب المدينة ذاتها ، وهم يهود بنى قينقاع .. ويهود بنى قينقاع يسيطرون على شمال الحجاز ، فلأغنيائهم هناك ضياع واسعة ، يستثمرون فيها الاموال ، وكبار التجار منهم يملكون هناك المصارف التى تقرض بالربا ، وليس لاحد غيرهم نفوذ فى تلك الاسواق .. وهم يتعاملون مع تجار قريش ، ويتقاسمون الفائدة . ولكن اندحار قريش فى بدر ، والانتصار الساحق المدوى الذى حققه المسلمون ، كل هذا أصبح يهدد نفوذ بنى قينقاع فى أسواق شمال الحجاز .. ومن المسلمين ــ بعد ــ تجار كبار يزاحمونهم فى المدينة نفسها . ومن بدوى فقد يزحفون أيضا الى أسواق الشمال ..

ان ثمة مصلحة مشتركة بين قريش وبنى قينقاع فى شمال الحجاز ، وهذه المصلحة يهددها منذ اليوم انتصار المسلمين فى بدر .. ولكن بنى قينقاع لم يجاهروا بالعداء ، وما زالت صحيفة المحالفة قائمة بينهم وبين محمد ، وهم فى النهاية حلفاء لعبد الله بن أبى ولشيعته الاقوياء بين الانصار .. ولكن عبد الله ما زال يحمل على رأسه لافتة الاسلام ، أما ما فى القلب فشىء آخر ، ويهود بنى قينقاع لم يجاهروا بنقض صحيفة المحالفة .. انهم ليشكلون خطراً .. هذا حق . ولكنه خطر مقيم وسط المدينة ، من الممكن حصره والتغلب عليه آخر الامر ..

أما الخطر الداهم حقا ، فهو بنو سليم .. انهم ليوادون قريشا ، وييسرون لها طرق التجارة ، ويحالفونها جهرة معتمدين على مالهم من هيبة وسمعة حربية .. وهم يقيمون فى جبال بعيدة عن المدينة ، يعتصمون فيها ويستقوون على خصومهم . ولئن سكت عنهم محمد

لتشجع عرب آخرون على الانضمام الى قريش ، ولظن كل العرب ، ان محمدا يقعد عن بني سليم خوفا من فرسانهم . وارسل محمد الى بنى سليم يطلب منهم الا يظاهروا قريشا عليه . ولكن بنى سليم استخفوا به ، ومضوا يغالون فى محالفة قريش ، فحشدوا بعض فرسانهم لحراسة قوافلها .. ولم تبخل عليهم قريش فزودتهم بالاموال والسلاح ..

وهكذا وجد محمد نفسه مضطرا الى مهاجمة بنى سليم حماية لانتصاره . وحشد جيشا من الذين لم يستريحوا بعد من معركة بدر ، ولكن نشوة الانتصار كانت تؤجج حماسهم .. وقاد هو بنفسه الجيش الى مضارب بنى سليم ..

ولم يكد محمد يقترب بجيشه من ديار بنى سليم ، حتى أدركت القبيلة أن ما وقع بقريش فى بدر قد يقع لها ونصح شيوخ القبيلة فرسانها أن يتجنبوا القتال . ولكن محمدا كان يتقدم .. فتركت بنو سليم منازلها ومتاعها وفرت برجالها ونسائها وأطفالها .. ودخل محمد بجيشه ديارهم فلم يجد من يحاربه ، وعاد بغنائم كثيرة دون أن تراق قطرة دم واحدة ..

وكان من بين ما غنمه محمد وجيشه خمسمائة من الابل .. وهى ثروة بأسرها . وتحرجت القبائل المحيطة بالمدينة بعد هذا الانتصار الخاطف الغريب الساحق ، فقطعت مفاوضاتها مع قريش .. وخشيت أن يقود محمد مثل هذه الحملة عليهم . وما منهم قبيل له منعة بنى سليم ..

وعاد محمد الى داره كما تركها .. يقضى الصباح مع زوجاته يعلمهن ويبصرهن بأحكامه فى علاقات الرجال والنساء ويطالبهن أن يعلمن النساء المسلمات مما علمهن،

ثم يستمر معهن فى الليل ، ويروى حكايات شائقة عن رحـــلاته وغزواته ، وهو يخصف نعله بنفسه أحيانا أو يرقع ثوبا له ..

ثم يأمر نساءه ـ بصفة خاصة ـ أن يحتجبن ، لأنهن لسن كأحد من النساء ..

ومضى يأمر نساءه بالاعراض عن متاع الحياة الدنيا ، ويحضهن على ان ينبذن أحلام الغنى ، واخذ يضع لكل المؤمنات والمؤمنين ، قواعد للسلوك فيما بينهم .. وانذر من يخالف ، بعذاب عظيم .. على أن مايشغله الآن لهو امر يهود بنى قينقاع ، ومراسلاتهم السرية مع قريش ، وتربصهم به ، ليثبوا عليه وعلى من اتبعه ..

وهاهم أولاء يصنعون أكثر من هذا .. انهم ليدعون خير محاربى بدر ليســمروا ويشربوا فى بيوت أعدوها للمتاع ، وزودوها باليهوديات الفاتنات وبالخمر القوية الفاخرة التى اشتهر بنو قينقاع بصناعتها .. ولقد مر على بن ابى طالب بأحد المشارب ومعه ناقتان غنمهما من بدر .. وذهب لبعض شأنه وعاد فاذا به يجد الناقتين قد نحرتا . وسأل من صنع هذا فقيل له انه عمه حمزة وهو فى ذلك البيت يشرب ويطرب .. وذهب يشكوه الى محمد فانطلق محمد مع على حتى جاء البيت الذى به حمزة فاستأذن فأذنوا له .. فاذا هم جميعا سكارى، واذا حمزة فى نشوة الخمر يقول لمحمد : هل انتم الا عبيد أحباش ! . وانسحب محمد مشفقا .. وان هى الا أيام حتى كان يطوف بالمدينة مناد يحمل الامر بالنهى عن الخمر .. انها لحرام ..

سيعاقب من يشربها مهما يكن شأنه ، وان كان من الذين شهدوا بدرا ! . واغتاظ بنو قينقاع واعتبروا الامر موجها ضدهم .. أكبر منتجى الخمر فى المدينة ..

لا تعايش مع محمد بعد !! يجب أن يجتثوه من هذه الارض

ومرة أخرى أرسلوا الى قريش يستحثونها على المبادرة بغزو المدينة ، وستجد قريش كل بنى قينقاع يفتحون لها الابواب المغلقة ! .. الموقف حرج فى الحق فهو لايستطيع أن يواجههم بالعداء ، وهم مازالوا – فى الظاهر – يراعون شروط صحيفة التحالف فيما بينهم ، فلو انه صارحهم بما بلغه عن مراسلاتهم السرية مع قريش لكشف عمه العباس بن عبد المطلب ، الذى مازال يقيم فى مكة ، شريفا مبجلا غنيا ، واسع التجارة ، متشابك المصالح ..

وقرر محمد أن يذهب اليهم فيدعوهم الى اتباعه ويحذرهم أن يسلكوا معه كما سلكت قريش .. ولكنهم ردوه قائلين « يامحمد انك ترى أننا كقومك ! لايغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، انا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس » . وعلى الرغم من السخرية والتهديد الواضح فقد صبر محمد عليهم .. ورأى بعض صحبه أن يقاطع اليهود فلا يحل لمسلم أن يتعامل معهم .. ولكنه أبى . انه ليستعد للقاء قريش ولكنه لن يخرج من المدينة حتى يؤمن ظهره

وعاد يتلطف الى بنى قينقاع ويطالبهم أن يصفوا له الود .. فما من شىء يمنع من هذا الصفاء . ولكن قادة بنى قينقاع كانوا يضيقون بمنافسة تجار المهاجرين ، ويضيقون بالقواعد الجديدة التى تحكم المعاملات ..

وهكذا ظلوا يكيدون ، وينتظرون أن تقبل قريش لتسحق محمدا وصحبه وتعاليمه .. وسيفتحون هم لها أبواب المدينة ..

وخلال تلك الايام المتوترة من الشك المتبادل ، والكيد ، أقبلت على سوق بنى قينقاع بدوية مسلمة

ببضاعة لها .. وقد ضربت خمارها فوق وجهها ، كما أمرتها تعاليم الاسلام .. وباعت البدوية بضاعتها ، ثم اتجهت الى أحد الصاغة اليهود لتشترى حلية . وتعرض لها بعض فتيان اليهود ، وقد استهواهم جمال بدنها ، واشراق وجهها تحت الخمار ، فمضوا يتغامزون عليها ، ويسخرون بهذا الخمار الذى تخفى تحته جمال وجهها ، ويهزأون من الاسلام الذى تقضى تعاليمه بحجب مثل هذا الجمال عن العيون ! ..

واغتاظت المرأة من هذا كله ـ وبصفة خاصة ـ من سخريتهم بالاسلام .. وحاول بعض الرجال المسلمين فى السوق أن يكفوا شباب اليهود عن المرأة وعن الهزؤ بالاسلام . ولكن الشبان اليهود لم يحفلوا ، وانقضوا على المرأة يحاولون نزع حجابها بالقوة ، فصرفهم عنها الرجال المسلمون .. وفى هذه الاثناء كان الصائغ اليهودى قد عقد طرف ثوب المرأة الى ظهرها وهى لاتشعر ، واثبت طرفا آخر من الثوب الى مقعدها بمسمار صغير ..

وبعد أن اشترت المرأة حليتها ، وقفت لتنصرف ، فتعرى ظهرها ثم تعثرت فوقعت على الارض وقد انكشف ثوبها عن جسدها ، وتمزق بعضه ، فتعرت ! .. وفتيان اليهود يتدافعون عليها ضاحكين ، وهى تصرخ فى ذعر . واذ ذاك انقض الرجال المسلمون يدفعون عنها .. وانقض أحدهم على الصائغ ، فتقاتلا ، وقتل الرجل المسلم ذلك الصائغ اليهودى ، فتجمع اليهود على الرجل المسلم ، فقتلوه وشاع الخبر فى المدينة .. وانفجرت الازمة واضحة صريحة !

واعتصم اليهود فى حصونهم بحى الصاغة ، واعلنوا نقض الصحيفة ، وشنوا الحرب سافرة وانتظروا عون بقية يهود بنى قريظة وبنى النضير ..

وامر محمد رجاله من الانصار أن يحاصروا بني قينقاع في حصونهم .. ولكن عبد الله بن أبى ، ذهب الى رجاله من الخزرج ، يذكرهم بحلفهم القديم مع بنى قينقاع قبل أن يأتي محمد .. فصده بعض الخزرج ، وشكوه الى محمد ، وسألوا محمدا أن يأذن لهم فيقطعوا رأسه ، لأنه بموقفه هذا انما يفسد في الارض ويوشك أن يثير الفتنة بين المسلمين ! .. ولكن محمدا رفض ، وآثر ألا يهدر دما في المدينة .. وجاء رجال من الاوس يطالبون بقتل عبد الله بن أبى ، وخشي محمد أن تثور الفتنة من جديد بين الأوس والخزرج ، فأمر الانصار جميعا أن يتركوا عبد الله بن أبى ، وسيتولى هو بنفسه أمر الرجل ! ..

واستخذى عبد الله بن أبى .. وحين أدرك أنه لن يبلغ مايريد من أثارة الخلاف ، وأنه لن يستطيع أن يساعد بني قينقاع ، صبر لبعض الوقت .. غير أن المسلمين شددوا الحصار على حى الصاغة ، وبنوقينقاع خلف حصونهم لاينجدهم أحد . وأرسل بنو قريظة وبنو النضير الى محمد يؤكدون له انهم مازالوا على تمسكهم بصحيفة المحالفة ، وانه لاشأن لهم ببنى قينقاع .. أما بنو قينقاع ، فعلى رؤوسهم هم وحدهم يقع وزر ما أقترفوه !

وبعد خمسة عشر يوما من الحصار المضنى استسلم يهود بنى قينقاع بلا شروط .. وتركوا أمرهم الى محمد يقضي فيهم كما يشاء ! وتذكر عبد الله بن أبى أن صحيفة المحالفة بينهم وبين محمد ، تقضى بقتل كل خارج عليها ! ..

وانتظر عبد الله أن يقضي محمد بالموت على كل يهود بنى قينقاع .. ولكن محمدا لم يصدر حكما .. وأشار

عليه الكثيرون أن يقتلهم تنفيذا لأحكام الصحيفة ، ولكنه رفض !

وتقدم اليه عبد الله بن أبى قائلا « يامحمد أحسن فى موالى » .. فلم يجبه محمد . فعاد يلح عليه ، فقال له محمد : دعنى . ولكن عبد الله بن أبى أدخل يده فى جيب محمد قائلا : « والله لا أدعك حتى تحسن الى فى موالى .. انهم أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر منعونى من الأسود والاحمر تحصدهم فى غداة واحدة ! والله انى لا آمن وأخشى الدوائر » . فقال محمد « هم لك » . وامر محمد بأن يخرجوا جميعا من أرض المدينة .. فهى ليست أرضهم ، وانما كانوا قد جاءوها غازين من قبل فأقاموا بها وسادوا تجارتها ، وانشأوا فيها حى الصاغة ..

وحرص محمد على الا يمسوا بسوء اثناء الخروج ، فعين أحد زعماء الانصار قائدا على نفر من رجاله يراقبون خروج اليهود .. وساروا فى التيه أياما حتى بلغوا جنوب الاردن ، فاستوطنوها ، ولم يقتل منهم احد . وغنم المسلمون منازلهم وأسلحتهم وكثيرا مما تركوه من متاع ..

ولم يكد المسلمون يستريحون حتى جاءتهم الانباء أن بعض حلفاء قريش يريدون غزو المدينة ، فخرج محمد بنفسه على رأس قوة ليواجه الجيوش المتقدمة من ثعلبة وغطفان ، وأدركهم المسلمون وطاردوهم ، حتى قمم بعض الجبال .. وانهزمت جيوش ثعلبة وغطفان ..

وعرفت قريش هذا ، فضاعفت من عزمها على ضرب محمد ..

لابد من ضربة سريعة حاسمة ، تعيد الثقة بقريش الى قلوب العرب جميعا .. ان كل الاسرى الذين امتقوا

ليستعدون الآن لغزو المدينة .. ولقد وجدت هند بنت عتبة الآن من يأتى لها برأس حمزة .. وجدت عبدا اسمه وحشى يجيد القذف بالحربة على نحو لا عهد للعرب به .. ان هذا العبد عند رجل مات أخوه فى بدر بطعنة من حمزة .. وهند تعد العبد بكل شىء ، وصاحبه يعده بأن يعتقه ان هو قتل حمزة ! .. حمزة دائما !

وتحشد قريش جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل .. قوامه الاحابيش والعبيد الذين يكونون شرطة مكة وجيشها ، وعلى رأسه فرسان مكة وشجعانها ، والحلفاء من قبائل تهامة وكنانة .. كلهم يخرجون على مئات الخيول والجمال المدربة على القتال ، فى الدروع والزرد .. ومن ورائهم نساء مكة وجواريها الحسان ، فى أجمل زينة ، تقودهن هند بنت عتبة .. بين حاملات الدفوف ، متعطرات متأنقات .. يشحذن همم الرجال ويرددن الاغانى وراء هند ويقسمن الا يسمحن لرجالهن بالاقتراب منهن ، حتى يهزموا محمدا ويعودوا برأس حمزة ! ..

مامن رجل فى هذا الجيش الا يحمل فى قلبه حبا للانتقام ، أو رغبة فى استعراض قوته أمام زهرات نساء قريش وأفتن جواريها .. ان رنين الطبول وقرع الدفوف ، وصيحات النساء المتعطرات .. كل ذلك يدفع على أمواجه الملتهبة جيشا لم تعرف الجزيرة العربية مثله من قبل ، تحت قيادة أبى سفيان .. بجناحين من الفرسان يتقدمهما خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل . ويندفع الموكب الصاخب الذى يعوى فى طلب الدم ، وتختلط فيه صيحات النساء بهزيم الخيول وهتافات الرجال ..

انهم يمضون جميعا الى مشارف المدينة الى جبل أحد !

وتلقى محمد رسالة من عمه العباس يصف فيها كل شىء بالتفصيل .. واذن فموعدنا أحد .. اثبت أحد !!

ثمن العصيان

ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحلفائها واحابيشها ، يندفعون الآن كاعصار مخيف . يختلط فى أعماقهم حب الانتقام بأحلام السيطرة .. انهم ليزحفون ويزحفون . ولقد أوشكوا أن يقرعوا أبواب المدينة على من فيها من نساء وأطفال وشيوخ ، وعلى العقيدة التى تلهب حماس الرجال ، وتنشىء انسانا جديدا ، وانهم ليستريحون فى وادى أحد .. على مقربة من المدينة ! ..

واجتمع الناس فى المسجد يتشاورون .. وخرج اليهم محمد ، يحدثهم عن قوة الجيش المهاجم ويسألهم الرأى والنصيحة . وقبل ان يتحدث واحد من الناس ، قال لهم محمد : « ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا . فان اقاموا ، اقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . وانتظر محمد ان يسمع جوابا من الذين يشاورهم فى الأمر .. اما الذين عادوا من بدر ظافرين فان انتصارهم القديم الخاطف فى بدر مازال يدير منهم الرءوس حتى اليوم ، ويملأ القلوب بالكبرياء

وتهامس شبابهم وهم يتحسسون مضارب السيوف ، وصدى بعيد من الابواق المزافة والخيل الصاهلة يؤجج منهم حب المغامرة ، والقلوب تدق فى شدة على رجع قرعات الدفوف .. وانهم مع ذلك ليحلمون بالغنائم ، وبالسبايا .. لقد جاءت قريش باجمل نسائها وجواريها

وبأفخر ماتملك من دروع ، وسيوف وثياب ومتاع وخيل وابل ، وبخزائنها أيضا .. سيحصلون على هـذا كله حلالا لهم ، فان هم ماتوا دون هذا ، فانهم لظافرون بخير منه : بالجنة .. وبعد ، فمابال محمد لايتيح فرصة مشابهة للذين فاتتهم مغانم بدر وشرف المعركة فى بدر . وقال قائلهم : « اخرج بنا الى أعدائنا يارسول الله ، لايرون انا جبنا عنهم وضعفنا .. »

أما شيوخ الانصار ، فلم يرق لهم هذا الاقتراح .. انهم أدري بمدينتهم وأحق بأن تتبع مشـورتهم ولئن كان الشباب من المهاجرين ، وبعض شباب الانصار الذين لم يكابدوا الحرب من قبل ، لئن كان هؤلاء جميعا قد غرهم أن اندحر فى بدر الف من القرشيين أمام ثلاثمائة من المسلمين ، فان على هؤلاء الشـباب أن يعلموا أن قريشا لم تجىء وحدها ، بل حشدت الحلفاء والاحابيش ، وهى تعد للمعركة منذ عام .. فليتعلم هؤلاء الشباب أن الشجاعة فى الحرب ، ليست الاندفاع الى اظفـار عدو متفوق .. وانما هى خطة تكفل الانتصار .. !

وقال عبد الله بن أبى ، باسم هذا الفريق من الشيوخ : « يارسول الله .. أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم ، فوالله ماخرجنا منها الى عدو قط الا أصاب منا ، ولا دخل علينا الا أصبنا منه .. فدعهم ، فان اقاموا أقاموا ، بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا ، رجعوا خائبين » ..

هذا هو مايريد محمد أن يقنع به الناس .. ولكن ، لماذا يؤيده عبد الله بن أبى ، وهو لا يضمر لمحمد الا الشر . وأبدى بعض المسلمين خوفهم من أن يمكثوا فى

المدينة ، ويجروا جنود قريش الى ابوابها فاذا احتدم القتال ، انفجرت الخيانة .. وفى المدينة من يضمر العداء ويتأهب الكيد . وطالت المناقشات حتى أذن بلال لصلاة الجمعة .. وبعد أن فرغ الناس من الصلاة ، عادوا يتشاورون فى الامر ..

ولم يستطع محمد أن يقنع الاخرين بالبقاء فى المدينة . فالخوف من أن تحدث الخيانة فجأة ، ثم الزهو بالانتصار القديم ، والاشفاق من ان يظن احد بهم الجبن والطمع فى غنائم جديدة من قريش .. كل هذا جعلهم يتمسكون بالخروج لملاقاة جنود قريش فى احد . وأخذ محمد الاصوات ، فاذا غالبية القادرين على حمل السلاح ترفض رأيه وتقرر الخروج الى الحرب فى أحد ..

وأذعن محمد لرأى الغالبية ، ودخل بيته ليرتدى ملابس الحرب . وحين غادرهم محمد تعاتبوا فيما بينهم .. فلقد اغلظ بعضهم لمحمد اثناء المناقشة ، وقهروه على أن يتبع رأيهم على كره منه ، وعاد محمد بعد حين وقد ارتدى ملابسه الحربية ، فقال له بعضهم : « استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فان شئت فأقعد صلى الله عليك »

ولكنه قد تهيأ للقتال وانتهى الامر ، وماكان له أن يتراجع بعد أن استعد . وعاهد الاقلية التى كانت تؤيده ، أن تنفذ قرار الغالبية ، ومادام القرار قد صدر فيجب أن يحترمه الجميع وعليهم أن ينفذوه بنفس حماس المؤيدين . وهاهو ذا بينهم فى طليعة الذين ينفذون القرار بالخروج الى احد . وأمر محمد كل المسلمين أن يستعدوا .. فسيخرجون من يومهم هذا الى أحد ليبدأوا القتال من الغد . وانصرفوا يتسلحون بسيوفهم ودروعهم التى غنموها من بدر ، ومن بنى قينقاع

وارسلَ محمد الى الحلفاء من يهود بنى قريظة وبنى النضير يطالبهم أن يخرجوا معه للدفاع عن المدينة ، فصحيفة التحالف التى كتبت بينهم تقضى عليهم بالدفاع عن المدينة .. ولكن بعضهم تعلل بأن الصيغة لاتلزمهم بالخروج من المدينة !

وقال آخرون من يهود بنى قريظة وبنى النضير : « ان الصحيفة تلزمنا بالدفاع عن المدينة على أى نحو ، بلا دخول فى تفاصيل خطط الدفاع ، ولكن محمدا سيقاتل من الغد وغدا هو السبت ، ونحن لانعمل فى السبت ولا نشهر فيه سلاحا . وغضب أحد رجالهم فوقف عليهم لائما وأعلن انه سينضم الى محمد ، فان قتل فى المعركة فلتسلم أمواله الى محمد يصنع فيها ماشاء .. وامتشق حسامه ودرعه وهو ينظر الى قومه فى ازدراء قائلا : « لاسبت لكم »

وجمع محمد نحو ألف رجل من المهاجرين والانصار .. وبعض الجياد والابل وخرج نسوة من المدينة وراء الجيش ، بالطعام والماء ، لتزويد المقاتلين .. وقسم محمد جيشه الى ثلاثة اقسام ، وجعل على أحد الاقسام الثلاثة عبد الله بن ابى .. حتى اذا كانوا فى منتصف الطريق بين المدينة واحد ، وقف عبد الله بن أبى يتحدث مع هذا الثلث من جيش محمد .. كانوا نحو ثلاثمائة رجل معظمهم من الخزرج ، وقد ظلوا طوال الطريق يتهامسون فيما بينهم متسائلين : « لماذا لايفرض محمد رأيه ؟ ولماذا يذعن لرأى الشباب المتحمسين ؟ »

وقال عبد الله بن أبى : « أطاعهم ، وعصانى » .. وكان عبد الله بن أبى قوى الحجة ، له قدرة باهرة على الاقناع . ومضى يحدثهم عن المصير المجهول الذى يدفعهم

اليه محمد فى مغامرة سخيفة رسمها خيال شبان حالمين بلا خبرة ..

ثم صاح برجاله : « والله ماندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس » ..

ولوى زمام فرسه راجعا الى المدينة ، ومن ورائه ثلاثمائة رجل من خيرة المقاتلين ! وناداهم بعض صحابهم من بعيد « لاتخذلونا » ولكن عبد الله بن أبى ، تصدى لهم بابتسامته الماكرة المطمئنة : « لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم »

على أن محمدا تقدم بما بقى من جيشه وهم سبعمائة ، وظل يحضهم على الصبر .. حتى اذا بلغوا وادى احد ، وجدوا جنود قريش يملأون معظم الوادى ، ومن ورائهم الصحراء العريضة ، والطريق الى مكة ، آمنا !

انهم لثلاثة آلاف ، بينهم العبيد الاحباش بالحراب المسنونة .. وسادة قريش وفرسانها بعدتهم وخيلهم . وما أشد حاجة المسلمين الى الخيل .. ولكن عبد الله ابن أبى قد انسحب بمعظم مايملكه المسلمون من خيل !!

مهما يكن من شىء ، فلابد من مواجهة هذا الجمع المتفوق بخطة تقهره .. وهاهم أولاء يتخايلون باعراف الجياد ، وهند بنت عتبة بينهم تشق الصفوف فى قمة زينتها ، ومن حولها نساء الطبقة العليا من قريش وأجمل الجوارى ، متعطرات متأنقات ينشدن للرجال ، ويعبثن ببعض عظام هيكل بشرى . لمن هذه العظام ؟ .. كيف أمسكت هذه الانامل الرقيقة بهياكل الموتى ؟ ولكنها عظام أمك يامحمد .. نبشت عليها الانامل الرقيقة ، عندما مر جيش قريش فى طريقه الى أحد ، على القبر الذى استلقت فيه آمنة منذ خمسين عاما .. لكم يبدو هذا كله وحشيا ورهيبا ومزريا .. !

على أن الوقت لم يعد صالحا للتفكير بعد فى شىء آخر غير مواجهة جنود قريش . وكانت قريش قد قسمت جيشها الى ثلاثة أقسام : القلب ويقوده أبوسفيان ، والجناح الايمن الذى يضم صفوة الفرسان تحت قيادة خالد بن الوليد ، والجناح الايسر من فرسان يقودهم عكرمة بن أبى جهل ..

وتحسس محمد الارض من حوله .. فرأى أن يعسكر فى أقصى الوادى من ناحية جبل أحد .. وأمر الرماة وعددهم خمسون رجلا أن يصعدوا الى أعلى الجبل ، وليجعلوا همهم رمى الفرسان بالنبال ومنعهم من التقدم للاشتراك فى المعركة ..

ان الخيل تخاف من النبال ، ولن يستطيع فرسان قريش ان يخوضوا المعركة ، اذا ما سقطت عليهم النبال من أعلى الجبل .. وهكذا يخلص جيش محمد الى القلب ، وفيه سادة مكة وشجعانها وعبيدها الاحباش .. فيقضى على هذا القلب الذى يشكل معظم القوة الضاربة فى الجيش بعد أن يحرمه من الاستعانة بفرسان الجناحين

وأمر محمد قائد الرماة بالنبال ، أن يحذر بصفة خاصة مكر خالد بن الوليد فهو قائد حاذق شديد الدهاء . وشدد ألا يبرح الرماة أماكنهم مهما يكن من أمر .. فليظلوا فى أماكنهم حتى يتلقوا أمرا آخر من محمد نفسه أو ممن سيخلفه ان هو استشهد فى المعركة .. وبعد أن شرح محمد لقائد الرماة خطر دوره فى المعركة عاد يكرر : « ادفع الخيل عنا بالنبال واثبت مكانك حتى لايأتونا من خلفنا » ..

وجمع محمد بعض شجعان المسلمين من حوله ، وأعطى سيفه لرجل من الانصار اسمه أبودجانة وطلب منه أن يستوفى لهذا السيف حقه ، فامسك الرجل

بالسيف ، فى ايمان عميق بأنه لن يقهر وأخرج عصابة حمراء فعصب بها راسه فقال الناس : أخرج أبو دجانة عصابة الموت وجعل محمد راية المسلمين لمصعب بن عمير ، واصطف المسلمون يتقدمهم حمزة والى جواره أبودجانة ، وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمر بن الخطاب وعبيدة بن الجراح .. ثم أشار محمد للرماة أن يبدأوا ، فانهمرت النبال على جناحى قريش .. وكان عكرمة يقود رجاله على خيولهم ويزحفون .. ولكن الخيل اضطربت وهى تواجه سيل النبال المنصبة من أعلى الجبل ولم يستطع فرسانها أن يقهروها على التقدم .. واصطدم فرسان قريش : الواحد بأخيه .. فأمر محمد جيشه أن ينقض ، وابتعد خالد بن الوليد بفرسانه عن مرمى النبال .. بينما انقض قسم من جيش محمد على جناح عكرمة فأوقع الفوضى فى الصفوف واضطر عكرمة الى التقهقر ، وذكريات بدر تنبثق أمامه فجأة بصور حمزة معلما بريشته ، وابطال قريش صرعى على الرمال !!

وتقدم حمزة يضرب بسيفه كل مايلقاه من الهامات ، وهو يصيح بصوت يبعث الرعب : « أمت .. أمت » .. والى جواره أبو دجانة يضرب بسيف محمد ، وقد ألهبه الايمان بأن هذا السيف الذى يحمله يستطيع أن يصرع جنود قريش جميعا ..

واندفعت جموع المسلمين الى القلب من جيش قريش ، وسقط حامل لواء قريش ، فحمله رجل آخر . وسقط الثانى فتقدم ثالث .. وسقط هو أيضا .. فتقدمت امراة من قريش تحمله .. والمسلمون يتقدمون مجتاحين .. والجناح الايسر الذى يقوده عكرمة بن أبى جهل

يتموج فى اضطراب وذعر خلال تقهقره والخيل تقفز وتلقى بمن عليها ..

والمسلمون يتقدمون يلهبهم النصر المفاجىء السريع والايمان الخارق بأن من مات فى هذا الجهاد ، كتبت له حياة أخرى يعيشها فى الجنة خالدا مخلدا فيها

وهند بنت عتبة وسط اصحابها ترى فرسان قريش يفرون مذهولين من المد الزاحف أمامهم فتصرخ فيهم : ويهابنى عبد الدار ! . وبها حماة الادبار . ضربا بكل بتار

وتمضي هند فتلبس الحديد والزرد وقناع الحرب وتشهر السيف تطعن به الصدور الحاسرة ، ويشعر أبو دجانة أن هناك فى المعركة فارسا رشيق الحركة يخمش الناس خمشا شديدا فيقتحم عليه ويصمد له ، ويرفع أبو دجانة سيفه ليهوى به على مفرق الفارس فاذا بالفارس يولول ويركع متضرعا الى أبى دجانة أن يرحمه .. واذا بهذا الفارس هو هند بنت عتبة .. ويطلقها أبو دجانة قائلا : انى لاكرم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أضرب به امرأة .. وتنجو هند ، وتخلع لباس الحرب ولكنها تنطلق تجمع النساء ، وتجرى وراء رجال قريش الفارين تعيرهم بالجبن .. والمسلمون يتدافعون وسط رجال قريش .. وحمزة يصرع الواحد بعد الآخر .. وهند تبحث فى جنون عن العبد الحبشى الذى كان يختبىء بحربته وراء شجرة فى الوادى ،وتمسكه من يده وتجره الى مكان حمزة ، وهى تبذل للعبد مزيدا من الاغراء والوعود .. ولكن المسلمين ما زالوا يتقدمون حتى لقد أحاطوا بهند وصاحباتها وجواريها .. وأسروهن . وجيوش قريش تتقهقر : أبو سفيان ينسحب بجنود القلب .. وعكرمة يجرى بفرسان الميسرة .. اما خالد فما زال بعيدا بفرسان الميمنة يخشى ان يشتبك فى القتال .. والعبد وحشى ، ما زال يختبىء وراء الشجرة فى انتظار فرصة

تتاح له فيهرب براســــه على الرغم من وعود هنــــد واغرائها ..

ويرى الرماة من أعلى الجبل ، اندحار جنــود قريش تاركين المتاع والدروع والسيوف والنساء .. ان المعركة قد انتهت فى سرعة خاطفة ، والمقاتلون المسلمون يجمعون الغنائم والاسرى والسبايا الآن .. ويقترح واحدمن الرماة على الآخرين أن يسرعوا لالتقاط الغنائم الفاخرة ،والسبايا من نساء قريش الجميلات .. ولكن قائدهم يذكرهم بما قاله محمد : أن يثبتوا فى مكانهم مهما يحدث ، والا يتركوا المواقع حتى يتلقوا منه هو نفسه الاوامر ..

ويقفون متململين ومن تحتهم يعج الوادى بالغنــائم : الخيول الفارهة ، والدروع ، والزرد ، والابل المحمــلة ، والنساء الجميلات ، واكداس الطعام الثمين ، والمتــاع الباهر .. الذهب والفضة وكل ما يملأ حياة سادة قريش بالابهة

ولكن أوامر محمد لم تصدر بعد .. لقد نسيهم محمد، ولن يكون لهم من الغنائم شيء ! .. وحتى اذا وزعها محمد فيما بينهم جيمعا على السواء ، فسيفوز غيرهم بالعبيــد والجوارى والسبايا ! .. ولم يستطيعوا الصبر اكثر من هذا ، فتركوا أماكنهم دفعة واحدة وانحدروا الى السهل يجمعون الغنائم ، ويأسرون ما طاب لهم ..

وخالد بن الوليد يقف بعيدا على فرسان الميمنة ، يتأمل جيوش قريش المهزومة ، ويفكر فى طريقة للانقضاض .. واذ رأى رماة المسلمين قد نزلوا عن الجبل وانشغلوابجمع الاسلاب ، قاد فرسانه مسرعا واستدار ، واعتلى الجبل على الفور ، وفاجأ المسلمين من ظهورهم وهم عاكفون على التقاط الغنائم .. وهو يصيح فى جيوش قريش المتقهقرة أن تعود ..

وعادت جيوش قريش تقتحم المعركة من جديد : القلب بقيادة أبى سفيان ، والميسرة بقيادة عكرمة ، والميمنة بقيادة خالد تطعنهم فى الظهور .. وهكذا فوجىء المسلمون بأنفسهم محاصرين ، تطوقهم جيوش قريش من كل سبيل ..

وأخذت الخيول تدهس جثث الرجال .. وبرز حمزة من جديد الى جواره أبو دجانة وعلى وعمر وسعد والزبير ، يقاتلون جميعا فى استبسال لتحطيم الحصار ، وانطلق حمزة يصرع الواحد بعد الآخر من فرسان قريش ، حتى اقترب من وحشى .. واختبأ وحشى وراء شجرة فى الوادى وحمزة ينقض على فارس من قريش يعمل سيفه فى صفوف المسلمين .. صرخ حمزة فيه : هلم الى يا ابن مقطعة البظور ، وبارزه حتى صرعه وعكف يجهز عليه ، وهز وحشى حربته وقذف بها حمزة من بعيد ، ودخلت الحربة من بطن حمزة لتخرج من ظهره .. وحاول حمزة أن يرفع يده بالسيف فلم يستطع .. وتقدم منه وحشى فاستل الحربة واخذها ليغسلها بهدوء ..

سقط حمزة .. فانطلقت هند اليه ، واخرجت قلبه وكبده .. وأخذت تعصر كبد حمزة بيدها وتلوكه بفمها وتلعق الدم متشفية وهى ترقص على جثته .. وبدأ المحاربون المسلمون يسقطون بالعشرات .. وتقدم أبو سفيان الى جثة حمزة ، فركلها .. وضرب شدقه بسن حربته .. وحين اخترقت الحربة شدق حمزة ، ضحك أبو سفيان ، ومشى يسحق بحذائه ، كل ما هو نبيل وشجاع فى الرجل الذى كان يملأ قلوبهم بالرعب منذ لحظات ، ولم يعد الآن غير جثمان ملقى ، ودماء تختلط برمال الارض ..

لقد مات حمزة .. مات حمزة فأين محمد ؟! وتردد الوادى بهتاف أبى سفيان « مات حمزة » .. وظلت هند

تخضب يدها بدمه وترفعها مهللة : مات حمزة ..

واضطربت جموع المسلمين .. وتقدم مصعب بن عمير بالراية ، فانقض عليه رجل من قريش ، فقطـع يديه ثم قتله .. وكان مصعب كثير الشبه بمحمد . وخيل للرجل القرشى أنه قتل محمدا .. فصـــاح : قتلت محمدا .. قتلت محمدا ..

وسيطر الرعب على معسكر المسلمين ... لماذا يبقون اذن بعد أن قتل محمد

وبدأوا يفرون .. وامر محمد ان تسلم الراية الى على ابن أبى طالب ..

وتقدم على بالراية يخوض الصفوف الى جواره ابودجانة ، بينما اندفع عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص وأبودجانة وعبيدة بن الجراح والزبير بن العوام يبحثون عن محمد فى الزحام الجنونى المختلط ، فوجدوه يقعد منهكا وقد شجت رأسه ، ودمه ينزف من جسده ، وخده مشقوق ، انغرست فيه حلقتان من الزرد .. ومال عبيدة بن الجراح يشـــد بأسنانه الحلقتين ، فخلعهما ، وانخلعت بعض أسنانه .. وسعد بن أبى وقاص يرمى بالسهام وجمـوع أخرى من قريش تتدافع نحو محمد تريد ان تقتله وهو يقول لسعد : « أرم .. ارم .. بأبى انت وامى » ..

وأذن الزبير فى الناس ان محمدا حى لم يمت ..

وصاح عمر بن الخطاب فى المسلمين الهاربين أن يعودوا فمحمد حى لم يمت . وقاد جماعة من فلول العائدين ووقف يحارب دون محمد .. بينما جعل المسلمون الاخرون من أجسادهم دروعا تحميه من نبال قـريش ، واقتحم عليهم أبى بن خلف على فرسه وطلب ان يبارز محمدا .. لقد جاء بفرسه الذى كان يلقى به محمدا فى مكة قديما فيقول

له : « انى أعده لاقتلك من عليه » وكان محمـــد فى ذلك الزمان يجيبه : « بل أقتلك أنا باذن الله » ..

وطلب عبيدة ، وعمر ، والزبير ، من محمد ان يأذن لأى منهم فيبارز أبى بن خلف نيابة عنه .. ولكن محمدا رفض، وصمم على أن يبارزه هو بنفسه على الرغم مما فيــه من جراحات .. وانتفض محمد يبارز أبى بن خلف ، وجمع كل قوته فى ضربة واحدة ألقت بأبى بن خلف من على ظهر فرسه . ولم يقم أبى بن خلف بعد ذاك من سقطته

وعاد محمد ، مثخنا بجراحه .. يستلقى وســـط أصحابه ، وكل واحد منهم يحاول ان يعالج هذه الجراح. وتجمعت كل قوات المسلمين حول محمد .. فلم تستطع قريش ان تخلص اليه ..

وخيل لمحمد أنهم سيهاجمون المدينة .. فطلب من على ان ينظر أى الطرق يسلكون ، ولكنهم كانوا يعــودون الى مكة حقا .. ظافرين ، تلمع سيوفهم تحت أشعة الشمس الغاربة .. وضحكات النساء والجوارى تملأ أرض المعركة التى تردد أنات الجرحى من المسلمين ..

وطلب عمر فى غيظه من حسان بن ثابت أن يرد على هند الفاجرة التى تخلفت تغنى وترقص مع بعض جــواريها ، وتنشد رجزا يهجو المسلمين .. فارتجل حسان قصيدة فاحشة يصف فيها خلاعة هند وفجورها . ولكن حسانا كان متعب القلب من كل ما حدث .. وبصفة خاصة حين اكتشف وسط الجرحى جثة أخيه ..

وقام محمد يتوكأ على صحابه فى أرض المعركة ، التى تتناثر فيها اشلاء سبعين قتيلا من المسلمين .. وظـــل يتلمس حمزة .. وحين أقترب منه .. وجد بعض عظام من جسد أمه .. تركتها هند أمام جسد حمزة .. وتقدم

يتأمل حمزة ، فوجده قد بقر بطنه ومثل به وجدع أنفه وأذناه ..

وقال : « لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لامثلن بثلاثين رجلا منهم » وقال الذين من حوله يواسونه: « والله لئن اظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها احد من العرب »

واستدار ليرجع وكل جسده ينتفض .. ولكنه عاد الى جثة حمزة وأخذ يغمغم : « لن أصاب بمثلك أبدا .. ما وقفت موقفا قط أغيظ الى من هذا » . ورجع الى المدينة، يحيط به بعض صحابه .. وسمع خلال الطريق الى بيته نواح النادبات يبكين القتلى .. فاندفع الى داره لا يكلم أحدا بعد ، ولا يكلمه احد ، ثم اغلق عليه الباب ، واخذ يبكي كما لم يبك من قبل أبدا ..

لا تهنوا ولا تحزنوا

أجبنا كان ذلك كله ، أم حكمة ؟! .. وكيف يمكن أن تمحى آثار كل هذه الهزيمة في أحد .. أن يأسو كل هذه الجراحات .. سبعون قتيلا من خيرة الانصار والمهاجرين .. وفى الطليعة منهم : حمزة الجسور النبيل الرائع . ومع ذلك فلو انه كان قد سمع نصيحة عمر بعد بدر فقتل الاسرى ، لما استطاعت قريش ان تحشد كل هذا العدد

ان رجالا من قريش أحسن اليهم فأطلقهم بعد أن وقعوا أسرى فى بدر ، كانوا يوم أحد يتدافعون بسيوفهم عليه يطلبون راسه هو !! .. ومنهم من قام عليه خطيبا يلهب الحماس ضده عندما أوشك جيش قريش أن يفر .. !!

لكم قال له عمر : أقتل هذا الرجل أو ذاك فلا يقوم أحد عليك خطيبا .. ولكنه ما سمع ، فاذا بمعظم أسرى بدر ، يشهرون عليه السلاح حتى الرجال الذين عطف عليهم بعد انتصاره فى بدر فأطلقهم بلا فدية ، ليعولوا بناتهم فى مكة !! حتى هؤلاء !! .. لا رحمة لمثل هؤلاء بعد .. !!

وها هو ذا أحد الاسرى الذين كانوا قد اعتقوا بلا فدية بعد بدر ، يقع فى الاسر مرة أخرى فى أحد ، فيستعطف محمدا ، فيقول له محمد : « والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول خدعت محمدا مرتين ! ان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين » .. ثم يأمر الزبير بن العوام ان يقتله ! .. ويلوذ أسير آخر من أغنياء مكة ، بعثمان بن عفان

فيأخذ له الأمان ، ويرضى محمد كارها بالعفو عن الرجل على أن يرحل بعد ثلاثة أيام .. وتمر الايام الثلاثة واذا الرجل مختبىء فى بعض ضواحى المدينة ، فيرسل اليــــه محمد رجالا يقتلونه ! ..

النوايا الطيبة لا يجب ان تفتح الطريق الى بيتك امام اللصوص ، فلقد اوشك راسك ان يسقط يا محمد ، ولئن سقط رأسك الان ، لانقلبوا على اعقابهم ، ولسقطت راية الدعوة الجديدة ! .. ما زال عليك ان تقول الكثير وان تعمل الكثير ، لتحرر الانسان من سيطرة المصير ! .. ومن اجل ذلك فينبغى ان تكون فضائلك هى الاسوار المنيعة التى تحميك لا نقط الضعف فيك ! ..

فلو لم يرق بعض الانصار فى معركة احد ، لضراعة هند بنت عتبة .. لو لم يتركوها تنجو بحياتها وصاحباتها ، لما قتل حمزة ! .. لقد كان العبد وحشى لا يعرف من هــــو حمزة ، ولا يعرف حتى لمــاذا يجب عليه ان يقتل حمزة ... ولكن هندا هى التى أغرته ، وهى التى اخذته من يده وهيأت له المخبأ وراء شجرة ، ليغتال حمزة : سيد الفرسان !..

فليتعلم المسلمون جميعا انه فى مثل معارك المصــــير ؛ لا تهاون بعد ولا رحمة .. ان هذه الرحمة المخدوعة كلفتهم حياة حمزة ، والنصر أيضا ! .. ومع ذلك .. فان الرماة الذين تركوا أماكنهم ليتحملون جزءا كبيرا من مسئولية الهزيمة ، وان عبد الله بن أبي ورجاله الثلاثمائة ، ليتحملون بفرارهم قبل المعركة مسئولية دماء سبعين شهيدا من المسلمين !

أنتم أيها الرماة .. لمـــاذا تركتم اماكنكم قبل ان يصدر اليكم الامر ؟! لقد رأيتم الغنائم والسبايا فطارت عقولكم !. مهما يكن من شىء فيا أهل المدينة : لا تيأسوا بعد .. تلك الايام نداولها بين الناس ، فلا تهنوا ولا تحزنوا .. ولتعتبروا

وخرج محمد من وراء بابه الذى كان قد أغلقه عليه ، فأعطى سيفه لابنته فاطمة وقامت تغسله مما علق به من الدماء .. ثم ذهب الى المسجد ، حيث تعودان يلقى الناس ، فوجد عبد الله بن أبى يقف فى الناس خطيبا ! .. ماذا يقول عبد الله بعد ان خذله فى أحد وانسحب بثلث الجيش !؟ .. كان عبد الله يحض الناس على أن يسمعوا لمحمد ويطيعوه .. ويحبوه ! ..

الى أى حد يعبث هذا المنافق الكبير بعقول الآخرين !؟ .. وقبل أن يبلغ محمد مكان عبد الله بن أبى وثب بعض الذين كانوا فى احد ، واخذوا بثياب عبد الله والغصة فى الحلوق ، وطعم الهزيمة ما زال يملأ الافواه بالمرارة .. وبصقوا مرارتهم فى وجهه وانقضوا عليه يدفعونه ، وهو يصرخ فيهم متعجبا : لماذا يثبون عليه وهو يدعوهم الى الحب والى طاعة محمد ! .. ولكنهم ظلوا يركلونه حتى خرج من المسجد ، وهمس عمر لمحمد : لوأمرتنى فأقتله !.. ولكن محمدا نظر الى عمر مستنكرا .. ! ان عبد الله بن أبى ما زال يملك النفوذ على بعض القلوب ، ومهما تكن خيانته الآن ، ففى المدينة رجال ما برحوا يحترمونه ويغضبون له ! ..

ليصبر محمد ، وليحتط ، ولن يخدعك عبد الله بن ابى بعد .. وعلى أية حال ، فلن يأمر محمد بقتله الا يوم يطالب كل الناس برأسه .. ويصبح من المستحيل على أحد أن يمنعه ! .. وأقبل محمد على الناس يحدثهم عن محنة أحد .. ويستخلص العبرة من اخطائهم فيها عسى أن تضىء التجربة القاسية طريقهم الى المستقبل !

كان قد مسح دموعه على حمزة .. واعلنهم أنه لن يمثل بقاتلى حمزة ان ظفر بهم .. فما كان له أن يمثل بالقتلى ، ولكن سيكتفى بقتلهم !

وطالبهم الا تأخذهم بعد فى العدو رحمة .. ففى معارك المصير ، تصبح الرحمة نوعا من الغفلة .. وما جـــدوى رحمة تجلب الهزيمة ، وتهدد القيم التى يدافعون عنها

ومهما يكن من أمر ، فانه لن يؤاخذ الذين أخطأوا وكانوا سببا فى الهزيمة .. سيعفو عنهم ويستغفر لهم وسيظل يشاورهم فى الامر .. وأما الذين قتلوا فى أحد ، فقد طلب محمد من الناس الا يبكوهم بعد والا ينقلوهم الى المدينة ليدفنوهم فيها ويقيموا الاحزان .. « فليدفنوا حيث صرعوا » .. وهم ليسوا أمواتا بل شهداء « أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما اتاهم الله من فضله » ..

ولم يكد الناس يفرغون من حديث المحنة فى أحد ، حتى شعروا أن لفحات التجربة قد أنضجتهم حقا ..

لقد أنذرتهم قريش أن تهاجمهم فى مثل هذه الايام من العام القادم بجيوش تدك عليهم الجبال ! فليستعد محمد منذ اليوم لهذا اللقاء .. فليحشد القوى التى بعثرتها الهزيمة ، وليلق فى القلوب من جديد ثقة لا تتزعزع بأن المستقبل له !

وكان عليه اولا ان يأسو الجراحات فى سبعين بيتا من المدينة ، ما زالت تنوح على رجال ذهبوا ..وطاف محمد مع صحابه بالبيوت يعزى الارامل والايتام ، وينصـــح صحابه أن يتزوجوا الارامل الصغيرات لكى يعصموهم من الفتنة

وبدأ يدبر المال الذى يجريه على هذه البيوت التى لم يعد لها ما تعيش عليه بعد ..

من أين يدبر هذا المال ؟ لقد كلفته معركة أحد فوق الطاقة ، وغنمت قريش من جيوشه كثيرا من الســـلاح والدروع ، وانه لفى حاجة الى ضعف ما فى خزائن المدينة

ليشترى به السلاح استعدادا للقاء قريش حين تزحف على المدينة فى العام القادم ‥ وحض القادرين من المسلمين على أن يدفعوا ويبذلوا ليعاونوا أسر الشهداء ‥ لكنه وجد كثيرا من القادرين لا يدفعون ! ‥ فى الحق أنهم أصبحوا غير قادرين !

كانت حالة من حب المقامرة قد استولت على كل النفوس ، بعد أن سحقت قريش أحلام المسلمين بالغنائم والاسلاب فى أحد ‥

أما الذين خرجوا الى أحد مدفوعين بأحلام الغنى فقد عادوا كلهم مجانين من الغيظ ، واتجهوا الى المقامرة ، عسى أن تعوضهم عن أحلام الغنى التى أهدرت فى جنبات أحد ! ‥ وفى ساعات اللعب كانت الخمر تقدم لهم بلا حساب ‥

وأحسن يهود بني النضير استغلال هذا الانهيار الذى يعصف بالنفسيات المصدومة ‥ ففتحوا بيوتا للهو تقدم خمر البلح القوى ، وتعقد فيها المقامرات بالمبالغ الطائلة وترقص اليهوديات الحسان ! ‥

الى مثل هذا الجو الصاخب هرب كثير من المسلمين ‥ وفى مثل هذه الدوامات من المغامرات الرهيبة ضاعت ثروات ! ‥ وفى الحق أن يهود بنى النضير كانوا حين تخلوا عن يهود بنى قينقاع يطمعون فى أن يرثوا سوقهم فى المدينة ، ولكنهم منذ وجدوا المسلمين يستولون على السوق اليهودية ، أخذوا يحتالون لتدمير الاقتصاد الاسلامى ٠ ولم يكد ينهزم المسلمون فى أحد ، حتى أقام اليهود فى بيوت فاخرة أسواقا أخرى للمقامرة والمتاع ‥ واستغلوا الانهيار النفسى بعد الهزيمة ، فكسبوا من تجارتهم تلك اكثر مما كانوا يأملون من وراثة سوق بنى قينقاع ‥

وأدرك محمد أن هذه التجارة الشائنة التى يروجها اليهود ، لا تحمل الفقر وحده الى بيوت المسلمين ، وانما هى تدمير منظم للصلابة التى يجب أن يحتفظ بها جيل كتب عليه أن يواجه مسئولية تحرير الانسان ! •• ان بنى النضير لا يكتفون بتخريب الاقتصاد فى المدينة ،وانما يخربون النفوس ايضا ! ••

وروع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه فى بدر وأحد ، ينحدرون الان فى يأس هائل ، فما يفيق الواحد منهم من الخمر •• ما يغادر أماكن القمار ، الا ليستمتع باحدى المغنيات او الراقصات اليهوديات •• ولا شيء بعد يملأ القلب او الفكر ، غير الرغبة فى الفرار من الواقع المعذب ، غير احلام مريضة بالغنى والمتاع •• والبحث المضطرب عن العزاء !

وأخيرا أطلق مناديا يدعو الناس الى ترك الخمر فقد حرمت •• لقد حرمت فلا يقربوها •• وعليهم ألا يقربوا الميسر ولحم الخنزير •• وألا يقربوا الفواحش

وامتنع المسلمون عن الذهاب الى البيوت التى فتحها بنو النضير •• فاحتج بعض بنى النضير ، واعتبروا أوامر محمد نوعا من التضييق الاقتصادى •• وطالبوه أن يعوضهم عن هذا بأن يسمح لهم بتبادل التجارة مع قريش والا فسدت الخمور ، ومراعى الخنازير ••

فلتفسد الخمر ، ولتهلك الخنازير جميعا ، وليأخذ الطاعون كل غانيات اليهود • فالذى يعنى محمدا حقا هو انقاذ رجاله واعدادهم للنهوض بدورهم •• على أنه حذر يهود بنى النضير أن ينقضوا صحيفة التحالف القديمة التى نصت على مقاطعة قريش ، وحذرهم بصفة خاصة أن يبيعوا السلاح ! ••

وعاد الى رجاله ينصحهم أن يلتمسوا أسلوبا آخــر للعزاء ٠٠ فليؤمنوا بالمستقبل ، وليؤمنوا بأن الحق الذى يدافعون عنه هو الذى سينتصر ٠٠ ولينصرفوا الى اعمالهم فما زالت الحقول تنتظر من يستنبت منهــا الزرع ٠٠ وليكونوا هم انفسهم عزاء للاطفال الذين فقدوا اباءهم فى احد ٠٠ وعزاء للنساء اللواتى فقدن الازواج فان «الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالقائم بالليل الصائم النهار» ٠٠ وليدفعوا أموالهم لاسر الشهداء بدلا من تبديدها على الخمر والقمار ولحم الخنزير

على أنه الان قد أطمأن الى مستقبل الارامل جميعا ٠٠ وقد امتنع رجاله عن الخمر والميسر ولحم الخنزير وارتياد بيوت اليهود ٠٠ وأنقذت تعليماته الصــــارمة اموالهم ونفسياتهم ، فهو لا يفكر بعد الا فى طريقة يستعيد بها هيبة الدعوة بعد هزيمة أحد ٠٠

لقد بالغت قريش فى استغلال انتصارها فى أحــد ، فأطلقت الشعراء يتغنون بهذا الانتصار ويهجون محمدا وصحابه ٠٠ وأقيمت الافراح فى كل دور مكة ، وامتلأت الساحات بالراقصات والمغنيات ، وأريقت الخمور ٠٠٠ وذبحت قريش ودعت الاعراب من كل مكان ليشاركوها فرح الانتصار ٠٠ ثم دفعت الاموال الطائلة لشعراء القبائل الاخرى فأنشأوا القصائد الطوال فى السخرية من محمد ، وفى الحض على الاحتشاد للقائه اذا جاء العام القادم ٠٠

ودوى هذا كله فى أرجاء الصحارى الواسعة ، فبدأت تتحرش به كل القبائل التى كانت ترهبه من قبل ٠٠ وبلغ الصدى معاقل اليهود فى المدينة فشجعهم هذا على الاستخفاف به !

وكان بنو النضير يتميزون منه غيظا منذ منع صحابه

من الذهاب الى بيوتهم ليقامروا ، ومنذ منع الخمر ولحم الخنزير .. فلم يكد بنو النضير يتسامعون بما تقوله قريش فيه ، حتى أعلن آحد أغنيائهم أنه سيمنع المسلمين من أن يشربوا الماء من بئر يملكها . لقد حرم محمد الخمر علي رجاله ، واذن فليدفعوا للماء .. ! ولكن ثمن القدح أغلى من ثمن قدح الخمر !

اضطرب اهل المدينة فما تعودوا ان يشتروا الماء من قبل ، فأخذ محمد يغرى اثرياء المهاجرين أن يشتروا هذه البئر . وتقدم عثمان بن عفان الى صاحب البئر ، فغالى فى الثمن وابى ان يبيعه أكثر من نصف البئر .. ودفع عثمان فى نصف البئر ما يكفى ثمنا لثلاث آبار ، ثم وهبها المسلمين يشربون منها ويسقون الحيوان بلا مقابل .. مما اضطر المالك اليهودى أن يبيعه النصف الباقى بثمن بخس . ويوما بعد يوم عادت الثقة تملأ القلوب من جديد . والايام تمضى والقبائل التى كانت ترهب محمدا تستعد للقائه

واستقبل ذات صباح وفدا من بنى سليم جاءوا يطلبون منه ان يرسل اليهم من يثقفهم بالدين الجديد فقد مالوا اليه بعد أن كانوا من غلاة الأعداء .. وارسل معهم ستة من صحابه ، فرحا بانهم سينضمون اليه .. غير انهم كانوا يضمرون الكيد له وليجعلوه سخرية بين القبائل !

وتلقى محمد وفدا اخر من بنى هزيل فأرسل بعض صحبه اليهم ليثقفوهم فى الدين الجديد .. غير انهم كانوا يضمرون غير ما قالوا ، فلم تكد وفود محمد توغل فى الصحراء حتى وثب فرسان بنى سليم على من معهم فقتلوهم الا رجلين ، ووثب بنو هذيل على من معهم فقتلوهم الا واحدا ..

وروع محمد من هذا كله !.. الى اى حد تريد قريش

وحلفاؤها أن يسخروا به ، وأن يزروا عليه ؟

وعاد يكفكف دموع أسر الشهداء من جديد .. ثم اقبل وفد من نجد يطلب من محمد ان يرسل اليهم من يثقفهم فى الدين الجديد .. واحتاط محمد هذه المرة لكيلا يقتل أصحابه غيلة ، واستوثق حتى علم أن الامر جد هذه المرة .. واخرج بعض صحابه ..

وفى الطريق خشى صحابه ان يكون فى الامر كيد لم يفطن اليه محمد ، فوثبوا على وفد نجد وقتلوا اثنين من بنى عامر ، وعادوا الى محمد ..

ومهما يكن من الظروف التى تبرر مخاوف أصحابه ، فقد ضاق محمد بهذا الذى حدث .. كيف تأتى له القبائل من بعد ، ان كان أصحابه يثبون على وفودها ؟.. لماذا يأخذ أصحابه الطيبين بجرائر أشرار سلفوا .. وقرر ان يدفع دية القتيلين ..

ولم يكن لديه مال ، فذهب الى بنى النضير يطالبهم وفقا لاحكام الصحيفة ان يعاونوه فى دفع دية الرجلين .. فقالوا له : « نعم يا أبا القاسم نعينك على ما احببت مما استعنت بنا عليه » ..

ثم خلصوا نجيا فى داخل أسوارهم وتركوه ينتظر أمام الاسوار .. وطال انتظاره فقعد على الارض بين صحابه أبى بكر وعمر وعلى وانهم لقاعدون أمام الاسوار اذ برجل من بنى النضير يصعد على السطح ويدفع صخرة أمامه ليسقطها على رأس محمد .. فقد كان بنو النضير قد اجمعوا أمرهم فى الداخل على ان يتخلصوا من محمد الى الابد ولن تسنح لهم مثل هذه الفرصة مرة أخرى .. لن يجدوه أبدا على مثل حاله من الاطمئنان اليهم .. بلا سلاح

واستطاع محمد وصحابه أن ينجوا من الصخرة قبل

ان تسقط ، ومضى الى المسجد يروى للنـاس ما كان . واعلن الحرب على يهود بنى النضير وزحف عليهم بجيرشه .. وبكل الرجال الحالمين بالفنى .. وطلب من بنى النضير أن يسلموا فابوا ، فامر محمد أن تقطع النخيل وتحرق فقالوا له : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها .. ولكنه لم يابه لهم وطالبهم مرة اخرى بالتسليم ..

وكما حدث ليهود بنى قينقاع .. اعتصم بنو النضير أياما فى حصونهم ثم اذعنوا وخرجوا بنسائهم واولادهم ، والقيان والراقصـــات يعزفن من خلفهم وتركوا الدور والاموال والسلاح ! انها لثروة جديدة تملأ خزائن المدينة بالمال والعدة الرائعة وادوات الحرب ..

بدلا من الكراهية

ألا'نك تصبر على الذين يكيدون الك ، فهم يظنـون بك الضعف ؟! .. ولكنهم فى قبضة يدك وما زلت قادرا على ان تسحقهم جميعا ؟ ..

وان تعفو عنهم خير لك عسى الا تلقى فى قلوب ابنائهم البغضاء ، فتشب القلوب الصغيرة مطهرة من الضـعف الذى يستذل الكبار !.. عسى أن ينشأ جيل جـديد ، بوجدان آخر ، يضىء بتعاليمك يا محمد .. جيل يحيـا بالرحمة والبر والصدق ، بدلا من الكراهية !.

اتل عليهم : لقد جاءتكم بصائر من ربكم ، فمـن ابصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ

اترك عبد الله بن أبى وشيعته يكيدون لك فى المدينة ، فهم فى النهاية فى قبضة يدك ولا تسمع فيهم نصيحة عمر. وبدلا من ان تفرس الاحقاد فى قلوب صغارهم .. بدلا من ان تفتح عيونهم على قاتلى آبائهم .. بدلا من الخوف ، دع الاطفال وحدهم يكتشفون الحقيقة يوما بعـد يوم ولن يطيقوا عار الانتساب الى آباء بلا قيم .. ! سيحمل عنك الصغار عندما يكبرون عبء محاسبة الاباء الاشرار ... وسيكبر الصغار ذات يوم يا محمد .. !

ولكن .. ألا'نك تبشر بالرحمة ، يجب أن تتلقى العذاب مع مشرق كل شمس ؟! الانك تريد أن تفرض العقل على

سلطان الفوضي ، يجب ان تزكي عن نبالة ما تريد ، برءوس أعز صحابك أيضا ..؟! ما افظع أن يكتب على الفكر أن يواجه قوى غاشمة بلا أخلاق !..

والا فما بال قريش فى مهرجان انتصارها ، تغــرى جاراتها الصغيرة ، فتأتى وفود الرعاة من هذيل الى المدينة تطلب رجالا يفقهونهم فى الاسلام ·· ويخرج الرجـــال المسلمون رجال من أفضل صحابك يا محمد ، فاذا بقبيلة هذيل تسلمهم لقريش ، وتقبض عن كل راس ثقـله من الفضة

اربعون رجلا سقطوا الواحد بعد الاخر ، سقطوا بـــكل اقتناعهم بأن شجاعتهم امام الموت هى أشرف مسئوليات الجهاد ··

أربعون من الشهداء العظام يا محمد !.. مهما يكن الاثر الرائع الذى خلفته شجاعتهم النادرة أمام الموت والظلمات ، فان الطريقة الغادرة التى قتلوا بها ، تظل تغرى القبائل على طلب المزيد امعانا فى السخرية ! ·· ولكنك الان قد امنت ظهرك استعدادا لقريش التى واعدتك بدرا من العام القادم

لقد انتهى أمر بنى النضير وعوضك ما غنمته منهم عن كثير مما خسرته فى أحد !.. فلا يجب ان تنتظر حتى تعود اليك قريش فى العام القادم .. لا يجب ان تسمح لها بأن تعقد الاحلاف ضدك ، فستظل القبائل من البدو تتخطف صحابك على النحو الغادر الذى حدث !

ومع ذلك فما يليق بك حين تسعى اليك وفـود بعض القبائل طالبة من يثقفها من صحابك ، ما يليق بك على أية حال ان ترفض ارسال مبعوثيك حرصا على حياة الصحاب! سيظنون بك الخوف وسيضيق نطاق دعوتك ··

ومع ذلك فيجب ان تبحث عن الامان لمبعوثيك ·· لابد

من خلق حالة من الاحترام ، وتثبيت هيبة جماعتك فى قلوب البدو ، فلا يخدعك رهط منهم بعد ..

ودرس محمد موقف كل القوى المتحالفة مع قريش .. فوجد ان بنى المصطلق هم أقوى هؤلاء الحلفاء ، واكثرهم نفوذا بين القبائل .. كانوا نكبة عليه فى احد ، فقد اعتمدت عليهم قريش فى تطويق جيوش المسلمين .. فلو أنه حاربهم وظفر بهم ، لالقى الرعب فى قلوب كل حلفاء قريش الاخرين، وفى قلوب كل القبائل التى تفكر فى الانضمام الى قريش

لقد غنم من بنى النضير كثيرا من الدروع والسيوف وآلات القتال .. كلها تعتبر من احدث ما وصلت اليه صناعة السلاح ، فاليهود صناع السلاح وتجاره يؤثرون انفسهم بأمضى أنواع السلاح . لقد غنم محمد ايضا خيلهم التى احسنوا تدريبها على القتال ! .. وما انتصرت قريش فى أحد الا بقوة فرسانها وخيلها ..

وهكذا وجد محمد جيشه مجهزا بأحدث الاسلحة وأدوات القتال ، وبالخيل المدربة .. بعشرات من الخيل المدربة . وهو الذى خاض معركة أحد بفرسين !!

ان هذه القوة الضاربة تستطيع ان تواجه قريشا وحلفاءها حالما يزحفون الى بدر ، كما واعد أبو سفيان ، وهو يترك وادى أحد ..

ولكن من الخير ان تعزل قريش عن حلفائها الاقوياء ..

***

غير ان المدينة امتلأت بحديث ساخط عن ايثار محمد المهاجرين دون الانصار بأموال بنى النضير وبيوتهم ... انطلق عبد الله بن أبى يهمس فى شيعته من الخزرج أن محمدا ما زال يفضل المهاجرين عليهم ، على الرغم من انهم هم الذين آووا المهاجرين .. ولولاهم لما استطاعوا ان

يجدوا ملجأ من قريش !.. وسمع سعد بن عبادة ما يقوله قومه من الخزرج فأخذ صديقه سعد بن معاذ زعيم الاوس وانطلق الرجلان يجتمعان بشيوخ الأوس والخزرج .. ودعوا عبد الله وشيعته من الخزرج . وسألوهم عما يشيعونه ، بينما محمد يستعد للمعركة الفاصلة مع قريش وحلفائها .. من اين تنبع هذه التيارات التى توشك أن تقسم المدينة ، وتطلق الفتنة ؟!

وابتسم عبد الله بن ابى ، كأنه لا يعرف شيئا .. ان أحدا لم يسمع همساته الا شيعته .. وبدا عليه كأنه هو الاخر يستنكر هذه الاقاويل !..

واكد سعد بن معاذ وسعد بن عبادة لشيوخ الانصار، ان محمدا لم يستأثر بالرأى دونهما بل دعاهما وفريقا من الانصار فأثنى على حسن ضيافتهم للمهاجرين ثم قال لهم: « ان اخوانكم المهاجرين ليس لهم مال فان شئتم قسمت اموال بنى النضير واموالكم بينكم جميعا وان شئتم امسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » ولكنهم اجابوا محمدا : « بل قسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت »

وعندما فرغ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من شرح الحقيقة للناس ، أخذا عليهم موثقا الا يتحدثوا فى أمر كهذا بعد والا يظنوا مثل هذه الظنون بالمهاجرين ، والا يسمحوا بأن يحدث اى شىء فى قلوب الاخوة الذين يقفون فى جيش واحد لمواجهة مصير واحد ..

وانفض الناس راضين ونظراتهم تشير الى عبد الله بن ابى ، الذى خرج يبتسم ويفتح ذراعيه لعناق محمد وصحابه ، وما فى القلب .. فى القلب .. !

ان محمدا لم يكد يشرع فى تجهيز الحملة على بنى

المصطلق .. حتى فوجىء برجل يحاول اغتياله .. رجل يحترف القتل ارسله أبو سفيان ! كان موفدا من قريش ولكن كيف دخل المدينة، وعند من أقام الايام الطوال متربصا ومن الذى دله على الفرصة المواتية لاغتيال محمد !؟

لا أحد يدري !.. والنظرات الغاضبة تشير الى ابن أبى، وابن أبى يبدى للناس غضبه على محاولة الاغتيال ، وحرصه الشديد على حياة محمد .. وانه ليبدى هذا الغضب والحرص ، أكثر مما يبدى الاصدقاء الخلصاء كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد بن معاذ ، وزيد بن حارثة .. والآخرون !

ثم يعود عبد الله بن أبى يحمل ابتسامته على شفتيه ، ويفتح ذراعيه لمحمد .. وصحاب محمد ..! ومرة ثانية .. وثالثة .. يفاجأ محمد بمن يحاول اغتياله !! . وتمر أيام فزع ، يسهر فيها سعد بن أبى وقاص بسيفه فى حراسة محمد .. ولا أحد بعد يدرى كيف يدخل المدينة هؤلاء القتلة المحترفون الذين يرسلهم أبو سفيان ، أو اليهود الذين أخرجوا كيف يدخلون ؟ اين يختبئون الليالى الطوال؟!

وفى كل مرة يقضى محمد او احد صحابه على محاولة الاغتيال وتشير النظرات الغاضبة الى عبد الله بن أبى ، وابن أبى يبدى الغضب والحزن ، ثم يضع الابتسامه على الشفتين ، وذراعاه مفتوحتان لعناق محمد !

وأوفد بعض أصدقاء محمد من يغتال أبا سفيان ،ولكن محمدا عرف هذا فأرسل الى الرجل من يعيده قبل ان يصل .. واخذ يعنفه ويعنف الذين أرسلوه فما كان الاغتيال سبيلا لمحمد .. وسيقهر أبا سفيان يوما ، وسيقتله ان اراد وجها لوجه ..

وفى هذه الايام الغريبة من الكيد والفزع لم تتصل الطمأنينة اسبوعا واحدا ليتيح لمحمد والمسلمين وقتا

للاستعداد لمعركة مع بنى المصطلق أقوى حلفاء قريش .. وتمر الاسابيع ، فيحين الموعد الذى حدده أبو سفيان منذ عام يوم انتصر فى أحد !

ويحشد محمد رجاله ، استعدادا لمعركته مع قريش وحلفائها اجمعين .. معركة يغسل بها عار الهزيمة فى أحد ! ويأتى وقت الخروج ، فيترك على المدينة بدلا عنه عبد الله بن ابى !

لقد كان عبد الله يحلم بالتاج وكانوا يجمعون له الخرز قبل ان يأتى محمد .. وما زالت الاحقاد تمشش وتفرخ فى قلبه منذ ذلك اليوم فليجرب جاه الملك اذن ، وليرض غروره!

خرج محمد الى بدر مهيأ القلب لمعـــــركة طويلة .. فاصطحب معه اثنتين من نسائه . وخطب فى جيشه ان الحرب قد تطول فلن تسلم قريش بالهزيمة بعد ان ذاقت النصر فى أحد، وبعد ان فشلت كل محاولاتها فى اغتياله.. وان معها الآن لحلفاء جددا أكثر من الذين اقبلوا معها الى احد .. يسبق محمد بجيشه الى بدر ليحسن اتخـــاذ مواقعه .. وكان الحر شديدا ، حر أيام لا يعمل فيها الانسان . وخشى محمد ان يتململ رجاله من قسوة الحر فأكد لهم أن المجاهد يلقى جزاءه مضاعفا كلما اشتـــدت قسوة الظروف ..

ومضى يحدث رجاله على طول الطريق .. وجد أحدهم متعبا يلهث على جمله والجمل هزيل أعجف ، متعب .. فقال له محمد مازحا : « أتبيعنى جملك ؟ » فقال الرجل: « بل أهبه لك » . « لا ولكن بعنيه » .. فقال الرجل : «ثمنه يا رسول الله» فقال محمد : «بدرهم» فقال الرجل . « لا .. اذن تغلبنى يا رسول الله » .. وضحك محمد قائلا : «بدرهمين» وما زال يكلمه حتى ذهب سأمه ..

ثم أسرع على دابته الى شاب آخر أجهده الحر فأخذ

يحاوره : « هل تزوجت بعد » فقال الشاب « نعم يارسول الله » فسأله : «أثيبا أم بكرا» فأجاب الشاب : «لا بل ثيبا » فقال محمد مبتسما : « أفلا جارية تلاعبهـــا وتلاعبك ؟ »

فقال الشاب : « ان أبى أصيب يوم احد وترك بنات له سبعا فتزوجت امرأة جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن » وقال له محمد : «أصبت!» وانطلق يحدث آخرين

وانطلقوا يتحدثون ويداعبون بعضهم البعض ويبددون السأم بالضحكات .. وهكذا اشاع جوا طيبـــا من المرح وسط رحلتهم الشاقة حتى وصلوا وادى بدر ..

وعلى ماء بدر .. عسكر المسلمون تحت شمس لافحة تكاد تحرق الاعواد الخضراء . وأقام الى جوار المــاء كما صنع فى معركة بدر الاولى واصطفت كتل من عســكر المسلمين لتحول بين الماء ، وبين قريش عندما يقبلون ! ..

أين حمزة اليوم ؟! .. ولبث المسلمـــون على ماء بدر ينتظرون أبا سفيان لميعاده ... ولكن لم يجىء أبو سفيان .

وخشى محمد ان يكون فى الامر خدعة .. لعل جيوش قريش تريد ان تتركهم حتى يسأموا ، ويضنيهم الحر .. فاذا هموا بالعودة ، فاجأتهم وهم متعبـــون على بعض الطريق واقبل من يخبر محمدا أن أبا سفيان لن يجىء فآثر محمد أن ينتظر حتى يأتيه خبر يقين .. وجاءه النبأ من عمه العباس أن أبا سفيان لن يجىء فى عامه هذا ، فقد خرج بجيوش قريش وواعد احلافها عنـــد مكان فى الطريق ، ولكنه سمع بالحشد الهائل الذى خرج فيه محمد بالاسلحة الجديدة والخيل .. ووزن ابو سفيان الامر ، فوجد ان القتال غير مأمون العاقبة .. وان جنود قريش سيحاربون ـ تحت لفحات الهجير وسط جفاف حارق ـ رجالا يرون فى شدة الظروف ما يضاعف لهم الجزاء !

وهكذا قرر ابو سفيان الا يحارب فى عامة هذا ، وسيستعد للعام القادم .. وسيحاول خلال عامه هذا أن يصدع جبهة محمد فى المدينة بعد أن نجح محمد فى دعمها وأخلف مكانه عبد الله بن أبى ، واخرج يهود بنى النضير!. وجمع أبو سفيان سادة جيشه فقال لهم : « أن عامكم هذا عام جدب ، الا لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن . وانى راجع »

ورجع ابو سفيان ورجع الناس وراءه تطاردهم جميعا سخرية حلفائهم ! .. وعاد محمد بجيشه الى المدينة .. عاد ظافرا هذه المرة وان لم يشتبك فى معركة . . فقدذاعت الاخبار من قبيلة الى قبيلة أن أبا سفيان قد انسحب بجيش قريش خوفا من الاشتباك مع محمد وجنوده !.

غير أن بنى المصطلق لم يرق لهم الامر .. كانوا هم أضخم حلفاء قريش .. وكانت لهم تجارة واموال وأحابيش، وما تركوا الصدارة لقريش الا لانها تسكن حول البيت العتيق التى تقوم فيه الآلهة ..

وعز على بنى المصطلق أن تنخذل قريش ، فارسلت الى ابى سفيان تؤنبه واطلقت شعراءها فى هجائه . وقام الحارث زعيم بنى المصطلق يدعو القبائل المجاورة له الى حلف .. فجمع جيشا كبيرا من جيرانه المقيمين على البحر الاحمر ..

فليأخذ بنو المصطلق قيادة المعركة من قريش . . وليأخذ هو الراية من أبى سفيان ! . . وانه لاجدر بالراية من ابى سفيان .. وعلم محمد بما يصنعه الحارث فرأى أن يبادر بالخروج قبل ان يستعد بنو المصطلق ويزحفوا . وليختر هو أرض المعركة ، وجمع الناس واستشارهم فاقروه على ما رآه واستشار عبد الله بن أبى ــ خاصة ــ امام الناس جميعا ، فأقره وهو يحلم ان يتركه على المدينة ، مرة اخرى .. ولكن محمدا طلب منه أن يستعد فسيجعله على لواء الخزرج!

وحشد محمد الفا وخمسمائة محارب وكثيرا من الخيل والابل وأقرع بين نسائه فجاءت القرعة على عائشة ، واسرع محمد بجيشه ليباغت بنى المصطلق فوجدهم يملأون السهل على مقربة من ديارهم .. وأمر محمد بالهجـــوم فى السهل المكشوف . والقى بكل قواته فى هجوم خاطف.. واصيب الحارث قائد بني المصطلق بسهم، فسقط جريحا. واضطربت صفوف بنى المصطلق أمام تدفق السهام والرجال

وبدأ جنود بنى المصطلق يفرون .. وجيش المسلمين يطاردهم حتى أسروا منهم مائتين .. وغنموا آلاف الأغنام والابل وكثيرا من المتاع .. وهكذا استراح محمد من عدو لا يقل خطرا عن قريش .. انه الآن بعد هذا الانتصـــار سيملأ خزائن المدينة ويضمن فترة طويلة من السلام!. فمن يستطيع أن يتحالف مع قريش بعد ، دون أن يفكر فى مصير بنى المصطلق ؟

جرح زعيمهم الحارث .. ووقعت ابنته فى الاسر ..

وزع محمد الاسرى من الرجال والنساء بين المجاهدين، فوقعت برة بنت الحارث فى نصيب رجل فقير .. فطمع فى مالها وكاتبها على مبلغ كبير ليحررها ولكن مالها كان قد أصبح من الغنائم ، فذهبت الى محمد تشكو

وقال محمد وهو يستمع اليها : « هل لك فى خير من ذلك » فقالت : « وما هو .. » قال : « اقضى عنك كتابك واتزوجك » .. فقالت : «نعم» قال : « قد فعلت »

ودفع عنها ما كاتبها عليه آسرها الفقير ، ودعاها الى الاسلام وتزوجها .. فاسلم ابوها ، ومعظم الاسرى من رجال أبيها ..

لقد وجدوا فى هذا النسب شرفا لهم . وكانوا يرون فى محمد ملكا على المدينة ، والقبائل المتحالفة معها .. انه الآن لاعلى مكانا من اى سيد فى الجزيرة ..

.. والمنافقون أيضا .. !

بدأ يستعد للعودة الى المدينة فى موكب الظافرين ! ..
لقد كسب فى ضربة واحدة أكثر مما كان يرجـــو .. ضرب بنى المصطلق فى ديارهم ، وفرض هيبة الدعوة على الذين كانوا يفكرون فى الانضمام الى قريش ، وغنم أموالا وسلاحا ومتاعا يمنح مدينته العز والمنعة ، وضـمـن الا يتجمع بنو المصطلق للثأر ، فقد تزوج بنت قائدهم الحارث فتبعه أبوها وأخوها وقومها ، ورأوا بعد هذا النســب أن يناصروه .. وغير اسمها من برة الى جويرية

ولم يكن وقت توزيع الغنائم قد حان بعد ، فمحمد قد فرغ لساعته من اطلاق الاسرى ومن تخصيص فريق من صحابه يعلمونهم الاسلام ، وهو ما زال يأخذ المواثيق على بنى المصطلق أن يكونوا فى هذا المكان من شـاطىء البحر الاحمر .. دعامة للدين الجديد !

ولكن عبد الله بن أبى نجح فى أن يغير من قلوب بعض الانصار على المهاجرين : احذروا محمدا لانه يؤثر المهاجرين دائما ، والمهاجرون يشعرون بانهم افضـــل !.. وكان عبد الله بن أبى وبعض اغنياء الانصار يطمعون فى أموال الغنائم ، ولكن محمدا كان قد قرر أن يعطى الفقراء من المهاجرين ليستغنوا عما يقدمه لهم الانصار فيخفف الحمل عن أهل المدينة ، وينتشل المهاجرين مما يعـــانونه من فقر . وكان يقول لهم : كاد الفقر أن يكون كفرا ..

وكان يريد أن يقرب الفوارق بين الاغنياء والفقراء فلا يصبح المال للاغنياء وحدهم ، ولقد تلا عليهم : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » ..

ولكن عبد الله بن أبى كان يضيق بهذا ، ويطمع فى أموال الفىء ، ويطالب بأن يكون المال دولة بين الاغنياء ! ولقد حاول أن يثير السخط على أسلوب توزيع الفىء ففشل .. ودفع احد شيعته من الخزرج أن يزاحم رجلا من المهاجرين على بئر يستقى منه فدفعه المهاجر فوقع فاستنجد الخزرجى : يا معشر الانصار ! وقام اليه بعض شيعة عبدالله .. واستصرخ المهاجر:يامعشر المهاجرين!..

وأقبلت جماعات من المهاجرين والانصار حول البئر ، وتحرج الموقف وانتهز عبد الله الفرصة فوقف يخطب فى الانصار : « أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله اننا وهؤلاء كمثل قول القائل : « سمن كلبك يأكلك .. اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل » .. ثم اقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : « هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم » ..

وعلم محمد بما يحدث فأسرع الى الناس يصرخ فيهم ويؤنبهم .. ثم نادى عبد الله بن أبى ، فسأله كيف يقول ما قال . وانكر عبد الله .. واتهم من أبلغ محمد بالكذب . وكان عمر الى جوار محمد فقال له : « اقتله » ! كم من مرة قبل هذه طلب عمر من محمد ان يقتل عبد الله ويجيبه محمد : « كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل اصحابه »

كان عمر يكره عبد الله وابتسامته وذراعيه المفتوحتين ، وحرصه على تزويق الكلام .. ان هذا التزويق ليخفي شيئا كريها بلا ريب ! وكان عمر لا يخفى ازدراءه لعبدالله ، وما التقيا الا شعر عبد الله أن نظرات عمر تمزق عنه اقنعته الزائفة قناعا بعد قناع !

وتأمل محمد فى وجوه الانصار .. ان احد كبارهم ليقول : « عسى أن يكون من أبلغك ما ابلغك عن عبد الله قد أوهم فى حديثه » ! ان بعض الانصار ما زال يحدب عليه .. فهو حيث لا يحمل حقدا لا يبدو منه غير الملمس الناعم .. أما أعماقه العامرة بالضغينة ، أعماقه التى تبدو عارية امام نظرات عمر ، فهى لا تنفث الا أمام من يحمل لهم الحقد !..

وانتظر محمد أن يقول أحد الانصار شيئا آخر ، واشار الى المهاجرين أن يلزموا الصمت ، فتقدم أحد الانصار قائلا : « أما أنه قد زعم ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فانت يا رسول الله مخرجه منها ان شئت ، هو والله الذليل وانت العزيز » وتقدم رجلٌ آخر يقول : ارفق به فانه ليرى انك قد سلبته ملكا ..

وانقض بعض الانصار يفضحون عبد الله !.. كانوا قد شعروا بالاسف الذى ملأ قلب محمد منذ رأى عبدالله يكذب ، وأحد الانصار يظاهره فيكذب هو الآخر !.. وكانوا فى الحق قد ضاقوا بكيد عبد الله ، وعز عليهم ما يلقاه منه محمد وهو صابر ..! فاستبقوا الى مواجهة عبد الله بكل ما زيفه على الناس ، وبكل كيده ..

وتخاذل عبد الله حتى لقد تزايل الى أغوار نفسه ، ولم يعد يستطيع أن يجد ما يقوله .. شلت الكلمات على لسانه ، وغاضت ابتسامته فى الشحوب .. وبدأ يرتعد، انهم — وهم قومه — ليطالبون محمدا بان ينزل به عقاب

المفسدين فى الأرض . طالب برأسه أحد سادة الخزرج ، وطالب بها أحد سادة الاوس ، وألح فى طلبها كثير من شباب الانصار ! ومحمد صامت ينظر الى عبد الله الذى لم يعد قادرا على اصطناع ابتسامته المعروفة بعد !..

ثم تقدم ابن عبد الله منتفضا بالحماس فقال لمحمد : « والله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى انظر الى قاتل أبى يمشى بين الناس فاقتل مؤمنا بكافر فادخل النار » فقال محمد لابن عبد الله : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » ..

وبهت الناس . كانت أيديهم على مقابض السيوف ؛ كل منهم ينتظر أن يحصل على شرف قتل عبد الله بن أبى !..

واذ رأوا عفو محمد عنه بعد كل ما كان منه انقضوا على عبد الله يعنفونه . وقال محمد لعمر : أذن بالرحيل . وأكمل وهما يركبان : أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لغضب رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه !.

وانطلق الركب عائدا الى المدينة .. وظل محمد يسير بصحابه النهار والليل بلا راحة ، عسى أن يشغلهم عما كان بينهم حول البئر وعن كيد عبد الله ..

سار بهم يومهم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، واستمر يمضى بهم يومهم ذلك تحت شمس لافحة . حتى اذا جاءت الليلة التالية ، نزل بهم ليستريحوا قليلا ، واذ لمست أقدامهم الارض وقعوا نياما . ثم أيقظ النيام ، وأمر من يؤذن فى الناس بالرحيل

وبلغوا المدينة .. فتلا عليهم : « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »

واستلقى كل فى بيته ينام كما لم ينم من قبل ..

نحو معركة فاصلة

لم ينس بنو النضير هزيمتهم أبدا .. كانوا يضربون في التيه وعيونهم تتطلع الى ما وراء الافق ، حيث تستلقي - في سلام - المدينة التي سادوها لبعض الوقت وكدسوا فيها الثروات من الربا ، وأنشأوا حولها البساتين وملأوها ببيوت المتاع والصخب والاضطرام ، واختاروا رجلا من أهلها واستعدوا لتتويجه .. ثم أقبل محمد ، فلم يعد في المدينة ربا ، ولم يعد لهم عبيد يعملون في البساتين ، ولا متاع بعد ولا صخب ولا اضطرام ! ..

لم يتخلوا أبدا عن أحلامهم بالعودة الى المدينة ليقيموا فيها أسواقهم كما كانت من قبل ، وليكسبوا من الربا أضعافا مضاعفة ، وليفتحوا بيوت اللهو القديمة العامرة بالقمار والخمر والحسان .. وليتوجوا عليهم عبد الله ابن أبي سلول ! .. وانطلقوا مع فلول يهود بني قينقاع : الاحقاد في الصدر ، وأحلام السيطرة تملأ الرءوس .. فطافوا بكثير من القبائل يعقدون معها المحالفات حتى قدموا مكة على قريش فعاهدوهم أن يكونوا جميعا على محمد حتى يستأصلوه ..

كانت مكة تستعد ، وجاءها اليهود يستحثونها وقد رصد أغنياؤهم للحرب كثيرا من المال ، وجمعوا من هنا وهناك كل ما استطاعوا لتمويل حملة تدك المدينة . وتحرك جيش لم تعرف مثله الجزيرة العربية من قبل ..

جيش يضم فرسان تهامة وكنانة والمقاتلين الاشداء من نجد وأبرع رماة اليهود وجنود قريش بعبيدها المدربين القساة ، وأحابيشها الذين يتقنون اطلاق الرمح فجأة ، وخيلها وأشدائها وسادتها وجواريها المغنيات ، وسقاتها ومجانها ، ونسائها الفاتنات يحرضن الرجال على القتال .. زحف هذا الجيش الهائل تحت قيادة ابى سفيان رئيس حكومة قريش ، وتلقى محمد رسالة من عمه العباس ابن عبد المطلب يشرح له فيها كل شيء ..

وأدرك محمد أنه لن يجد الوقت ليحشد جيشا يواجه به الاحزاب مجتمعة فى معركة مفتوحة فى العراء .. ولئن وجد الوقت فلن يجد العدد الكافى أبدا . لقد واجـــه بثلاثمائة رجل ألفا من رجال قريش فى بدر وهزمهم .. وحشد كل طاقته فى أحد فجمع نحو ألف رجل انسحب منهم ثلاثمائة ، ولكنه أوشك بالسبعمائة الباقين ان يقهر نحو أربعة الاف فى أحد لولا العصيان ! ..

ولكن الفرق بين القوتين الان رهيب .. فهو مهما يحشد من مهاجرين وأنصار ومن حلفاء فلن يستطيع أن يحشد اكثر من ثلاثة آلاف بلا خيول .. فكيف يواجه بهم آلافا مؤلفة معهم أحدث الاسلحة التى تصنعها اليهـــود وفيهم مئات الفرسان ..

لقد ظلت قريش تستعد ، واليهود يؤلبون القبـــائل ويحزبون الاحزاب ضده واستشار محمد كما تعود ... فأشار عليه احد المسلمين أن يخرج بجيشه وسينصرهم الله كما نصرهم فى بدر ! ..

وأشار اخرون أن يعتصموا فى المدينة ليدافعوا عنها .. فلا يستولى المهاجمون على شبر من الارض الا على رفات شهيد ! ورأى محمد أن فى الخروج من المدينة مخاطرة

.. فمن يدرى ماذا يمكن ان يصنعه عبد الله بن أبى ..؟

وهناك أيضا يقيم يهود بنى قريظة .. لا آمان لهم ، فما هم بخير من يهود بنى قينقاع أو يهود بنى النضير ..

انهم لن يخرجوا معه الى قتال العدو الزاحف ، اذا قرر الخروج ، وما يدرى بعد الى اى مـــدى يمكن أن يذهبوا ، فقد ينتهزون فرصة خروج كل المقاتلين المسلمين ليدبروا انقلابا فى المدينة ، أو ليحالفوا عبد الله بن أبى ويجعلوا منه ملكا ، ويقيموا لهم دولة ، فيعود محمد بعد الحرب ، ليجد قاعدة انطلاقه قد احتلتها دولة الاعداء ..

ومع ذلك فلئن أقام فى المدينة وانهزم عنهـــا بعض المحاربين ، لدخل رجال الاحزاب مدينته الخضراء يقتلون الاطفال ويخربون الدور ويحرقون البساتين ، ويسبون النساء .. ستكون مذبحة يدفع ثمنها الضعفاء .. ما هذا برأى ! .. يجب ألا يعتصموا بالمدينة ! ..

وظل محمد يفكر فى خطة يدفع بها الوبال الزاحف ، والوقت يمضى .. وكم أشار عليه الرجال .. ولكنه كان يجد فى كل خطة ثغرة ! ..

وأخيرا تقدم سلمان الفارسى برأى .. تذكر سلمان كيف كان القادة العظام يدافعون عن المدن الفارسية أمام غارات الروم .. واقترح أن يتبع المسلمون نفس الاسلوب : أن يخرج كل الجيش الى ظاهر المدينـــة ، ويتحصن وراء خندق ! .. خندق ؟ وما هو هذا الخندق يا سلمان !.. فليحفروا أمام الاسوار حفرا واســعا عميقا ، يقفــون خلفــه فاذا اقترب العـــدو من هذا الخندق برزوا اليه واستفزوه ليتقدم أيضا وان هى الا خطوة حتى تسـقط صفوف العدو فى هذا الخندق اذا حاولت اجتيـــازه !

وستحاول لان كبرياء الغازى تمنعه فى الغالب من التقهقر أمام حفرة من الارض ! ..

تحمس محمد للفكرة ، وتحمس لها كثير من المسلمين .. ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها . وقال بعض الانصار : « سلمان منا » . فقال بعض المهاجرين« سلمان منا » .. واتجهت نظرات سلمان الى محمد فقال باعتزاز: « سلمان منا أهل البيت ! » . ووضع محمد الخطة .. أن يحفروا الخندق ، وان يقف الرماة المسلمون على الاسوار .. والمقاتلون الآخرون على حافة الخندق مستندين الى أسوار المدينة ... وأذن محمد فى المسلمين أن يبدأوا فى حفر الخندق ورفع هو أول فأس فضرب بها الارض الصلبة .. ورفع الصخر بيديه ومن حوله المسلمون يعملون فى حماس خارق ، يلهبه سلمان بما يروى لهم عما صنعته الخنادق بالقوات الزاحفة مهما يكن تفوقها فى العدد ..

ولكن همهمة سرت فى المدينة .. وما جدوى الخندق! لماذا يجهد الناس فى هذا العمل، حتى اذا أقبل العدو وجدهم متعبين مجهدين ؟ .. لماذا لا يحتفظ كل رجل بعافيته ، ويعتصم فى بيته ، ليدفع عن أهله ان هجم العدو ! .. ما جدوى الخندق الا انه مجهود يبذل بلا طائل فأسوار المدينة العالية كفيلة برد العدوان ! .. وكان عبد الله ابن أبى وراء هذه الهمهمة .. وتراخت بعض السواعد .. وبدأ بعض الرجال ينسحبون من العمل فجأة ويتسللون الى أهليهم بغير علمه . وأصدر محمد أمره الا ينسحب أحد من العمل حتى يستأذنه . وحذر الذين يخالفون أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ..

وانتهى حفر الخندق على أية حال .. وأقبلت قريش

في عشرة آلاف من الاحابيش وآلاف أخرى من رجالها ، ثم أقبلت آلاف من تهامة وكنانة وآلاف من محاربى نجد الاشداء يتصدرهم شجعان غطفان ..

وعسكرت جيوش من الاحزاب على تلال مرتفعة تواجه المدينة .. وعسكر محمد بجيشه أمام الاسوار ، والخندق بينه وبين الاحزاب . وأقبل الليل ، ولم يلتق الجمعان .. وتسلل حيى بن أخطب سيد بنى النضير المطرود الى يهود بنى قريظة المعتصمين خلف أسوارهم الخاصة فى ضواحى المدينة ..بعيداعن الخندق وعما يصنع الجمعان !

وانهم على الرغم مما تلزمهم به صحيفة التحالف مع محمد ، قد قرروا أن يقفوا على الحياد فى المعركة ..

وخف كعب بن أسد سيد بنى قريظة لاستقبال حيى ابن اخطب النضرى .. وقال له حيى : « جئتك بعزالدهر وببحر طام .. جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه !! »

ومازال به حيى يغريه أن يخطو فى الموقف ضد محمد خطوة أخرى بعد الامتناع عن مساعدته فى مقاومة الغزو بدعوى الحياد ! .. ولكن كعب بن أسد خائف !

فلئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ، لينتقمن محمد من بنى قريظة . وقال كعب : « دعنى وما أنا عليه فانى لم أر من محمد الا صدقا ووفاء ! »

غير أن حيى بن اخطب ، ظل يغريه بغنى الايام القادمة ان هم استأصلوا محمدا ومن معه . ثم وعد بنى قريظة بنصف خيرات المدينة ان هم انضموا الى الاحزاب ، فاستولوا عليها جميعا .. وأعطاهم ابن أخطب عهده

وميثاقه أن يدخل معهم حصونهم فيصيبه ما يصيبهم من انتقام محمد ان فشلت الاحزاب !

ومازال حيي بن اخطب حتى أعلن كعب بن أسد سيد بنى قريظة أنه يبرأ من صحيفة التحالف مع محمد ، وينضم الى الاحزاب ! •• وروع محمد عندما انتهى اليه الخبر ! •• انه ليواجه الاحزاب مجتمعين أمام هذا الخندق ، فكيف يقوى على حربهم وفى ظهره قوات بنى قريظة ! ؟

ودعا اليه سعد بن معاذ سيد الاوس ، وهم حلفاؤهم وحماتهم القدامى وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعض أصدقائهم من سادات المدينة ، وأوصاهم محمد أن ينطلقوا حتى ينظروا أحق ما بلغه عن بنى قريظة أم لا ! •• فان كان بنو قريظة على الوفاء لما كان فليجهروا به للناس ، وان كان حقا ما بلغه ، فليلحنوا له لحنا يعرفه حتى لا يفت الخبر فى اعضاد الناس !

وخرج مندوبو محمد حتى جاءوا بنى قريظة فى حصونهم ، وتقدم اليهم سعد بن معاذ حليفهم وحاميهم القديم فسألهم عما بلغ محمدا عنهم فقالوا له : « لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ! » • وحاول سعد بن معاذ أن يقنعهم بفساد ما قرروه ، واستحلفهم بكل الصداقات القديمة وبحقوق الولاء ألا يخذلوه فى موقف نكد كهذا ••

ولكنه وجدهم على أخبث مما يحسب •• فاحتد عليهم وشاتمهم فشاتموه

فانصرف مغضبا مع صحبه ، وسعد بن عبادة يقول له: « دع عنك مشاتمتهم فمابيننا وبينهم اربى من المشاتمة! » •• وعادوا جميعا الى محمد فلحنوا اليه لحنا يدل على أن بنى قريظة قد غدروا به •• وأدرك محمد الاشارة ••

واقترح عليه سعد بن معاذ أن يتجهوا الى بنى قريظة

فيبيدوهم فى حصونهم قبل أن يتمكنوا من طعن ظهور المسلمين ، وليبق الرماة على الاسوار يرمون رجال الاحزاب بالنبال اذا اقتربوا والخندق بعد ذلك كفيل باقتناصهم !

ولكن محمدا رفض الخطة ، وصمم على أن يظل الجيش بكل عدته لمواجهة الاحزاب .. على أن يحمل جناح منه مسئولية المعركة مع بنى قريظة ان هم تركوا حصونهم وزحفوا ليفاجئوا المسلمين من الظهر ابان المعركة ! ..

وتقدمت جيوش الاحزاب حتى اقتربت من حافة الخندق فانقض الالاف من حملة النبال يوجهون سهامهم الى المسلمين دفعة واحدة ! .. كانوا متفوقين فى العدد على نحو رهيب ! .. ولم يستطع الرماة المسلمون أن يثبتوا لهم على أسوار المدينة فأمرهم محمد أن يتحصنوا وراء الاسوار بدلا من اعتلائها ، وان يواصلوا جهدهم ضرب جيوش الاحزاب بالنبال ..

على أن اندفاع جيش الاحزاب فى موجات هائلة تحاصر أسوار المدينة القى الرعب فى قلب كثير من المسلمين .. انهم وهم ثلاثة الاف رجل يكادون أن يختفوا أمام طوفان الجيوش الزاحفة بعشرات الالاف فى خيلها وعدتها وابلها المدربة على القتال ..

وخشى المسلمون أن ينتهز بنو قريظة الفرصة فيحاصروهم من ظهورهم .. أو يهاجموا الدور الخالية من الرجال فى الضواحى ! .. وارتفع صوت من معسكر المسلمين : « كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر واحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ! » . وارتفع صوت آخر : « ان بيوتنا عورة فليأذن لنا أن نخرج فنرجع الى دورنا فانها خارج المدينة » وارتفع صوت آخر حاسم : « انهم لينافقون فأذن لنا أن نقطع رقابهم » ..

ولكن محمدا لم يكن يحب أن يستكره أحدا على القتال .. فما جدوى أن يخوض المعركة بجنود كارهين . وأدرك أن الخوف يسيطر على بعض القلوب ، فأذن لمن يريد أن يعود الى بيته أن يعود فهذا خير من أن يبقى فى الصفوف ليشيع الانهزام ، وليثبت فى الصفوف من يجد فى نفسه القدرة على مواجهة الخطر والرغبة الصادقة فى الاستشهاد دفاعا عما يؤمن به !! ..

وهمهم لنفسه وهو يتقدم الصفوف : « عفا الله عنك لم اذنت لهم !! » .. ولكنه عاد فرأى الخير فى تخليص صفوفه من العناصر الخائرة . ثم أخذ يتلو عليهم : « واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا .. قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذن لا تمتعون الا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله أن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا » ..

وجمع قوداه يستشيرهم وقد اشتد البلاء .. فلقد يرى أن يعمل على تمزيق وحدة الاحزاب ، والحرب خدعة ! .. فليعرض صلحا منفردا على نجد : أن يعودوا ولهم ثلث ثمرات المدينة !

ولكن سعد بن معاذ سيد الاوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، تقدما من محمد مغضبين فسألاه : « يا رسول الله ، أمرا تحبه فتصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به . أم شيئا تصنعه لنا ؟ »

فأجابهما محمد : « بل شيء أصنعه لكم ، والله ماصنع

ذلك الا لاننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما » .. فقال سعد بن معاذ : ان أهل نجد لم يكونوا يأكلون ثمرة واحدة من ثمار المدينة الا بيعا أو ضيافة ، فكيف يعطونهم أموالهم ؟ .. ثلث ثمار المدينة ! لا .. !!

ثم قال سعد : « والله لا نعطيهم الا السيف » .

وتناول سعد صحيفة مشروع الاتفاق فمحا ما فيها قائلا : « لا ليجهدوا علينا »

واستعد أهل نجد للمعركة الى جوار الاحزاب .. واستعدت كل الاحزاب

وتقدمت جموع الفرسان تبحث عن مكان ضيق من الخندق لتعبر منه . وبعد بحث طويل وجدوا مكانا تستطيع أن تعبره الخيل .. وضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، واكتشف على بن أبى طالب أن الفرسان يعبرون الخندق من مكان ضيق فيه ، فقاد جماعة من جيش المسلمين ليمنعوا الفرسان من عبور الخندق

كان المكان لا يسمح الا بعبور حصان واحد ، ولكن عليا أدرك أنهم ان تركوا المكان بغير حراسة لعبر منه مئات الفرسان : الواحد بعد الآخر ..

وكان يقود الجماعة التى عبرت الخندق فارس معلم من قريش اسمه عمرو بن عبدود .. فتصدى له على ودعاه الى المبارزة فقال له عمرو : « لم يا ابن أخى أبى طالب .. ما أحب أن أقتلك » . فتقدم منه على صائحا : « لكنى والله أحب أن أقتلك » .. وبارزه على ، فقتله ..

ثم قاد جماعة من المسلمين يقاتلون الذين عبروا الخندق ، حتى أجلوهم وخرجت خيلهم منهزمة تقتحم من الخندق هاربة !

ان عليا ليصنع كما صنع حمزة يوم بدر • وتذكر المسلمون يوم بدر وانتصارهم الرائع هناك بمثل هذه الاعمال الفدائية الخارقة •• لتعاودهم تلك القوة الداخلية الخارقة التى كفلت لهم النصر !

ولم تعد جيوش آلاحزاب تفكر فى عبور الخندق •• ولبثت فى معسكرها دون الخندق يفكرون فى طريقة أخرى لهجوم مكتسح ••

وقرر أبو سفيان قائد الاحزاب أن يصبوا سهامهم على جيوش محمد بلا انقطاع ، حتى اذا ما نالوا منهم ، اجتازت الاحزاب المكان الضيق من الخندق رجلا بعد رجل •• وردموه من أنحاء متفرقة ليعبره الآخرون ••

فليوجهوا سهامهم الى الابطال من المهاجرين والى سادة المدينة فاذا سقطوا يتخاذل الآخرون ! •• وكان محمد قد أمرهم الا يبرزوا الا وهم فى دروعهم السابغة التى غنموها من بنى النضير وبنى قينقاع وبنى المصطلق •ولكن سعد بن معاذ برز فى درع قصيرة بلا ذراعين •• وما ان ظهر أمام الرماة حتى اصابه سهم فى ذراعه •• وامر محمد بأن يحمل الى المدينة لتعالجه امرأة هناك تحذق الطب ••

وجاء الليل من جديد وقريش تفكر فى طريقة تعبر بها الخندق •• والمسلمون يتناوبون حراسة المكان الضيق منه • وفى احدى الليالى تسلل أحد فرسان قريش ومن ورائه صف طويل من الفرسان ليقتحم من المكان الضيق •• ولكن حصانه سقط فى الخندق ، وتبعه آخر فسقط وانهالت الحجارة من فوقهم ••

وصاح الآخرون وكان يقودهم عكرمة بن أبى جهل : ان المكان الضيق لم يعد صالحا للعبور بعد ، فقد حفره

اصحاب محمد من جديد تحت جنح الظلام

وأمر على رجاله ان يسددوا سهامهم على الاصوات.. وسدد هو سهمه الى عكرمة بن ابى جهـــل فاصابه .. وشعرت قريش انه لا سبيل الى اقتحام الخندق ، وانه يجب عليهم ان يستفزوا المسلمين ليعبروه الى قتـــال مكشوف في الخلاء ..

وأرسل أبو سفيان الى محمد يتهمه بالجبن لانه يكيد مكيدة ما كانت تعرفها العرب ويحتمى وراء الخنـدق .. فليخرج اليهم فى الساحة ان كان شجاعا ! !

وابتسم محمـــد وارسل رده على ابى سفيان .. انه سيخرج اليهم فى يوم قريب ليحطم اصنام قريش ! ..

وأذن محمـــد فى رجاله ان يثبتوا وان يصبروا .. فوراءهم المدينة بالطعام والماء والامدادات . اما الاحزاب فهم فى العراء ، وبينهم وبين مراكز الزاد سفر طويل فلن يقووا طويلا على البقاء ! فليصبر عليهم المسلمون لبعض الوقت حتى اذا انهكهم نقص الطعام والماء ، وعلم انهـم ارسلوا فى طلب المدد .. خرج عليهم فهاجمهم فى الوقت الذى يختاره هو للقتال !

ليصبر المسلمون .. فالصبر اليوم هو اقوى الاسلحة!

وهزم الأحزاب وحده ..

ما جدوى الآلاف المؤلفة من الجنود الاشداء اذا كانوا لا يستطيعون عبور هذا الخندق ليأخذوا جيش محمد من كل جانب ! ؟ .. بم يمتازون اذا كان عليهم ان يواجهوا جنود محمد رجلا لرجل !؟ .. ان هؤلاء الالاف الثلاثة الذين حشدهم محمد أمام أسوار المدينة ليطلبون المبارزة .. وعلى جيوش الاحزاب اذن أن تخرج لهم ثلاث الاف من شجعانها ، ربما قتلوا جميعا فى هذه المبارزات وانسحب الباقون فى استخذاء ! ..

وشاع السأم فى جنود الاحزاب ، ودب الملل الى القلوب من طول الحصار ، وبدأ الزاد ينفد .. وجيش المدينة لا يبالى ، فمن ورائهم خلف الاسوار ، تقع مدينتهم بكل خيراتها .. ! وتمنت غطفان لو انها وصلت فى مفاوضتها مع محمد الى حل يرضيه ، ثم انسحبت ! .. وحتى بنو سليم الذين اقبلوا على جيادهم تدفعهم الرغبة فى الانتقام من الهزيمة القديمة .. حتى بنو سليم فكروا فى الانسحاب منذ رأوا الطعام ينفد ، وخيولهم تهزل من قلة الكلأ !

لقد أحسن محمد رسم الخطة لمواجهة جيوش الاحزاب فاجتث كل النبات والثمرات وكل ما هو أخضر من الاماكن التى توقع أن يعسكروا فيها ووضع على القوات المهاجمة عبئا جديدا : ان تدبر الطعام والمرعى لجندها وخيلها ..

وبنو قريظة لا يهاجمون بعد ‥ ! انهم ينتظرون فرصة الهجوم الشامل !

وأبو سفيان حائر لا يستطيع أن يصبر على الحصار ، فهو لا يفتأ يستفز المسلمين ليتركوا مواقعهم وراء الخندق ، ويخوضوا معركة فى العراء المكشوف ، أمام قوات الاحزاب ‥ كما حدث فى أحد ! ‥

ويشعر أبو سفيان بما يصنعه السأم فى معنويات حلفائه ‥ ويخشى أن يفاجئوه بالانسحاب ، فيضطر هو نفسه الى الانسحاب بقواته ! ‥ لن يغفر محمد لهم هذه المحاولة الفاشلة ، وسيقطع على قريش طريق التجارة الى الشام ! ٠ وطاف فى ذهن أبى سفيان ـ لبعض الوقت ـ أن يعرض على محمد صلحا معقولا يسمح لقريش بأن تنسحب لا منهزمة عن المدينة ـ بل عافية عنها ـ على أن يتعهد محمد ألا يتعرض لتجارة قريش ‥

ولكن أبا سفيان ، خشى أن يستشير حلفاءه فينهار كل شىء ، ويستبق قادة الاحزاب المتحالفة الى محمد يقدمون له الطاعة ويحالفونه ضد قريش ! ‥

وأدرك محمد كل ما يعصف بمعسكر الحلفاء ، فناشد جنوده كثيرا من الصبر أيضا ‥ فالصبر هو الذى سيحمل له النصر فى النهاية ٠ واجتمع رجال الاحزاب يتشاورون

انهم ليشعرون بالحاجة الى الطعام يوما بعد يوم ‥ والخيل تهلك فى بحثها المضنى عن الاعواد الخضراء ‥ لقد أدركوا الآن أن محمدا بنى خطته العسكرية على الصبر والانتظار ، وأنه لن يدفع بقواته القليلة الى الاشتباك فى معركة مفتوحة مع جيوش الاحزاب الضخمة ٠ فليحاولوا اقتحام الخندق اذن رجلا بعد رجل ، وليحاربوا جيش محمد

رجلا لرجل ! ‥ هذا هو الحل ‥ ولكن من من الاحزاب يبدأ ‥ ؟ لتقدم قريش صناديدها ٠ ولكن لماذا لا تقدم غطفان رجالها ؟ ‥ وبنو سليم لماذا لا يتقدمون هم اولا ؟ ‥ وبينما هم يتناقشون والخلاف يوشك أن يحتدم بينهم اذ برجال محمد يخرجون اليهم من وراء الخندق ينادونهم الى طريق سواء : أن يؤمنوا بالدين الجديد ولينسحبوا امنين ! ‥ وشعر ابو سفيان بالاهانة ! ‥ حتى فى هذه اللحظات التى تغمر محمدا بطوفان من قوى الاعداء ، يدعو الناس الى دينه الجديد ، فى ثقة مطمئنة بالنصر ؟ ٠ اتسمح له هذه الثقة بأن يؤمنهم على حياتهم ـ كما لو كانوا أسراه ـ ان هم امنوا بما يدعو اليه ! ‥ ورد أبوسفيان دعوة محمد ، واتهمه مرة أخرى بالجبن ‥ وتحداه أن يبرز بقواته من وراء الخندق ليشتبك مع قوى الاحزاب ولكن لم يكن توجيه الدعوة الى رجال الاحزاب ان يؤمنوا بالعقيدة الجديدة وان يجعلوا تعاليمها هى اسس التعامل فيما بينهم ‥ فليعلنوا ايمانهم مخلصين ، وليعودوا الى أهلهم فى سلام ! ‥ ووجه نفس الدعوة الى بنى قريظة الذين اعتصموا فى حصونهم منتظرين الفرصة المناسبة للانقضاض ٠ ولم يلق محمد أى رد على دعوته الا الزراية والاستخفاف ثم التعريض بهزيمته فى أحد ، ثم النذير باستئصاله وابادته ‥

وانطلق قادة اليهود يجددون وعودهم لرجال الاحزاب ، ان يتركوا لهم أموال المدينة ان هى سقطت ، وان يعطوهم مزيدا من المال ‥ وهمسوا لقادة غطفان الذين أزهقهم الانتظار : أن يصبروا وان يحاولوا احداث معبر فى الخندق يقحمون منه الخيل ، وينقضون على المسلمين ‥ ولهم اذا نجحوا نصف ثمار واحة خيبر

ولكن بني غطفان كانوا قد تأكدوا انه لا سـبيل الى اقتحام الخندق .. فعلى بن أبى طالب يقف من ورائه على رأس فرقته دون المدينة ، يصرع من يحاول اقتحامه ، كما وقف عمه حمزة دون الماء فى بدر !! ..

وتسلل نعيم بن مسعود ، زعيم بنى غطفان الى محمد .. لم يقبل هذه المرة مفاوضا ، ولكنه أقبل يعلن اقتناعه بفساد هذه الحرب ، وبرغبته فى الانسحاب بلا شروط ، لانه بعد تفكير طويل قد آمن بدعوة محمد !

لقد استوثق محمد من صـدقه على أية حال فاطمأن اليه . وقال نعيم : « يا رسول الله ان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بماشئت » فقال له الرسول : « انما انت فينا رجل واحد ، فخذل عنا فان الحرب خدعة !

ومضى نعيم بكل دهائه على بنى قريظة قائلا : « لقد عرفتم ودى » . فأجابوه : « لست عندنا بمتهم » . فقال لهم مصطنعا العطف عليهم : .. ان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فأن البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم ، وان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فأموالهم ونساؤهم فى بلادهم .. فان ضاقوا بالمقام هنا لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ولا طاقة لـكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم حتى لا يغدروا بكم وينسحبوا !

ثم مضى الى قريش والى قومه غطفان فقال لهم : «انه قد بلغنى امر فاكتموه عنى .. » وأخـذ يقنعهم ان يهود بنى قريظة قد ندموا على موقفهم من محمـد فأرسلوا ليصـالحوه ، على ان يسلموه رءوس أشراف قريش وغطفان »

ثم اكمل : « فان بعث اليكم بنو يهود يلتمسون رهنا

منكم من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا » ٠
فلما أصبح الصباح ، وارسل ابو سفيان الى بنى قريظة يطالبهم أن يبدأوا الهجوم على محمد ٠٠ ردوا عليه قائلين: « لسنا بالذين يقاتلون معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بايدينا ثقة لنا ، فاننا نخشى أن اشتـــد عليكم القتال ان تنسحبوا من المعركة الى بلادكم ، والرجال فى بلدنا لا طاقة لنا بذلك منه ..

وتأكد عنـــد غطفان وقريش ما قاله نعيم ! .. فردوا على بنى قريظة انهم لن يرسلوا اليهم رجلا واحدا

واذ تلقى بنو قريظة هذا الرد ، تأكد عندهم أن حلفاءهم يريدون أن يخذلوهم فينسحبوا اذا اشتد القتال ٠٠ تماما كما قال نعيم !

وهكذا تفرق الحلفـــــاء .. بدأت قريظة تخشى من انسحاب الاحزاب ، وبدأ قادة الاحزاب يخافون غدر بني قريظة ٠٠ والطعام ينفد ، ولا مراعى للخيل ، والعاصفة تتجمع فى الافق وتقترب نذرها !

وهبت الريح العاتية فجأة فاعتصم المسلمون منها وراء أسوار المدينة ولكنها دكت معسكر الاحزاب ٠٠ اقتلعت كثيرا من الخيام وقلبت كل شيء والسأم يبلغ أوجه !! ..
ووقف أبو سفيان يصرخ وعواء الريح يغمر صوته : « يامعشر قريش ، انكم والله ماأصبحتم بدار مقام ! لقد هلك الخيل والابل واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ، مااطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فانى مرتحل .. وقام الى جمله فركبه . انسحبت قريش ، وانسحبت وراءها غطفان والاحزاب ٠ والريح تثير من ورائهم الرمال ، وتحجبهم عن العيون ، وهم يضربون فى

الصحراء : الرءوس منكسة والاجسام تنحنى تحت وطأة الاحساس العقيم بالخيبة !

وارتفعت من معسكر المسلمين صرخات النصر ووقف محمد ينظر الى وجوه الناس من حوله وهو لايكاد يصدق نفسه !

كيف نجت المدينة من هذا الحصار ؟.. كيف انهـــزم أمامها كل هذا الحشد من أقوى الفرسان والمحاربين فى الجزيرة العربية ؟ .. لن يغلبوه بعد يومهم هذا أبدا .. لن يقووا على أن يجمعوا مثل هذا العدد مرة أخرى !

اذن فقد نجا بدعوته وصحابه .. وانها لهيبة جديدة تلك التى تنتظره منذ اليوم ..

ووقف يقول : « الحمد لله .. نصر عبده وأيد جنده وهزم الاحزاب وحده » ..

لن تغزوكم قريش أبدا ، بل تغزونهم أنتم وتدخلون مكة وتحطمون أصنام الكعبة ! .. وتهيأ المسلمون للعودة الى دورهم فى المدينة تهز أعطافهم كبرياء النصر فوضعوا السلاح وانصرفوا .. ولكنهم تهامسوا فيمـــا بينهم وهم ينصرفون : « وبنو قريظة ؟ ! » . وناداهم محمد ألا يعودوا الى ديارهم حتى ينزلوا الهزيمة ببنى قريظة !

لقد ذهب الحلفـــــاء عن بنى قريظة فليواجهوا الان مصيرهم ! .. وتقدم على بن أبى طالب يقود فرقتـــه الى حصون بنى قريظة ، وأقسم أن يقتحم عليهم أسوارهم أو يلقى دون هذه الاسوار ميتة كميتة عمه حمزه !

واعتصم بنو قريظة فى حصونهم فلم يخرجوا للقتال.. وضرب المسلمون عليهم الحصـــــار . وذات ليلة سمع المسلمون رجلا يصرخ من وراء الاسوار فى قومه اليهود :

« أنا قلت لكم لا أغدر بمحمد أبدا » .. وعرفوا صوته .. انه عمر بن سعد القرظى !

ورأوه يتسلل من الاسوار بعد قليل فتركوه يهرب .. ومضى الرجل يضرب فى الصحراء المترامية تحت الظلمات، ولم يدر أحد أبدا أين توجه من الارض . وفى الصباح ذكروا حكايته لمحمد فقال : « وذاك رجل نجاه الله بوفائه » .. ولم ترتفع بعد صيحة احتجاج أخرى من بنى قريظه.. كانوا كلهم قد أجمعوا أمرهم على حرب محمد ..

واستمر الحصار خمسة وعشرين يوما .. فأرسلوا الى محمد أن يفك عنهم الحصار وسيرحلون كما رحل من سبقهم من اليهود . ورد عليهم محمد : ان لهم لشأنا آخر ، وان ما صنعوه به ليس كغدر من خرجوا من يهود المدينة فليستسلموا اذا شاءوا بلا شروط ، والا فهى الحرب حتى يستأصلوه كما دبروا هم أو يستأصلهم هو !

وأذعنوا آخر الامر .. ونزلوا على حكمه ، واستسلموا بلا شروط فتواثب رجال من الاوس قائلين : « يا رسول الله انهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت بالامس فى بنى قينقاع موالى اخواننا الخزرج ما قد علمت ، فهب لنا بنى قريظة » . فقال محمد : « ألا ترضون يا معشر الاوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » .. فوافقوا .. واختار محمد للحكم سعد بن معاذ زعيم الاوس .. وفرح بنو قريظة أن يوضع مصيرهم بين يدى سعد بن معاذ ! .. مهما يكن من غلظتهم معه حين جاءهم يسألهم العدول عن الغدر بمحمد ، فانه لراعيهم القديم ، وهو رجل عادل ما يعرف عنه غير الحلم والعفو وحسن الرأى !

وكان سعد ما زال جريحا فى خيمة امرأة تعمل بالطب ، وتحتسب بنفسها على خدمة الجرحى من المسلمين

وذهب بعض الاوس الى خيمتها وحملوا سعد بن معـــاذ على دابة وأقبلوا به الى حيث كان المسلمون يحاصرون بنى قريظة .. وقالوا له فى الطريق : « أحسن فى مواليك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم » . فأجاب : « قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ! .. »

ان سعدا ليذكر الان أنه ما من يهودى خرج من هــذه المدينة الا كان حربا على من فيها ! . تجمعوا كلهم فى واحة خيبر وانضموا الى يهود اخرين هناك ومضوا يؤلبون القبائل ضد محمد والمسلمين ! .. ماذا صنع بهم محمد ليلقى منهم كل هذا ... لقد أحسن اليهم دائما وتزوج منهم ، وحض اصحابه على أن يعاملوهم بالحسنى ..

ولكنهم بدلا من أن يعرفوا له هذه اليد مضوا يكيدون له فى مدينته ، ويسخرون به ، ويخربون اقتصاديات دولته الجديدة ، ويدمرون نفسيات الناس ، ويبثون الفتنة بين صحابه ويتهمونه فى عرضه .. كم من مرة شهروا السلاح ضده .. وعفا عنهم ، وترك الذين حملوا السلاح ضده يخرجون امنين ! ..

وخرج بنو قينقاع من قبل ، ثم بنو النضير .. فماذا كانت النتيجة ! ؟ . حشدوا الاف المقاتلين ورموا بهم المدينة ليستأصلوا محمدا وصحبه ! .. الغدر دائما ! .. ألم يكن من الممكن أن ينتصر الاحزاب فيقتحموا المدينــة على من فيها ويقتلوا الاف الرجال والنساء والاطفال ! ؟ ..

ان مثلهم كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ولقد طالما عاهدوا المسلمين ولكنهم كلما عاهدوا عهدا نبــــذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون ! ..

سماعون للكذب أكالون للسحت ! ‥ ولكم حاولوا أن يشعلوا نار الحرب ، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الارض فسادا ، والله لا يحب المفسدين ‥ هكذا تلا عليكم محمد يا سعد !

وهذا السهم الذى تعانى منه الان يا سعد أما هو من غرس هؤلاء اليهود من بنى قريظة ؟؟ ‥ لو أنهم أخرجوا كما أخرج غيرهم ، فسيؤلبون القبائل من جديد ٠ ومن يدرى ماذا يحدث بعد ؟ ‥ ربما عادت الاحزاب تدك المدينة على من فيها وتستولى على كل المتاع والنساء والاطفال وتسحق قلعة الاسلام !

ولم يكد سعد بن معاذ يبلغ مكان محمد وسط عسكره ، حتى قام محمد يستقبله ويأمر الناس أن يقوموا لاستقباله وعرض عليه محمد أن يحكم فى أمر بنى قريظة ‥ فقال سعد وهو يقلب عينيه فى كل الوجوه من حوله : « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت ‥ »

فقالوا : « نعم » ‥ وأخذ نفس الموثق على محمد نفسه فقال له : «نعم »

فقال سعد : « فانى أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى أوالنساء ‥ »

واقتحم المسلمون الحصن ، فغنموا ما فيه من أنواع السلاح الحديثة ٠ وغنموا الخيل والاموال جميعا ‥٠ كميات ضخمة من السلاح والخيل والكنوز ‥ وغنموا الدور ايضا ، ثم قتلوا الرجال واقتسموا النساء والصغار

وقتل جميع رجال بنى قريظة ومن دخل معهم حصونهم ليدبروا المعركة ضد محمد ، وكان من بينهم حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ! ‥ ولم يكد محمد يفرغ من أمر بنى

قريظة حتى عاد الى المدينة يسوس الحياة فيها ، وقد ثبتت هيبته فى الجزيرة العربية كلها • وخشيت قريش أن يرد محمد على عدوانها فيقطع الطريق على تجـــارتها الى الشام ، وبدأت تفكر فى الصلح معه ، أى صلح يضمن سلامة القوافل وطرق التجارة ! ••

وخشيت بعض القبائل أن ينزل بها محمد ما أنزله ببنى قريظة ، فبدأت تفكر فى أسلوب جديد للتفاهم ••

أما محمد فقد قال للمجاهدين معه : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم » • وبعد أيام قليلة تلا عليهم وهم خاشعون : « ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا • ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعـذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما •• ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتـــال وكان الله قويا عزيزا • وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا •• وأورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا »

الصلح خير

ستة أعوام بأسرها ، لم ير خلالها أرض الوطن ٠٠٠ لم يتصل بينه وبين مواطنيه فى مكة شيء غير الكيــــد والحرب ٠٠ واحيانا كان يقبل من مكة رجل او امرأة يحكى للذين هاجروا عما صنع الزمن بمعاهد الصبا ، ومراتع الشباب ٠٠ كيف المدينة البيضاء بعدنا يا رجل ؟ ٠٠ كيف خلفت وراءك الديار يا امرأة ؟! ٠٠ الصـــفا ؟! ٠٠ الكعبة ؟ ٠٠ المراعى البعيدة المترامية وراء الجبال ! ؟ كل شيء هناك يشوقنا ٠٠ حتى الرمضاء ٠٠

ومهما تقدم الحياة فى المدينة للمهاجرين ، فما زال فى الاعماق من كل قلب شوق الى مكة ، وانهم ليفتحون البلاد ويخوضون المكاره ، وينتصرون ، ويزحفون براياتهم المظفرة من مكان الى مكان ، وينعمون بالحقول الخضراء حـــول المدينة ٠٠ ومن وراء الافق تلوح لعيونهم دائما : مكة ، مدينتهم العزيزة الكبيرة البيضاء المضيئة !,٠٠ متى يأذن الزمن فيعودوا الى ديارهم ، هؤلاء الغرباء المشتاقون ؟!

وها هو ذا جيل اخر من الابناء والاحفاد ينطق أول الكلمات ، ويروح ويجيء ويملأ عالمهم بالضجيج الحلو والزحام ، ولكن هذا الجيل كله لم ير أرض الوطن ٠٠ وانه ليعرف اسم مكة فيما تعلم من أسماء ، ولكنه لا يعرف ما مكة بعد !!٠٠ ونظر محمد الى حفيديه الحسن

والحسين ، وهما يلعبان أمامه ٠٠ الحسين يختبيء فى حجره والحسن يطارده فيمتطى ظهر الجد ٠٠ والجـــد يتأملهما ضاحكا مشفقا ٠٠ هذان الغريبـــان الصغيران ، ولدا ونقلا أول الخطوات بعيدا عن أرض الوطن !!

وتأتى أمهما فاطمة فتنهرهما ولكنه يشير أن تتركهما ، ويأتى أبوهما على فيزعجه أن يعلو أحد ولديه كتف محمد مثله الاعلى ، ولكن محمدا يطلب من على ألا يزعج الطفلين ٠٠ حسبهما أنهما يعيشان فى الغربة !

وسألت فاطمة أباها لماذا هو مهموم ؟ ٠٠ لقد انتصر على الاحزاب ، وظفر ببنى قريظة ، وما عرفت العرب نصرا مثل هذا من قبل ٠٠ ؟ اتراه الان يذكر أمها الراحـــلة خديجة أعز زوجاته عليه ٠٠ ! وتلمح فى عينيه دموعا لا تنسكب فتنسحب وتشـــير الى زوجها أن ينسحب ٠٠ ويتركان طفليهما ، فما مثل الاطفال من يستطيع أن يفرج عن القلب الكبير اذا فاض منه الحزن .

وتسمع فاطمة من الخارج طفليهما ينجادلان ٠٠ وتنطلق ضحكة الجد ، وهو يعلم الطفلين ويحسم ما اختلفا عليه ٠٠ ويخرج محمد الى ابنته فاطمة وزوجها على ٠٠ فيسألهما ان كانا ثم تهج لهما الذكرى فى هذه الايام ، فنحن فى ذى القعدة ٠٠ وقد بدأ موســـم الحج !! ٠٠ وتنطلق الزفرات من أعماق فاطمة ، ويشرق وجه على بشعاع غريب أجل يا ابن العم ! وهناك يتدفق الناس ارسالا الى البيت العتيق الذى حرسه جدنا عبد المطلب ذات يوم ، وما زال عمنا العباس يقوم على سقايته !! ٠٠

وهناك حول الكعبة التى شهدت كبرياءك وقلة حيلتك وروعة مقاومتك وازراء السادة عليك ، وايمان المستضعفين بك ٠٠ هناك ما زال السادة يجلسون وما زالت الصفقات

تعقد .. وعلى الرغم من كل التضحيات ، فما زالت الاوثان تنتصب شامخة ! ..

هناك في مدينتنا العزيزة البيضاء يلتقى الان رجال ونساء من كل مكان يبحثون عن الحقيقة ، وينشـــدون منافع لهم .. الاشعار الجديدة تذاع الان فى الاسواق ، والمبشرون يلقون بمواعظهم ، والقبائل تعقد المحالفات ، ولكننا نحن هنا ، نحن أصحاب هذا البيت وسدنته ، نحن هنـا لا نســتطيع أن نطوف بالبيت كما يطوف كل الناس !!

ولكن محمدا كان قد قرر أن يطوف بالبيت من عامه هذا .. كان قد قرر أن يدخل مكة فى موســم الحج بالمسلمين كغيرهم من الحجاج ..

وخرج الى المهاجرين يستشيرهم .. أخيرا ، فهــاهم أولاء يعودون الى مكة . ليروها مرة فى العمر بعد كل هذا الغياب المعذب .. لكم اضطرمت صدورهم بأحلام العودة الى أرض الوطن ..

وأذن محمد فى الناس أنه خارج بهم الى الحج حيث يلتقى العرب حول الكعبة فى سلام .. وطالبهم أن يرعوا حرمات الحج وأن يتهيأوا له ، لأنهم يدخلون مكة حجاجا ورعين لا غزاة فاتحين ! .. واجتمع اليه من أراد الحج حتى بلغوا ألفا وأربعمائة ساقوا أمامهم سبعين من الذبائح السمان لينحروها أمام الكعبة ويطعموا الجائعين والمحتاجين لحوم هذه الاضاحى ..

ودخلوا جميعا فى الاحرام ، فنبذوا من نفوسهم كل رغبة فى المتاع والزينة .. وتهيأوا لحالة النسك التى يقتضيها الحج : لبسوا أرديتهم بلا خياطة ، وامتنعوا عن

النساء والعطور والطيب ، وأرسلوا الشعور والاظافر ..

اندفعوا الى مكة .. فى هذه الحالة المتقشفة ، بلا سلاح ، ليطوفوا بالبيت العتيق ، وليقوموا بشعائر الحج لاول مرة منذ هاجروا الى المدينة .. وعلمت قريش أن محمدا وألفا وأربعمائة من المسلمين خرجوا يريدون مكة ! ها هو ذا بعد أن ارتدت قريش والاحزاب منهزمين عن مدينته ، وبعد أن حطم بنى قريظة الاشداء فى حصونهم ، يقبل الى موسم الحج بالمسلمين من المهاجرين والانصار ، ليلقى الناس من قريش ومن القبائل العربية الاخرى ، ويدعوهم الى دينه الجديد مستندا الى انتصاراته المدوية المذهلة ، هو الذى خرج من مكة ضعيفا وحيدا مطاردا ! .. أيريد هو أن يجرع قريشا مرارة الهزيمة حتى اخــــر قطرة ! ..

وجمع أبو سفيان رجال الحكومة فى قريش ، فقرروا بالاجماع أن يمنعوا محمدا ومن معـــه وأن يردوهم الى المدينة .. لن يدخلوا مكة عليهم عنوة ! وجمعوا فرسانهم وجعلوا عليهم خالد بن الوليد ..

ان خالد بن الوليد من بين قواد قريش ، لهو الوحيـد الذى هزم المسلمين !

لن ينسى المسلمون ما صنعه بهم فى أحد ! .. واندفع خالد بن الوليد على رأس فرسانه يحارب محمدا ومن معه وعلم محمد بما كان ، فأشار على من معه أن يتجنبوا القتال ، فما أقبلوا للحرب وليس معهم سلاح يحاربون به ان فرض عليهم القتال فى سعيهم الورع الى البيت الحرام

واختار أن يسير من طريق اخر غير الطريق المألوف لكيلا يلقوا فرسان قريش .. فقاد الركب بين الشعاب المهجورة

تحت وطأة حر لافح ، بين صخور لا زرع فيهـــا ولا ماء ..

وعانى الناس من العطش وهو يطوف بهم يدعوهم الى الصبر ويذكرهم بالنعيم الذى ينتظرهم ، وبكل الطيبات التى أعدت للصابرين .. حتى اذا بلغوا سهلا به آبار مهجورة على مقربة من مكة اذن بالناس أن ينزلوا فليشربوا وأقاموا فى هذا السهل عند الحديبية . وأرسل الى قريش من يؤكد لحكومتها أن المسلمين انما جاءوا للحج لا للقتال ولكن رسوله رجع يقول له : ان قريشا لبست جلود النمور وأنها تتهيأ للحرب ..

ثم أرسلت اليه قريش لتنصحه أن يعود .. وأخبر رسل قريش أنه انما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته وأنه لا يريد حربا . وسكتت رسل قريش ، فاستطرد محمد قائلا : « يا ويح قريش .. لقد أكلتهم الحرب .. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فان أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام صاغرين وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ؟ . فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو أموت دونه ! ..

وعادت الرسل من عنده فقالوا لقومهم : « يا معشر قريش انكم تعجلون على محمد ، ان محمدا لم يأت للقتال وانما جاء زائرا هذا البيت » ..

ولكن سادة قريش أغلظوا لهؤلاء الرســل وقالوا : « والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا » . ورأت قريش أن ترسل الى محمد رسولا يهدده .. فأرسلت اليه قائد الاحابيش الذين لا ينسى المسلمون ما ذاقوه منهم فى احد !!

واذ قدم قائد الاحابيش على المسلمين ، أمر محمد أن يعرضوا عليه الذبائح التى يسوقونها الى الكعبة . ورأى الرجل هذا كله ، ورأى المسلمين جميعا فى ثياب الاحرام بلا سلاح ، فعدل عن رسالة التهديد التى يحملها ، ولم يجد فى نفسه ما يدفعه الى أن يقابل محمدا . رجع من فوره الى مكة فروى لحكامها ما رآه .. فقالوا له ساخرين: « أنت لا علم لك بشىء ! » . فأجابهم مغضبا : « والله ما على هذا حالفناكم ! أيصد عن بيت الله من جاء معظما له .. والذى نفسى بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لانفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد » ..

وأرسلت قريش رجلا آخر من دهاة سفرائها لعله يستطيع أن يقنع محمدا بالعودة ، فقال محمد : « انا لم نأت لقتال أحد وكلنا جئنا معتمرين وان قريشا قد أنهكتهم الحرب واضرت بهم ، فان شاءوا مادناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وان هم أبوا فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمرى » ..

فرد سفير قريش : « أرأيت ان استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ، وان تكن الاخرى فانى أرى حولك وجوها وأثوابا من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك » .. ولم يجبه محمد ولكن أبا بكر شتم سفير قريش وسأله مستنكرا: أنحن نفر وندعه..؟!

وحاول الرجل أن يتحدث الى محمد كما تعود أن يتحدث الى غيره من الرجال فامسك بلحيته متوددا ، ولكن بعض صحاب محمد قالوا له : « أكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا تصل اليك» ..

وعاد الرجل الى قريش يقول : « يا معشر قريش انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه .. ولقد رأيت قومه لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم »

ولم تقرر قريش شيئا .. ورأى محمد أن يرسل الى قريش رجلا له حسابه .. فاختار عمر بن الخطاب ، وكان هو فى الايام الماضية من يتحدث بلسان قريش ويقوم بالسفارة عنها ..

ولكن عمر بن الخطاب اعتذر قائلا : « يا رسول الله انى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من عشيرتى أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى اياها وغلظتى عليها ، ولكنى ادلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان »

وأرسل عثمان بن عفان الى أبى سفيان وحكومةقريش ينبئهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه انما جاء حاجا ..ولعثمان صداقات وقرابة بسادة مكة .. وبصفة خاصة بأبى سفيان رئيس الحكومة . ولكن اخبار عثمان انقطعت وأذيع بين الناس أنه اغتيل فى مكة ..

ليت المسلمين جاءوا بأسلحتهم ، ما دامت قريش تضمر غدرا .. ! وأرسل محمد الى المدينة من يستنفر أهلها والحلفاء ويعود اليه بالسلاح وعدة الحرب والرجال والخيل . ووقف تحت ظلال شجرة يطلب البيعة ممن معه .. فبايعه الجميع تحت الشجرة ، على القتال حتى الموت ..

ولكن عثمان ما لبث ان عاد حيا ، فاستقبله محمد

مستبشرا وشاعت الفرحة بين المسلمين جميعا .. كان عثمان قد اقنع قريبه أبا سفيان وبعض صحابه القدامى من كبار تجار قريش أن الصلح خير .. فليس من حق قريش أن تمنع المهاجرين من أهل مكة أن يعودوا اليها ، ليس من حقها أن تحرم أحدا من الارض التى رعته والتى تستلقى تحتها عظام آبائه .. أو أن تصد المسلمين عن الحج الى البيت العتيق دون سائر العرب ؟

ولم يكد عثمان يفرغ من رواية ما دار بينه وبين حكام قريش حتى أقبل مندوب من قريش ، عرف عنه حب السلام . فلما ظهر قال محمد : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . وتفاوض الرجل طويلا للصلح .. واتفق آخر الامر مع محمد على كل شروط الصلح ولم يبق الا أن تكتب الشروط فى صحيفة ..

ودعا محمد اليه بعلى بن أبى طالب ليمليه صيغة الصلح .. قال له : « أكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ..فقال مندوب قريش : « لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم » فوافق محمد وأمر عليا أن يكتب « باسمك اللهم »

ثم أملى محمد : هذا ما صالح عليه رسول الله .. فاعترض مندوب قريش : « لو شهدنا أنك رسول الله لم نقاتلك ، اكتب اسمك واسم أبيك » فقال محمد : « أمح رسول الله واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله» .

وهنا توقفت يد على ، وانتفض مغضبا وهو يقول لمحمد : « لا والله لا أمحو أبدا » . كانت غضبة على هى الصيحة التى انفجرت وراءها من صدور المسلمين كل صرخات الاحتجاج . ما بال محمد يسلم لمندوب قريش ! ما باله يتنازل له عن الديباجة التى ألفها المسلمون ؟! . ولم يجد واحدا من صحابه يمحو « من محمد رسول الله»

وانفجر عمر غير بعيد يقول لابى بكر : « يا أبا بكر أليس هو برسول الله ؟ ..

ورد أبو بكر : « بلى .. » فقال عمر : « أو لسـنا بالمسـلمين ؟ » وأجاب أبو بكر : « بلى » وقال عمر : « أو ليسوا بالمشركين ؟ » فأجابه : « بلى » فصاح عمر : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ .. »

ونصحه أبو بكر أن يلزم حده ، ولكن عمر اندفع يعيد على محمد نفس الاسئلة ، فأجابه محمد فى غضب : « أنا عبد الله ورسـوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » . وانصرف عمر مغضبا لا يكلم أحدا ، وهو يخوض فى صفوف رجال غاضبين ! ..

وعاد محمد يكمل املاء شروط الصلح مع قريش : ان يضعوا الحرب عن الناس سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وان من أحب أن يدخل فى عقد محمدوعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخـل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وان تطوى الصدور على ما فيها ، ولا خيانة ولا غدر ..

وحـين أعلن محمد هـذه الشروط ، تواثبت خزاعـة فأعلنوا انضمامهم الى محمد ، وتواثب بنو بـكر معلنين الانضمام الى قريش . واشترط مندوب قريش أن يرجع محمد وصحابه عامهم هذا فلا يدخلوا مكة على أهلها ، وأنه اذا كان العام القادم دخلها محمد بأصحابه فأقام بهـا ثلاثة أيام معهم سلاح الراكب : السـيوف فى قرابها لا يدخلونها بغيرها ..

ووافق محمد ووقع عقد الصلح ، وسط همهمة ضيق من كل اصحابه ٠٠ ولهو يوقع الصلح ، اذ برجل معقد يرسف في الحديد ، انه ابن منـــدوب قريش كان يريد الهرب الى محمد فادركه رجال قريش وصفدوه فى الاغلال ٠٠ فقام منـــدوب قريش يلطم ابنه على وجهه ٠ وطالب محمدا أن يعيد اليه ابنه بمقتضى الصـــلح الذى لم يجف مداده بعد ! ٠٠

والابن يصرخ : « يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟! ٠ ولكن محمدا كان قد وقع الصلح وانتهى الامر ٠٠ وأمر بأن يرد الرجل الى قريش كما تقضى شروط الصلح ، واعيد الرجل وصـــــــيحات الاحتجاج ترتفع من كل المسلمين

لقد حلموا طويلا فى الليالى الحالكة الماضية أن يأتى يوم يزورون فيه وطنهم ويطوفون بالبيت كما يفعل كل الناس ٠٠ حتى اذا جاء هذا اليوم المرتقب ، ولاحت لهم مكة ، صدتهم قريش ٠٠ وبدلا من أن يثبتوا ويحاربوا من أجل حقهم فى زيارة مكة اذا بهم يذعنون ، ويستسلمون لقريش !! ٠٠ لماذا يصنع بهم محمد مثل هذا ؟ ٠٠ وقال أحدهم لمحمد فى غضب : « أما وعدتنا أن نزور مكة »؟٠٠ فأجابه فى حلم : « نزورها فى العام القادم » ٠ وأخـــذ يقنعهم بمزايا الصلح ، وهو يعانى فى أعماقه ٠٠

سيكسبون من الصلح الجديد أضعاف ما كسبوا بحد السيف ٠٠ ! ان هذا الصلح الجديد لا يحمل تنازلا عن شىء ، فالذين يريدون أن ينضـــموا اليـــه من قريش يستطيعون أن يصبروا فى مكانهم وأن يحملوا العقيـــدة الآخرين ٠٠ آمنين بعد من ذلك الاذى الذى تعرض له المسلمون الاوائل ٠٠

أما الذين يريدون أن ينضموا الى قريش من المسلمين، فلا خير فيهم أبدا ولا فى اسلامهم ، فليعلنوا الردة منذ اليوم ! ..

وليذكروا أن يهود المدينة المطرودين يتجمعون الآن فى وادى خيبر ليزحفوا على المدينة فى يوم قريب مستعلين بانضمامهم الى يهود خيبر .. فلو أنه لم يعزل عنهم تأييد قريش لشكلوا خطرا جديا على المدينة وسكانهاوعلى العقيدة نفسها ..

فليستعدوا هم الآن ليواجهوا حرب اليهود ، وليواجهوا من يفكر فى ضربتهم من قبائل العرب الاخرى ، واثقين من النصر بعد أن حرم معسكر الاعداء من قوات مكة !..
واقتنع المسلمون . كل هذا صحيح ! .. ولكن لماذا يعودون بلا حج ؟ ! .. لماذا لا يدخلون مكة فى عامهم هذا وهم على أبوابها ؟ .. اينتظرون عاما آخر ؟ ..

وناداهم أن يخلعوا ملابس الاحرام .. وأن يعودوا الى حياتهم العادية ، وأن يتهيأوا للرجوع الى المدينة .. ولكنهم تلكأوا جميعا .. ما زال فى الاعماق من كل نفس ، أمل أخير أن يقتنع هو بالسير الى مكة على الفور ، على الرغم من كل شيء !!

وناداهم أن يتحللوا من مناسك الحج ، ولكنه لم يلق استجابة من أحد ؟ ! .. لماذا يحدث هذا ! ؟ .. انهم خالفوه فى أحد ، فانهزم المسلمون وأوشك هو نفسه أن يقتل . لماذا يواجهونه بهذا التمرد مجتمعين ؟ ! لقد خالفه على .. حتى على !! ورفض أن يكتب ما أملاه ! . وخالفه عمر .. حتى عمر .. وأغلظ له ..

ودخل الى خيمته مهموما معذب القلب ، فى عينيــــه دموع .. واستقبلته زوجته الحكيمة الحسناء أم سلمة. ان لها لنفس الابتسامة الحانية التى شجعته بها خديجة فى الايام السود الماضية ، ولها نفس النبرة المطمئنة ! .. وافضى اليها بيأسه وهو يهمهم : « هلك الناس ! » ..

وسألته أم سلمة ألا يهن ولا يحزن فكم احتمل قبلها من صـــــدمات ! .. فليخرج الآن الى الناس ، وليتحلل أمامهم من الاحرام .. لان تأثير العمل أقوى من أثر الكلام، ولن يناقشه أحد بعد أن يروه ينفذ بنفسه ما طالبهم به .. وخرج محمد الى الناس فنحر هديه ثم جلس فحلق رأسه ..

فلما رأى الناس أنه قد نحر وحلق ، تواثبوا ينحرون ويحلقون .. ويعتذرون عمـــا كان .. ! وعاد معهم الى المدينة ، ولكنه لم يكد يمضى فى المدينة أياما حتى جاءه رسول من حكومة قريش يستحلفه أن يقبل فى مدينته من يسلم من أهل مكة لانهم يثيرون المتاعب ويحرضـــــون الآخرين ، ويعتصمون خارج مكة يهددون طرق التجار..

واستقبل محمد نحو سبعين مهاجرا جديدا من قريش دخلوا كلهم فى الاسلام يوم أعلن الصلح .. وتصـايح المسلمون فى طرب : انه لنصر على قريش لم نكسبه فى كل معاركنا من قبل ما كان أحكمه حين عقد هذا الصلح

هذا حق .. فاسمعوا اذن لما يتلوه عليكم : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حـــكيما ، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم» ..

تعالوا الى كلمة سواء

انه ليقبل الان على أيام حاسمة يتقرر فيها مصير كل شيء .. ولكنه متعب القلب من كل شيء ! .. لم يكد صلح الحديبية يؤتي ثمراته : لينعم هو والمسلمون بفترة من الامن ، ولم يكد المسلمون يقتنعون بما في هذا الصلح من مزايا ، حتى وضعته الحـــوادث في امتحان عسير .. فقد هاجرت امرأة من قريش ، فخرج أخواها حتى قدما عليه يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية ..

ونساء اخريات هاجرن من مكة .. وخـــرج وراءهن الازواج يطالبونه أن يرد عليهم نساءهم تنفيذا لشروط صلح الحديبية .. بم تستفيد قريش من هـــذا الصلح اذن ان كان سيسمح للمدينة أن تفتح ذراعيهـــا للنساء القرشيات المهاجرات .. ؟ ولكن ايتخلى المسلمون عمن يفزع اليهم من النساء .. ؟

واضطربت قلوب المسلمين .. أيقهرون امرأة منهم على ان تعاشر رجلا من عدوهم لا ترضـــاه .. وارتفعت على نبضات القلوب المغضبة صيحات العار ، ولكنهم ان نقضوا الصلح مع قريش ، اعلنتهم بالحرب متعاونة مع يهود خيبر ..

وشعر هو بحرج عظيم .. من الحق أنه عاهد قريشـــا

أن يرد من يخرج عليها مهاجراً اليه .. ولكنهم حينما اتفقوا على هذه الشروط لم يفكروا فى النســـاء وعاد اصحابه يتساءلون .. ماذايصنعون بالنساء المهاجرات ؟

ولكن النساء شيء آخر .. هـــذا حق ! اى هوان يفرض على الناس باسم هذا الصلح ؟ .. أكى تقول العرب ان محمدا واصحابه عجزوا عن حماية اعراض نساء لذن بهم، فسلموهن الى العدو ، يغتصبونهن عنوة ؟ . وخـــرج محمد الى الناس يتلو عليهم « يا أيهـــا الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله اعلم بايمانهن، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الـكفار ، لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن .. »

قضى الامـــر اذن .. وعاد رجـــال قريش الى مكة ، يضيقون على النساء حتى لا يهاجرن .. ولم يجــدوا فى امتنـــاع محمد عن رد النســـاء مايخالف شروط صلح الحديبية لان الصلح لم يتعرض لهجرة النساء !

فليستمر احتـــرامهم للصلح ، فهـــذا اجــدى على تجارتها ، وليهنموا هم ايضاً بفترة من الامن تزدهر فيها الثروات . واستراح قلب محمد بعد ان خـــرج صلح الحديبية سليما من التجربة ، وخرج المسلمون مرفوعى الجبين من المحنـــــة .. ولكنه كان يفكر فى خيبر .. فهناك فى هذا الوادى الظليل تعيش أسطورة غريبة .. ان بنى اسرائيل حين اخرجوا من مصر وعبر بهم موسى البحر ، وضاعوا فى التيه اياما طـويلة ، لم يجتمع لهم شمل الا فى خيبر .. فلتكن خيبر بحقولها الخصبة اذن قاعدة لليهود الى آخر الزمان ! ..

وتحت تأثير هذه الاســـطورة عاش فى خيبر يهود

استقروا جيلا بعد جيلا • وأصبحت خيبر ملاذا لـــكل يهودى لا يطمئن به مكانه •• وهكذا لجأ اليها فلول يهود بنى قينقاع وبنى النضير ، وانضموا الى سكانها الاصليين وأخذوا يعملون على تكوين دولة ضخمة تبسط نفوذها على الجزيرة العربية كلها ••

كانت أحلام السيطرة هى التى تحركهم ، ثم الرغبـة التى لا تهدأ فى أن ينتقمـــوا من محمد •• وانهم الآن ليستعدون لقطع الطريق على تجارة المدينـــة التى بدأت تزدهر ، وانهم ليحشدون قواهم ـ بكل ما يملكون مـــن رغبة فى الانتقام ـ ليزحفوا فى يوم قريب على المدينـــة نفسها •• فلئن كانت قريش قد صالحت محمدا ، فليبحثوا لهم فى طول الجزيرة وعرضها عن حلفاء آخرين ••

انه لخطر رهيب جديد يهدد المســـلمين ويعذب قلب محمد •• أينتظر حتى يحركوا حشودهم وحشود حلفائهم أم يبادرهم بالحرب ؟ ! •• ولكن كيف يفضى اليهم وهم فى خيبر خلف المعاقل ، والمرتفعات والقلاع ؟! لكم هـو محير أمر هؤلاء اليهود فى خيبر ••

وفى المدينة ، غير بعيـــــد من بيوته • ما زال رجـال يستلقون فى المسجد بلا عمل .. استراحوا بعد الصلح ، واطمأنوا الى الحياة ، واكتفوا بما يمنحون من امـــوال الصدقات ! .. ويشيع فى الناس احترام جـديد لهؤلاء المتعبدين الذين ينقطعون للعبادة فى المسجد ، ويرى هـو احدهم ضعيفا هزيلا لطول ما يقوم الليل ويصوم النهار ، ويرى اعجاب الناس بهفيسأل : « ومن يطعمه ؟ » فيقول قائل : « أخوه » فيقول لهم : « اخوه اعبد منه » ••

ومضى يطالب الناس بأن يحملوا ، فما اكل احد طعاما

قط خيرا من أن يأكل من عمــل يده ، ان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده ..

ويعمل الناس ، ففى المدينة عمل لكل رجل .. ولكن الاغنياء يطمعون فى الفقراء ، ويستولون على المـــراعى والابار التى تركها اليهود ويردون عنها من لا يملـــكون فيقول : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » ..

ويهود خيبر يستعدون للانقضاض ، ويؤلبون القبائل المجاورة الى غزوة أحزاب جديدة .. لقد نجحوا بالفعل فى اجتذاب بعض رجال قبيلة غطفان التى لم تنس بعــد انهزامها أمام المدينة فى غزوة الاحزاب .. ويقرر محمد أن يبادر بالعمل الحاسم قبل ان يفلح يهود خيبـــر فى تحزيب الاحزاب عليه .. فليهاجم يهود خيبر فى خيبــر مهما يكن الثمن ، فهذا خير من الانتظار ! ..

كان يعلم أن اليهود قد اقاموا مدينتهم خلف سلسلة من القلاع الحصينة ، ولكنه رسم خطة لمهاجمة الحصون اليهودية السبعة . . وحشد من الفرسان أكبر عـــدد استطاع ان يحشده . . وانهم اليوم مائتان ! وجمــع نحو ألفين من المقاتلين ، وقادهم جميعا الى خيبر

واصبح الفلاحون اليهود فى خيبر ذات يوم فــراوا محمدا يتقدم الى حقولهم . وعادوا الى خيبـــر مذعورين وهم يتصايحون : محمد والخميس . وقســـم جيشه قسمين : قسما فيه الفرسان ، وفى هذا القسم حشـــد معظم الجيش .. وقسما آخر يحرس الطريق بين خيبر وغطفان ، حتى لا يفاجأ المسلمون بجيش غطفان من خلفهم ..

وتحصن اليهود فى قلاعهم ، فأمــر محمد بأن تحاصر القلاع وان يقطع النخيل المحيط بها ، وان يعسكر جيشه

فى الحقول .. فليأكلوا منها وليطعموا الخيـــل والابل ليحرموا أهل خيبر كل مافى هذه الحقول . وليذكر كل رجل فى جيشه ان الناس شركاء فى الماء والكلأ . واضطر اليهود أن يخرجوا من حصونهم ليحاربوا فى الســـهل المكشوف دفاعا عن حقوقهم التى استولى المسلمون على ثمراتها ، ودفاعا عن الآبار والمراعى ..

وهكذا حرمهم محمد ميزة التحصن وراء القلاع المنيعة ، وأصبح عليهم لكيلا يهلكوا من العطش والجوع أن يخرجوا من قلاعهم ليجلوا جيوش المسلمين عن الحقول التى تمدهم بالاقوات يوما بعـد يوم .. وعن الابار التى يســتقون منها .. ودار القتال ، يخرج اليهود كل نهار ليحـــاربوا المسلمين فى الســهل ، حتى اذا جاء الليـــل لجأوا الى الحصون ..

وقال محمد لرجاله وهو يرى نجاح خطته فى حـرمان اليهود من مزايا التحصن وراء القلاع .. « خربت خيبر .. انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » . وفطن اليهود للخطة فاجتمعوا كلهم وراء حصن واحد ، يوجهون سهامهم ونبالهم الى عسكر المسلمين ، لعلهم أن يقهروهم من وراء هذا الحصن . ورأى محمد أن يحشد كل قواه الضاربة لفتح هذا الحصن ، فاجتماع اليهـود فيه يجعلهم أقدر على الفتك بالمسلمين ..

وجمع محمد جيشه ، وأمرهم أن يقتحموا الحصـن وسلم أبا بكر راية الجيش .. ولكن أبا بكر لم يســتطع أن يقتحم الحصن . وفى اليوم التالى جعل القيـــادة لعمر ابن الخطاب . وحارب عمر يومه كله ، ولكنه لم يستطع أن يقتحم الحصن ، وان كانت أبواب الحصن قـد بدأت تلين .. غير أن اليهود ظلوا فى موقعهم المنيع يسددون

سهامهم دون أن يخرج منهم رجل واحد للقتال فى السهل المكشوف ..

فدعا محمد اليه علي بن أبى طالب وقال له : « خذ هذه الراية فتح الله عليك » . وخلع على عنه الدرع ليكون خفيف الحركة ، وطالب رجاله أن يتخففوا من الدروع التي تثقلهم ليكونوا خفافا .. وانصرف وفى ذهنه وصية محمد : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام فان لم يطيعوا فقاتلهم ، فوالله لان يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم »

وتقدم علي فدعاهم الى الاسلام ، ولكنهم سخروا به .. فطالبهم أن يحاربوا المسلمين رجلا لرجل ويبعثوا اليه شجعانهم ليبارزهم هو بنفسه : الواحد بعد الاخر . وخرج اليه الحارث أحد شجعانهم فصرعه على . وخرج اليه رجل آخر فصرعه .. واذ ذاك تعالت من المسلمين صيحات السخرية بقوة شجعان اليهود .. وسأل على شجعان خيبر أن يبعثوا اليه برجل يثبت فى المعركة . وخرج اليه زعيمهم مرحب .. وكان هو حقا سيد فرسان خيبر ..

خرج الى على بطيئا فى كبرياء واثقة ، مطمئنة ، مهيبا ضخما بيده حربة مخيفة ذات ثلاثة رءوس ، وكل جسده الفارع الشاهق فى الزرد والحديد يغطى رأسه وساقيه .. وليس فى كل بدنه ثغرة ينفذ منها سيف !.. وتقدم اليه على بقامته المعتدلة ، بلا درع ، فى يده السيف وحده . وتوقع المسلمون واليهود جميعا أنها نهاية على . ولكن عليا استطاع أن يحسن الاستفادة من تخففه من الدروع والزرد ، وترك مرحب يتقدم اليه بدروعه وزرده وحربته .. حتى اذا أوشك سن الحربة أن يمس صدر على ، تراجع على فجأة ثم قفز فى الهواء ، متفاديا حربة مرحب،

ثم اقتحم واهوى بكل قوته على راس مرحب بالسيف . وانفلق الحديد من على راس مرحب .. وسقط سيف على على الجمجمة فشقها نصفين !. وهوى مرحب وسط ذعر اليهود وعجبهم ، وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسلمين ..

واندفع على الى باب الحصن هو ورجاله يدكونه بكل طاقاتهم حتى اقتحموه ، واليهود الذين اذهلهم موت مرحب يفرون فزعين الى حصن اخر .. غير أن المقاومة لم تدم طويلا ، فقد أعلن اليهود انهم مستعدون للاستسلام ان ضمنوا حياتهم . وتم الاتفاق على أن يخرج الرجال من خيبر ، كل بثوب واحد يغطى جسده ، على أن يتركوا السلاح والاموال والكنوز والنساء والذرارى ..

وجلا الرجال .. الى التيه حقا هذه المرة !. واستولى المسلمون على كل مافى خيبر من خيرات ..

وامرهم محمد الا يباشروا الحبالى من السبايا والا يبيعوا المغانم حتى تقسم . وقسمت الغنائم ، ودوت الصحراء بصيحات النصر .. فقد استراحوا الى الابد من تهديد اليهود ، وأعطى محمد من نصيبه فى الغنائم بعض ثياب لزوجاته

وبينما كان محمد يسير فى ميدان المعركة ، وجد فتاتين جميلتين تصرخان وتبكيان وبلال يدفعهما وسط جثث القتلى من اليهود ويريهما القتلى وماصنع المسلمون . وزجره محمد : « انزعت الرحمة من قلبك يابلال حين تمر بامراتين على قتلى رجالهما .. ! » والقى برده على احداهما .. كانت هى صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى قريظة استوطنت خيبر منذ قتل أبوها وقومها فى غزوة بنى قريظة . وقال لها محمد فى حزن : « أما انى لاعتذر اليك ياصفية مما صنعت بقومك ولكنهم ... »

وكانت صفية تعرف ماصنع قومها به فردت عليه ردا جميلا .. وعرض عليها الاسلام فأسلمت وتزوجها وأقاما معا فى خيمة واحدة . وعندما أصبح الصباح وجد على باب خيمته رجلا من المسلمين فى سيفه ، فسأله عما يصنع على باب خيمته فقال الرجل : « خفت عليك من هذه المرأة فقد قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .. »

فابتسم محمد وقال : « اللهم احفظه كما بات يحفظنى » .. غير أن كل يقظة صحابه لم تستطع أن تحفظه من مكيدة أخت مرحب ، بعد أن استخلصها مع صفية من يد بلال وهو يمر بهما على قتلى اليهود ، اذ دست اليه السم فى الطعام ، وكان أحد صحابه يأكل معه .. وأخذ محمد قطعة من اللحم فتعجب من طعمها ولفظها ، ولكن صاحبه أساغ الطعام وأكل اللحم المسموم ، فمات من فوره ..

وأمر محمد بالقبض على المرأة فاعترفت أنها دست السم فى اللحم .. وقتلت بالنفس التى قتلتها . وأذن فى الناس بالرحيل ، وانتصاره على يهود خيبر يدوى فى كل مكان

وفى الطريق كان كلما نزل بمكان ليستريح فيه جاءه وفد من القبائل اليهودية الصغيرة المجاورة تطلب منه الامان وتعرض عليه الطاعة والخضوع ، وتلعن أمامه يهود خيبر .. ودخل فى الاسلام منهم غير قليل . ولم يرفض اسلامهم وان كان ليشعر أنهم غير صادقين . ووصل الى المدينة بعسكره اخر الامر وقد غنموا كما لم يغنموا فى غزوة أخرى من قبل ..

لم يعد الآن من يهدده . لم يعد شىء يتعبه .. انتهى من اليهود ، وله مع قريش عهد أن يستمر السلام عشر سنوات .. أما غطفان فقد تخاذلت عن نصرة يهود خيبر ولن تستطيع أن تحالف أحدا ضده بعد .. والقبائل من

هنا وهناك تدخل فى الاسلام بعد ان زايلها الخوف منذ صالح قريشا فى الحديبية ، ومنذ سقطت فى يده قاعدة اليهود فى خيبر ..

فليوجه دعوته الى الناس خارج الجزيرة وفى أطرافها النائية اذن . ليوجه دعوته الى العرب فى أطراف الجزيرة والى غير العرب بعد أن اطمأن الى مصير الدعوة بين عرب الحجاز . « يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض »

وارسل الى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس القبط فى مصر .. ثم ارسل الى الامراء العرب النائين .. الى صاحب نجد وصاحب البحرين وملك غسان ..

دعاهم جميعا الى الاسلام ، وحملهم مسئولية رعاياهم .. أما ملك الروم فقد اكرم رسل محمد ولكنه لم يعطهم ردا أى رد ..

وأما كسرى فقد مزق الكتاب وطرد الرسول ، وكتب الى عامله على صنعاء أن يرسل الى المدينة قوة تقبض على محمد وترسله الى العاصمة فى الاصفاد .. ولم يقو حاكم صنعاء على هذا ، وظل يراوغ حتى مات كسرى وتولى مكانه ابنه ، فأرسل كسرى الجديد الى والى صنعاء : « أمهل الرجل الذى كتب فيه أبى اليك فلا تقبض عليه حتى يأتيك امرى »

وأما مقوقس القبط فى مصر فقد أكرم الرسول ومنحه مائة دينار وخمسة أثواب .. ولكنه لم يرد على الرسالة بل بعث مع الرسول هدايا لمحمد فيها أثواب فاخرة من كتان مصر ، وذهب ، ومسك ، وند ، وقوارير ، وعسل كثير ، وبغلة شهباء وفرس بلجام فضة وحمار أشهب وجارية سوداء مليحة اسمها بريرة ، وجارية بيضاء جميلة اسمها سيرين ، وفتاة من أجمل نساء مصر أبوها

مصري وأمها يونانية اسمها مارية ..

وتقبل محمد كل هذه الهدايا عن طيب خاطر وارسل بشكر المقوقس ، وضم الهدايا الى خزانه الدولة ووهب الجارية البيضاء شاعره حسان بن ثابت ، وعرض على مارية الزواج بعد أن اسلمت فقبلته .. وأصبحت من أحب زوجاته اليه وسعد هو بهذا الزواج ، انه قد أصبح صهرا لاقباط مصر ..

أما صاحب البحرين فقد اقتنع بالاسلام فأسلم ودعا رعاياه الى الاسلام ، وأحسن صاحب نجد الردعلى الرسالة وبعث مع الرسول ببعض الهدايا ، ولم يسلم هو ولكنه اباح لمن شاء من رعاياه أن يدخل فى الدين الجديد

ولكن ملك غسان مزق الرسالة واعلن التعبئة العامة وقال للرسول : « ابلغ صاحبك انى سائر اليه ، وانه لن ينتزع منى ملكى » . ثم ارسل يستأذن قيصر الروم فى غزو المدينة فلم يأذن له قيصر ..

وعندما اجتمعت عند محمد كل الردود ، راى أن يعاود الكرة مرة أخرى وأن يرسل الى كل الذين رفضوه أو مزقوا رسائله أو اكتفوا من الرد عليه بارسال الهدايا.. فليرسل اليهم للمرة الاخيرة : دعوة السلام قبل أن يعلنهم بالحرب .. وأنه ليقاتل دفاعا عن المستضعفين وفى سبيل العدل ، ومن أجل حرية الانسان فى كل مكان .. « ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » ..

ولكن قبل أن يشهر هذه الحروب التحريرية فليرسل نداء الاسلام لاخر مرة : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ..!

قبل انقضاض المعركة

رسخت اقدامهم فى أرض الجزيرة كما لم ترسخ من قبل ابدا بعد أن عادوا من خيبر فاتحين محملين بالاسلاب والغنائم ، ووراءهم الاسرى الاشداء والسبايا الجميلات، وأصبحوا ذات يوم فاذا برجال ونساء وأطفال يقرعون عليهم ابواب : الثياب غريبة ، واللسان عربى مبين .. !

انهم لبعض السابقين من اتباع محمد هاجروا الى الحبشة فرارا من اذى قريش ، يوم أن ضاقت بهم الارض بما رحبت ، وأوصدت كل المدن ابوابها فى وجوههم ، فلم يجدوا غير البحر مركبا ، وغير نجاشي الحبشة حاميا ، لايضام عنده أحد .. هناك فى تلك البلاد البعيدة اقاموا ، وسعوا الى الرزق ، ونشروا الدعوة التى هاجروا بها ، وولد لهم جيل من البنات والبنين لم ير أرض الجزيرة ، وان كان ليعرف انه عربى !.. وهناك تحت ثرى تلك البلاد البعيدة ، اودعوا فلذات اكباد ، وذكريات عزيزة ، وأحباء كثيرين ..

فلما أتيح لهم ان يعلموا ان محمدا واخوانهم المسلمين ، قد حالفوا قريشا على أن يضعوا الحرب فيما بينهم ، شدوا رحالهم واستأذنوا النجاشي ، فحملهم بالهدايا من ماله الخاص ، وبعثهم فى سفينتين كبيرتين ..

أقبل على رأسهم جعفر بن أبى طالب ، فتى فارعا جسورا يحمل جسارة عمه حمزة وشجاعة اخيه على ،

وقد أتيح له أن يتعلم من الحبشة كثيرا من فنون الحرب التى لاتعرفها العرب .. وبأحد هذه الفنون صرع حمزة مفخرة بنى هاشم !

ولكن الوقت لم يحن بعد لقتال جديد ، ومامن شيء يشغل محمدا قدر تدبير المعاش للذين عادوا من الحبشة، وكان بعضهم قد ألف الحياة هناك على عطايا النجاشى ..

وطالبهم محمد أن يعملوا ليأكلوا .. ولكن بعضهم مضى يسأل الناس ، ومنهم من زعم أنهم أحق بالصدقات لانهم مساكين لايجدون الطعام .. وقال لهم محمد : «ليس المسكين هو من ترده الاكلة أو الاكلتان ولكن المسكين الذى ليس به غنى ويستحى ، أو لا يسأل الناس الحافا »

فليكفوا عن السؤال .. وليكف معهم هؤلاء العشرات الذين جاءوا من هذه القبائل أو تلك ، وأقاموا بالمسجد ، يتعبدون النهار والليل بلا عمل ، معتمدين على أموال الصدقات . لايمكن أن تجرى الامور فى المدينة على هذا النحو .. يجب الا يعيش أحد على حساب الغير .. انه لايريد من أحد أن ينقطع للعبادة ويقعد عن طلب الرزق ثم يسأل الاخرين طعاما ..

ليس هذا هو ماجاء به !.. انما جاءهم بما يرفع الرأس .. انما جاءهم بالكبرياء ، بأنه لا فضل لانسان على اخر الا بعمله . وشعر بعض الذين كونوا من التجارة ثروات أن أمور المدينة لن تستقيم . وبدأ الذين كسبوا من أموال الغنائم يكنزون أموالهم ويخافون أن تضيع فى الصدقات فخرج محمد اليهم يطالبهم بأن يدفعوا ..

انه ليطالب كل انسان بأن يعمل ليكسب عيشه ،ولكن على الاغنياء الا يكنزوا وعلى الذين اخذوا أن يعطوا . وظل يقول لهم : ما آمن بى من بات شبعان وجاره طاو » ..«أى رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله

ورسوله » . « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له من كان له فضل مال فليعد به على من لامال له ، فلا حق لاحد منهم فى فضل » . « من أصبح لايهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وهزت كلماته كثيرا من الاغنياء .. وعرض أحدهم أن يتنازل عن كل ماله للصدقات ، فقال له : امسك عليك مالك فهو خير لك .. خير الصدقة ماكان عن ظهر غنى

ومضى هو الى المسجد فوجد فيه هؤلاء الذين انقطعوا الى العبادة ، وتعودوا السؤال .. فطالبهم أن يعملوا وأن يكسبوا عيشهم ، وأن يكون لهم مال يدفعون هم منه أنفسهم الصدقات لابناء السبيل وللذين لايستطيعون أن يعملوا ويجدون حرجا فى أن يسألوا غيرهم شيئا !..وحرم عليهم أن ينقطعوا الى العبادة ويتركوا السعى فى طلب الرزق ، فما جاءهم بهذا ! ليهتم كل منهم بأن يعمل ويكسب .. ليهتم كل منهم بأن يؤدى حقوقه .. كل حقوقه الى زوجته ، والى أولاده ، ولتهتم النساء ايضا بأن يعملن فى طاعة الازواج ، فما جاء بعبادات تحرج الرجل من النظر الى امرأته أو تدفع الزوجة الى الضيق بزوجها !

لتتخذ الزوجات زينتهن أمام الازواج ، وليكن الانسان قوة منتجة صالحة ، يؤدى ماعليه من عمل ، ويستمتع من طيبات الحياة الدنيا بلا تأثم ، فى حدود ماجاءهم به فلا رهبانية ولاتنطع فى الاسلام ! . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ »

فليتمتعوا بالطيبات من الرزق ، وليكفوا عن الانقطاع للعبادة ، وليعمل كل منهم مادام يستطيع أن يعمل فينتفع بعمله وينفع الاخرين ، فخيرهم هو أنفعهم للناس .. ولينتشروا فى الأرض سعيا من الرزق بدلا من الانقطاع

للعبادة وسؤال الناس الحافا ! ان السؤال مذلة ..
وماجاءهم الا بالذى يحرر النفس ويملا القلب بالعزة .
اعملوا اذن .. فان اشرف الكسب كسب الرجل من يده ،
ولان يأخذ أحدكم حبله تم يغدو الى الجبل فيحتطب فيبيع
فيأكل خير له من أن يسأل الناس !..

وذو الحجة يقترب من جديد .. لقد مضى نحو عام على صلح الحديبية ..

هذا هو موسم الحج اذن .. وحشد محمد كل الذين صدوا عن مكة فى العام الماضى ، وأمر كل زوجاته بالاستعداد للرحيل معه .. وجهز الخيل المدربة على القتال !! لئن كانت معاهدة الحديبية تسمح لهم أن يزوروا مكة من عامهم هذا — فى أمان — فمن الخير مع ذلك أن يحتاطوا . وخرج محمد مع رجاله فى ملابس الاحرام ، ومعهم السلاح . وعندما اقتربوا من مكة قال من معه : « لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ، ولكن يكون قريبا منا ، فان رأينا منهم الغدر كان السلاح قريبا » . وامرهم أن يلقوا السلاح قريبا من مكة ، وترك على حراسته مائتى رجل على خيلهم ..

ولكن اهل مكة كانوا قد قرروا أن يذعنوا لشروط صلح الحديبية ، فتركوا محمدا ومن معه يدخلون فى سلام .. دخل محمد مكة للمرة الاولى بعد سبعة أعوام .. كان على ظهر ناقته ، ومن ورائه ومن حوله المهاجرون والانصار .. القلوب تضطرم بانفعالات كثيرة ، فأخذوا يطوفون بالكعبة ، وقد وقف على جانبيها عدد كبير من سادة مكة ينظرون ، وهم يتهامسون : ان الضعف يعصف بالمسلمين .. وقال محمد لصحبه : « رحم الله أمرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » وخرج يهرول فى نشاط وهم يهرولون وراءه ..

وعندما انتهى محمد وصحبه من الطواف امر مائتين من رجاله أن يذهبوا الى خارج مكة فيرسلوا اخوانهم الذين يحرسون السلاح ليقضوا مناسكهم هم أيضا ..

وعلى الرغم من أن حكومة مكة قررت أن تقاطع المسلمين فلا بيع معهم ولا شراء ، وعلى الرغم من أن بعض سادة مكة لم يطيقوا البقاء بها فخرجوا الى الجبال حتى يقضى المسلمون مناسكهم ويرحلوا عن مكة .. وعلى الرغم من أن خالد بن الوليد قائد فرسان قريش حذر أهل مكة أن يكلموا أحدا من المسلمين وخرج منها مع من خرج من سادة مكة .. على الرغم من هذا كله ، فقد انعطفت القلوب الى القلوب ، فلم يكد بعض أهل قريش يلقون اهلهم المهاجرين حتى سقطت الاحقاد تحت الاقدام دفعة واحدة ، واقبلوا عليهم يعانقونهم ويحدثونهم ويكرمونهم ويسألونهم عما صنع بهم الزمان ..

ولقد أحسن المهاجرون الاستفادة من الوقت ، فدعوا كثيرا من أهلهم وصحبهم الى الدين الجديد ، وكسبوا عددا منهم اقبلوا على محمد يعلنون أنهم يسلمون . كان من بينهم الوليد بن الوليد شقيق خالد بن الوليد .. أقبل على محمد مسلما فأحسن استقباله ودعا له وسأله : « أين خالد ؟ » فقال « يأتى الله به » فقال محمد : « ما مثله يجهل الاسلام ولو جاءنا كان خيرا له ولقدمناه على غيره » ..

وصمم الوليد الا يترك أخاه حتى يقنعه بالدخول فى الاسلام . وروعت حكومة قريش مما تراه .. هاهم الرجال والنساء من أسر المهاجرين وأصدقائهم يدخلون فى الاسلام أفواجا ! وأقبل مندوب حكومة قريش على محمد يسأله أن يرحل ، فقد اقام المسلمون فى مكة ثلاثة أيام وانقضت مناسك الحج ، والعهد فى صلح الحديبية لا يسمح للمسلمين

بأن يبقوا بعد : وأمر محمد رجاله أن يشـــدوا الرحال
وعاد الى المدينة سعيدا بكل ماحدث . لقد حقـــق
للمسلمين امنية عزيزة وقد تفتحت لهم هناك فى مكة قلوب
كثيرة على الرغم من تحذيرات حكومة قريش ..

ان دخوله مكة ــ وحده ــ لكسب كبير يدوى صـــداه
الان بين القبائل جميعا .. لقد أتاح لهم هذا الحج أن
يحادثوا كثيرين من أهل مكة ومن أهل القبائل الاخرى وأن
يدعوهم الى الاسلام .. وحتى الذين لم يستجيبوا بعد ،
لم يرفضوا الاسلام بمثل الفلظة القديمة فقد بهرتهـــم
الانتصارات المتوالية عبر سبعة أعوام حين خرج محمـــد
من مكة غريبا طريدا مستخفيا ، الى مصير مجهول ليعود
بعد ذلك حاجا ضارعا لايخفى ورعه جلال انتصـــاراته
ولا قوته ..

وفى المدينة عاد محمد يكتب الى الملوك والامراء فىخارج
الجزيرة العربية أن تعالوا الى كلمة سواء .. وارســـل
الى أمير بصرى فى سوريا يدعوه الى الاسلام .. انهليعرف
بصرى منذ كان شابا يخرج مع عمه أبى طالب فى رحـلات
الشتاء والصيف .. وهو يعرف أهلها ويذكر عـــذاب
الناس هناك تحت مظالم الامبراطورية الرومانية ، ويذكر
بصفة خاصة بحثهم الدائب عن العدل وعن حل انســـانى
للفوضى الرهيبة التى يعيشون فيها ..

وانتظر محمد أن يعود الرسول .. ليت أمير بصرى ــ
ان لم يقبل هو الاسلام ــ يترك الناس أحرارا يختـــارون
مايشاءون . وانتظر محمد عودة رسوله الى أمير بصرى .
وذات صباح وهو ينتظر عودة رسوله ، أقبـــل عليـــه
الوليد بن الوليد يخبره أن خالد بن الوليد وعمرو بنالعاص
أقبلا على المدينة يريدان مقابلته ليعلنا اسلامهما

اخيرا يقبل خالد بن الوليد الذى دوخ جيوش المسلمين

واستقبلهما محمد فرحا . هو ذا سيد فرسان قريش ينضم اليه آخر الامر .. سيعتز به الاســـلام كما اعتز بحمزة وعمر من قبـل . وقال محمد وخالد يعلن أمامه دخوله فى الاسلام : « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقـلا رجوت الا يسلمك الا الى خـير » فقال خالد : « يارسول الله ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت اشهدها عليك » . فقال محمد : « الاسلام يجب ما كان قبله »

وخصص محمد دارا لخالد ودارا لعمرو بن العـاص

ثم جاءته الانباء من بصرى ان رسوله اليها قد قتل !.. ولكن الرسل لايقتلون !

ايسكت على هذه الاهانة فتسقط هيبة الدين الجديد بعد ان دعمها بشقاء الايام والليالى؟ مهما تكن سطوة الامبراطور الرومانى ، ومهما يكن من قوة جيوش الرومان فلن يسكت ! .. وقرر أن يرسل جيشا الى المدينةالرومانية التى قتلت رسوله .. ليؤدب قاتليه . لقد عاد جعفر من الحبشة بعد أن درس فنون الحرب فيها ، وانضم اليـه خالد ! .. هذا هو يومهما ..

وحشد ثلاثة آلاف مقاتل امرهم أن يسيروا الىسوريا وجعل القيادة لزيد بن حارثة .. ووضع فى هذا الجيش ابن عمه جعفر بن أبى طالب ، وقائد الفرسان الشجـاع خالد بن الوليـد ، والشاعر عبـد الله بن رواحة ليلهب حماسة المقاتلين . وحشدت الامبراطورية الرومانيـة مائتى ألف مقاتل ! . وتشاور قادةالجيش الاسلامىفى الامر حين وجدوا انفسهم أمام كل هذا الحشـــد .. كيف يواجهون مائتى الف فى عدتهم وخيلهـم وهم ثلاثة آلاف ورأى احدهم الا يدخلوا المعركة وان يرسلوا الى المدينـة يستشيرون قائدهم هناك ويطلبون الامـدادات . ولـكن

عبد الله بن رواحة الشاعر وقف بين النـاس يؤدى دور الكلمة فى المعركة .. وأنشأ القصائد يثير بها حماسهم ..

وزحفت الجيوش الرومانية .. والتقى الجمعان عنـد قرية مؤته بالقرب من القدس . واقتحم زيد بن حارثة المعركة والراية فى يده ولكن الرماح الرومانية تلقفته فخر صريعا عند أول اشتباك ، وهوت راية الجيش الاسلامى من يده وحمل جعفر بن أبى طالب الراية ، واقتحم عن فرسه فعقره وتقدم على قدميه يخوض بسيفه صفوف جنـود الرومان .. وقطعت ذراعه التى تحمـل الراية فامسكها بذراعه الاخرى فقطعت فضم الراية الى صدره وهو يزحف ، ولكن السيوف تكاثرت عليه حتى مات ..

وتقدم الشاعر عبد الله بن رواحه بالراية فقاتل حتى قتل وهو ينشد شعره .. واضطربت القوات الاسلامية وانسحبت سريعا قبل أن تسحقها الجيوش الرومانيـة الهائلة . وقرر قادة الجيش أن يسلموا الراية الى خالد ابن الوليد .. ورأى خالد ان يلجأ الى الحيـلة لينجو بجيشه .. ولم يحارب خالد بن الوليد فى يومه ذاك

وفى الصباح .. غير مقدمة الجيش ، ووضع المؤخـرة بدلا منها ، وجعل الجناح الايمن مكان الجناح الايسر .. واقتحم المعركة ثم تقهقر ، ليستدرج جنود الرومان الى الصحراء ..

وخيل للجيوش الرومانيـة ان المسلمين تلقوا امدادات جديدة .. وانهم يريدون أن يوقعوا بهم فى الصحـراء ، حيث يمكن أن تكون السيطرة للعرب ، فلا علم للرومان بدروبها . ورأى الجيش الرومانى أن يتجنب الدخـول فى حرب الصحراء حتى لايقع فى الفخ ، واستطاع خالدبن الوليد أن ينجو بالجيش كاملا بعد أن تعرضـوا للابادة

الشاملة لبعض الوقت .. وعاد بهم الى المدينة

وكانت قد سبقتهم الانباء الى المدينة فاستقبلهم الناس منكرين ، وأخذوا يحثون عليهم التراب ، قائلين :«يافرار!» . أما محمد فقد استقبلهم قائلا : « بل هم الكرار ان شاءالله»

واشتد أهل المدينة فى اللوم على رجال الجيش .. ولم يطق محمد صبرا على هذا الحال فأعلنهم أن جيشه لم ينهزم ، وما كان لقائده أن يرمى به فى المذبحة ..

ما جدوى أن يموت ثلاثة آلاف مقاتل وينتهى الامر وتتسامع العرب أن الروم سحقت عسكر المسلمين ؟ ! ان جيش الروم هو الذى عجز عن الاشتباك معهم حتى استدرجه خالد الى الصحراء .. لقد صنع كل رجل فى الجيش مايستطيع ، وعلى أهل المدينة أن يشكروا الجيش وأن يحمدوا لقائده خالد بن الوليد انه استطاع أن يدافع الروم حتى انصرف بالجيش سليما ..

وكف أهل المدينة عن الزراية بالجيش .. ولكن نبأ انسحاب الجيش امام قوات الروم ، كان قد بلغ مكة . وعلى الرغم من صلح الحديبية ، فقد وجدت حكومة قريش فى انسحاب جيش محمد ، فرصة سانحة للوثوب عليه ..

ولم تفكر قريش فى أن تجهر بالعداء ، ولكنها رأت أن تفتك بالقبائل الضعيفة التى انحازت لمحمد عسى أن ترهبها وان ترد عنه حلفاءه الاخرين ! . فأغرت حلفاءها بالوثوب على حلفاء محمد ، وأمدتهم بالسلاح ، وببعض فرسانها .. وهكذا وثب بنو بكر حلفاء قريش على خيام خزاعة حلفاء محمد ، فنهبوها وقتلوا منهم عشرين مسلما

وأرسل الخزعيون الى محمد يستصرخونه ويستنصرونه على قريش التى أيدت بنى بكر . وسمع محمد أنباء عبث قريش بصلح الحديبية فلم يقل شيئا ولكنه أضمر امرا !..

الفتح المبين

اجتمع رجال قريش وتجارها الكبار يتشاورون بعد أن عرفوا أن خزاعة استنجدت بمحمد .. ما العمل بعد ؟ ! كل شيء باطل ، وسينتصر محمد آخر الأمر بلا مراء ! . لكأنه لايقهر ! .. ولو أنه كان من الممكن أن يقهر، لسحقته قريش عندما ظهر ، ولردعته ثقيف عندما طارده أهلها بالحجارة الى خارج أسوارها ، أو بالقليل لاستطاعت الاحزاب المؤتلفة أن تقتحم عليه مدينته !!

لئن كان قد هزم أمام جيوش الروم ، لقد هزم من قبل فى احد .. ومع ذلك فأين هو من تلك الايام ؟ .. ان خمس عشرة قبيلة لتتبعه الان من بينها قبيلة بنى سليم وبنى المصطلق .. وكل القبائل التى ذاعت شهرتها الحربية فى الجزيرة . ومن الخير اذن ان ترعى قريش صلح الحديبية ، فقد كفل لها هذا الصلح طوال العامين الماضيين حياة أكثر استقرارا .. فسارت قوافلها مطمئنة فى رحلات الشتاء والصيف ، وأمنت على تجارتها ..

ولكنها تضيق اليوم بهذه التجارة فالقبائل التى تنضم الى محمد ترفض أن تتعامل مع قريش . وعكاظ وغيره من الاسواق التى كانت تزدهر فى المواسم ، وتكتظ بالحرير والكتان والتمر والفراء والتحف الذهبية وقطع السلاح .. والتى كانت تدوى بالقصائد الجديدة وأغانى المنشدات الفاتنات .. كل هذه الاشياء التى كانت تمنح المواسم

بهجتها خاصة .. لم تعد بعد .. فالذين دخلوا فى الاسلام قد قاطعوا أسواق مكة .. وانهم ليتبادلون التجارة فيما بينهم ، وينقلون الازدهار الاقتصادى الى المدينة ويرسلون قوافلهم الخاصة التى تنافس قوافل قريش الآن الى الشام واليمن والحبشة والاسواق الاخرى التى كان يحتكرها تجار مكة وحدهم ! ..

الناس ، كل الناس ، فى مكة يعرفون هذا .. وآثاره تنعكس على تجارتهم وعلى مكانتهم الاقتصادية وعلى نفوسهم أيضا .. اما كبار التجار الذين يحكمون فيدركون انهم يفقدون الارض التى وقفوا عليها طويلا ، وانه لاسبيل على الاطلاق الى مقاومة الدولة المتزايدة الاتساع التى انشأها طريدهم القديم : محمد بن عبد الله !!

واما بقية الناس فى مكة فقد أدركوا منذ زمن بعيد ان سلطان السادة فى قريش يزداد عنفا على رقابهم كلما افقدهم المنافسون الجدد أحد الاسواق .. وانهم ليعانون الان من صلف السادة فى مكة ومن سطوة القوانين ومن جشع المرابين ومن الحاجة التى تنهشهم .. لكم كلفتهم الحرب ضد محمد ، ولكم تكلفهم هزائم كبار التجار أمام محمد .. وانصراف العرب عن أصنام الكعبة الى الاله الواحد الاحد الذى يدعو محمد الى عبادته هو وحده !

وفى كل يوم ينزل رجل منهم لدائنه عن الحرية بكل انسانيته ليصبح عبدا يمتلكه هذا الدائن . وفى كل يوم يسلم رجل منهم امرأته أو ابنته الى احد بيوت البغاء المنتشرة فى مكة ، ليدفع دينا يطارده به أحد المرابين ! وفى كل يوم يتمزق القلب المعذب .. بينما العبيد ينضمون الى محمد ، فيصبحون أحرارا ويتساوون مع السادة فى كل شىء .. فهناك حيث يقوم مجتمع جديد لاربا فيه بعد ،

ولا سلطان للدائن على حرية المدين ولا على امرأته أو بناته .. هناك يستطيع عبد حبشي أن يقود رجالا من أعـرق الاسر ، وهناك يحكم زاهد فقير من بنى غفار مدينة محمد اذا غاب عنها محمد .. وهناك يستطيع الرجل أو المرأة ان يكون مايريد .. هناك يصبح الانسان هو مايعمله .. عمله هو الذى يشكله ، وهو الذى يحـدد له مكانه .. العمل وحده ، لا الغنى ، ولا صداقة محمد ، ولا القرابة ولا شيء غير ماقدمت يداه .. لكم يبدو هذا كله عادلا ورائعا ..

وهناك يحض محمد أتباعه على أن يحرروا العبيد فهم ينقلون عنه انه رأى أحد اصحابه يضرب عبده فغضب وقال له : « الله أقدر عليك منك عليه » فقال له صاحبه معتذرا: « هو حر لوجه الله » فقال له محمد : « أما انك لو لم تفعل للفحتك النار ! » وهو ما برح يحضهم على تحـرير العبيد ويقول لهم : « أيما رجل اعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا منه من النار » وهناك يطالبهـم أن ينفروا لانقاذ المستضعفين فى كل مكان وينـذرهم ان تخلفوا ، ويتلو عليهم : « الا تنفروا يعذبكم عذابا أليمـا ويستبدل قوما غيركم »

لو أن محمدا قاد جيشه الى مكة ، منتصرا لحلفائه بنى خزاعة لانضم اليه كل المستضعفين الذين مازالوا يمثلون غالبية السكان فى مكة .. ولانضم اليـه التجار الذين أوشكت أن تفقرهم منافسة المسلمين . يجب الا يحـدث هذا !! يجب ألا يحشد محمد جيشه ويتحرك الى مكة !. ليستمر صلح الحديبية وليجدد الى الابد ..

لقد حدث خطأ رهيب بلا ريب ، فما كان ينبغى أن تترك قريش حلفاءها يغزون حلفاء محمد ويقتلون منهم ، وماكان ينبغى ان تظن قريش بمحمد الضعيف بعد انهزام جيشه

أمام الروم فتساعد بنى بكر على بنى خزاعة .. ولكن هذا الخطأ يجب أن يصلح ، فلترسل قريش رئيس حكومتها الى محمد .. فلترسل اليه اباسفيان نفسه ..

ومضى أبو سفيان الى المدينة ، فذهب الى ابنتته أم حبيبة زوجة محمد .. لم يكن قد رآها منذ تركت مكة الى الحبشة ، ثم الى المدينة .. وفاضت اشواقها وهى تستقبل اباها بعد غياب طويل ، واطمأن أبو سفيان وأفضى الى ابنته بما جاء من اجله . لقد جاء لا ليدخل فى الاسلام كما يخيل اليها ، ولكن لياخذ العهد على رعاية صلح الحديبية فلا يعاقب محمد قريشا بما صنعت ، ولا يطالبها بدية القتلى لانها لم تعد تحتمل خسائر مالية جديدة ..

ودخل غرفة نومها وجلس على فراش زوجها وسألها أن تكلم زوجها فى الامر ، وكان أبو سفيان يعلم حسن موقع ابنته عند محمد .. ولكنها لم تجبه بل طوت الفراش عنه . وقال لها أبو سفيان : « يابنية .. والله ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ » . فقالت له ابنته : « بل هو فراش رسول الله وانت رجل مشرك نجس ، ولم احب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وروع أبو سفيان مما تقوله ابنته ! .. من أين تنبع هذه الشجاعة الغريبة التى تنطق هؤلاء المسلمين بكلمات رهيبة حاسمة امام من يجب أن يرتجفوا امامهم

مشرك نجس ؟! . أانت نجس ياأباسفيان .. نجس كالرمة .. هكذا قالت لعمر بن الخطاب ذات يوم بعيد أخته التى كانت ترتجف منه قبل ان يدخل الاسلام قلبها .. وهاهى ذى ابنتك الضعيفة تواجهك بنفس الشيء ،وتطردك

أيضا .. ولكنها زوجة محمد . ان هذا الاسلام ليملأ قلوب المستضعفين ـ حتى النساء ـ بشجاعة خارقة ..

وخرج أبو سفيان يلتمس محمدا . . فليحادثه بلا وسطاء . وأتى محمدا ، وحاول أن يكلمه ، فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى ابى بكر يسأله ان يكلم له صديقه محمدا ، فرفض أبو بكر ! فجاء عمر بن الخطاب .. هو ذا عمر الصديق القديم .. لن يخيبه عمر .. ولكن عمر قال له : « أأنا أشفع لكم اليه ؟ ! فوالله لو لم أجد الا الرمل لجاهدتكم به » ..

وانصرف حتى طرق باب على .. ودخل عنده وهو ينظر الى ابنه الحسن بين يدى فاطمة .. وسأل عليا أن يشفع له فاعتذر على ، والتفت أبو سفيان الى فاطمة قائلا: « يابنت محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب » فقالت فاطمة : « والله مابلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله »

ومضى يقول لعلى فى يأس : « انك لامس القوم بى رحما وانى أرى الامور قد اشتدت على ، فانصحنى يا أبا الحسن .. فنصحه على أن يقف فى المسجد فيعلن ان قريشا تحترم صلح الحديبية وترعاه

وعمل بنصيحة على .. ثم عاد الى قريش ، يروى لهم مالاقاه . وسألوه : « هل أجاز محمد ماقلته فى المسجد ؟» قال : « لا » .. فقالوا له : « ويلك مازاد على بن أبى طالب على أن لعب بك فما يغنى عنا ماقلت » فأجابهم أبوسفيان: « والله ماوجدت غير ذلك » ..

لم يقتنع أحد فى المدينة أن قريشا غير مسئولة عن الخطأ الذى حدث .. ولكن الناس جميعا فى المدينة ، شعروا فى

اعماقهم بالزهو لان ابا سفيان طاغية مكة جاء اليهم بنفسه ينشد رضاهم . اما محمد فقد ادرك ان أباسيفان ـ بكل صلفه وكبريائه وعنفه ـ انما جاء يسعى الى المسلمين فى مدينتهم معتذرا عن خطأ قريش لان الامور فى مكة تسير على غير هوى السادة هناك ! ..

ان مكة لتشعر الان بالضعف ، وهى من أجل هذا تسعى الى الرجل الذى نبذته وحاربته .. ومحمد يذكر يوم دخل مكة حاجا ورعا فى موكب المسلمين من المهاجرين والانصار ، انه لاينسى ابدا كيف ظهر غريبا للناس هناك ؛ كل ما أقبل فيه : البساطة ، والمساواة ، والطريقة التى يتعامل بها المسلمون فيما بينهم على سواء .. انه لاينسى نظرات الاعجاب بالمسلمين ، ولا ينسى لهفة المستضعفين اليه ، لولا الحصار الذى فرضته حكومة قريش عليهم ! ..

ولكنه على الرغم من كل حصار كان قد نفذ الى قلوب الناس .. الرجال الذين فرضت عليهم الذلة يتمنون أن يرفعوا الرءوس وأن يسيروا جنبا الى جنب مع الذين ولدوا فى النعيم كما يحدث بين المسلمين .. النساءاللواتى يعمرن ليالى مكة بالغناء ويبعن اجسادهن للغرباء يتمنين أن يطفن فى البياض ، ناصعات طاهرات تضىء وجوههن بنضرة الراحة كما يحدث للنساء المسلمات .. والتجار أيضا ، التجار الكبار الذين أرهقتهم منافسة التجار المسلمين ، يتمنون أن يدخلوا فى المجتمع الجديد عسى أن يلعبوا دورا آخر أهم من دورهم كتجار .. دور القادة فى الدولة الجديدة !

محمد يدرك هذا كله .. ويدرك انه قد آن لدعوته أن تنشر ظلالها على مكة ، وستجد فى مكة أتباعا يدخلون فيها

افواجا ان رفع عنهم سيف الارهاب .. وماله لايدعو مكة الى الدين الجديد ، وهى على الرغم من كل شيء ،مازالت مركز كل نشاط فى الحجاز .. وما زالت القبائل تأتى اليها من كل فج عميق لتطوف البيت العتيق وتركع امام اصنام الكعبة ؟

ليطهر هو هذا البيت للمسلمين وللطائفين وللركع السجود .. ان مكة هى عاصمة الحجاز حقا . فلتكن بكل ماتفضل به غيرها من المدن عاصمة الدولة الجديدة .. لتزدهر أسواقها من جديد ، فكل طرق الجزيرة توصل اليها ، ولترتفع عليها راية الاسلام .. ودخل محمد على أهله فأمرهم أن يجهزوه ..

وبدأت كل زوجة تستعد للرحيل .. ودخل أبو بكر بيت عائشة فوجدها تحزم متاعها فسألها : « أأمركم رسول الله أن تجهزوه » فقالت : « نعم ، فتجهز » قال : « فأين ترينه يريد ؟ » فأجابته : « والله ما أدرى » ..

وخرج أبو بكر فوجد محمدا فى المسجد يعلن للناس أنه سائر الى مكة .. وسألهم الرأى فأيدوه جميعا وفرح المهاجرون .. أخيرا هاهم أولاء يعودون الى مكة ليعيشوا ما بقى لهم من أعمر فى أرض الوطن !

وأمرهم محمد أن يتهيأوا وأن يكتموا الامر لانه يريد أن يبغت قريشا .. وانطلق حسان بن ثابت يحرض الناس على الاحتشاد لغزو مكة للأخذ بثأر اخوانهم المسلمين من قتلى خزاعة . ولكيلا تتنبه قريش للامر ، حشد محمد بعض رجاله وأمرهم أن يسيروا فى الطريق المؤدى الى سوريا ..

وانطلى التمويه على قريش ، وتسامعت أن محمدا أرسل جيشا ليثأر من الروم .. ثم انه وضع حراسا على كل

الطرق المؤدية الى مكة لكيلا ينفلت من المدينة من يحمل الى قريش خبر الحملة فيفسد التدبير .. غير ان احد المهاجرين من الذين احسنوا البلاء فى بدر كتب الى قريش يخبرهم بالحملة ، ودفع بكتابه الى امراة .. وعلم محمد فارسل وراءها على بن ابى طالب والزبير بن العوام فأدركاها فى الطريق فسألاها عن الكتاب .. وانكرت ولكن عليا هددها بالقتل ان لم تعترف .. واخرجت المراة الرسالة من بين ضفائرها . وعاد بها على والزبير

واستدعى محمد الرجل فسأله : « ما حملك على هذا؟ » واطرق الرجل والاسف يمزقه .. ثم اعترف انه أراد أن يصانع قريشا لان له هناك زوجة واطفالا صغارا يخشى عليهم ..

وطلب عمر أن يضرب عنق الرجل لانه قد نافق .. ولكن محمدا ذكر بلاء الرجل فى بدر ، فعفا عنه ! .. وانصرف الرجل حزينا . وارسل محمد الى القبائل المسلمة يطالبها أن ترسل اليه جيوشها ..

وعندما اكتمل له العدد الذى يريده خرج بعشرة الاف رجل ذات يوم بارد من يناير سنة ٦٣٠ ، فى حرص شديد على الا يبلغ قريشا عنهم خبر ..

وباتوا فى الطريق ، حتى اذا اقتربوا من مكة كان الليل يهبط بريحه الباردة . واذن محمد الناس أن يوقدوا النار .. وخرج عمه العباس بولده وزوجاته مهاجرا اليه فلقى محمدا على مقربة من مكة ، واستقبله محمد مرحبا وعرف العباس منه انهم يريدون مكة .. وتمنى العباس لو أنه استطاع ان يلقى احدا من الرعاة أو بعض الحطابين أو تجار اللبن او أحد اصحاب الحاجة الذين يأتون مكة

فيخبر اهل مكة بمكان محمد ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ..

وانه ليبحث فى شعاب مكة عمن يحمل رسالته اذ به يلقى أبا سفيان ، قد راعته النار التى أوقدها المسلمون فقال لرجل معه : « ليست هذه نار خزاعة .. خزاعة أقل واذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها » ..

وتحدث العباس مع ابى سفيان فى الامر واقترح عليه أن يذهب وهو سيد مكة الى محمد فيستأمنه . واقتنع ابو سفيان ، فعاد به العباس الى معسكر المسلمين ..

ولم يكد أبو سفيان يدخل المعسكر على بغلة العباس حتى رآه عمر فانقض عليه صائحا : « أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منك بغير عقد ولا عهد » ..

ولكن العباس نحى عنه عمر بن الخطاب .. واختلف العباس وعمر حول مصير أبى سفيان .. عمر يطالب برأسه والعباس يجيره .. ومحمد صامت لا يتكلم .وقال العباس غاضبا : « مهلا يا عمر والله لو كان من عشيرتك ما طالبت برأسه ولكنك قد عرفت أنه من رجالنا » فقال عمر منكرا : « مهلا يا عباس ، فوالله لاسلامك .. يوم أسلمت كان أحب الى من اسلام أبى لو أسلم وما بى ألا انى قد عرفت أن اسلامك كان احب الى رسول الله من اسلام الخطاب لو اسلم »

وعلى هذه الكلمات الرقيقة التى قالها عمر صفت نفس العباس . وقال محمد : « اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به .. » وانصرف أبو سفيان مع العباس الى خيمته

ومضى محمد يضع خطة دخول مكة ..

قسم الجيش أربعة اقسام : الميسرة وعليها الزبير بن

العوام ، والميمنة وعليها خالد بن الوليد ، والقلب وعليه أبو عبيدة بن الجراح .. أما الطليعة فقد جعل عليهـــا سعد بن عبادة .. كان كل القواد من المهاجرين الا سعدبن عبادة الانصارى ..

حتى اذا أصبح الصباح جمع محمد قواده ، وأمرهم أن يدخلوا مكة بأقل ما يمكن من الدماء ، فما اختارهم من المهاجرين الا لانه يعلم أنه لن ينخنوا فى أرض الوطن

ولكن سعد بن عبادة خرج من عنده يتطوح متوعدا وهو ينظر الى مكة من بعيد قائلا : « اليوم يوم الملحمة ،اليوم تستحل الحرمة » .. اية حرمة يا سعد ؟! .. انهـــا لحرمات هؤلاء القادة والجنود من اهل مكة ! وحرمات محمد نفسه ! ..

كم من رجال القبائل الاخرى يمنون النفس بســـبايا من القرشيات الجميلات !

واتجه عمر بن الخطاب الى محمد قائلا : « يا رسول الله ، أسمعت ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة » . فقال محمد لعلى بن أبى طالب : « أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها ! »

وقبل أن يأمر محمد جيشه بالتحرك اقبل عليه عمه العباس بأبى سفيان فقال محمد : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انه لا اله الا الله ؟! »

وقال أبو سفيان : « بأبى انت وامى ما أحلمك واكرمك وأوصلك .. والله لقد ظننت انه لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد » ..

ـ ويحك يا أبا سفيان الم يأن لك أن تعلم انى رسول الله ..

ـ بأبى انت وامى ! ما احلمك واكرمك وأوصلك ..

اما هذه فان فى النفس منها حتى الان شيئا . . فأرجئها . .

ولكن العباس قال له : « ويحك اسلم قبل أن تضرب عنقك . . »

وما زال به يناقشه حتى أعلن أبو سفيان انه قد دخل الاسلام . . فقال العباس لابن أخيه : « يا رسول الله ان ابا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا »

فأعلن محمد : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . .

ووقف ابو سفيان يتامل الجيش . . وينظر فى رايات القبائل المختلفة متعجبا كيف استطاع محمد أن يضم اليه كل هؤلاء . . ثم انصرف يبلغ أهل مكة ما رآه وقال للعباس وهو ينصرف : « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » . وأجابه العباس : « انها النبوة » فقال أبو سفيان ضاحكا فى اذعان : « فنعم اذن ؟ »

ثم وقف خطيبا فى اهل مكة : « يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بمالا قبل لكم به فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن » . .

وصرخت زوجته هند بنت عتبة فى وجهه تلعنه ، وتنعته بألفاظ فاحشة أمام الجميع وتحرضهم على قتله . . أما الذين كانوا يتوقون الى لقاء محمد من سادة مكة فقد اندفعوا الى دار أبى سفيان وقد وجدوا السيف يسقط فجأة بعيدا عنهم . ولكن عكرمة بن أبى جهل نادى جيش مكة أن يخرج

وخرج فيمن استطاع ان يجمعه من الفرسان ، متجها الى الناحية التى يتقدم منها خالد بن الوليد . . وأمر محمد جيوشه أن تتقدم لتدخل مكة من كل اقطارها فى وقت واحد على الا يقاتلوا الا من قاتلهم . . ولكنه ذكر

لهم عشرة رجال وامراتين أمرهم ان يقتـــلوهم حيث وجدوهم وان وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ..

كان منهم جاريتان تغنيان بهجائه فتذيع أغانيهما هنا وهناك .. وكان منهم رجل أسلم وعهد اليه محمد بكتابة القرآن ، ولكن الرجل كان يغير فى القرآن على هواه .. يمليه محمد « وهو السميع العليم » فيكتب وهو الخبير الحكيم .. ثم يذهب الى المنافقين فى المدينة ويتنــدر بما صنع . وظل يصنع هذا حتى اكتشف محمد أمره ؛ فهرب الى مكة وظل يهزأ بمحمد وبالقرآن

ورجل آخر كان محمد قد دفع له دية عن أخ قتــل خطأ ، فقبل الدية ثم وثب بالقـاتل فاغتاله وهرب الى مكة .. ورجل ثالث كان قد أرسله يجمع الصـــدقات وارسل معه أحد اتباعه فلما جمع الصدقات أخذ يختلس منها وينفق على نفســه ، ونبهه التابع فكبر عليه الامر فقتل التابع وهرب بالصدقات الى مكة يسخر من محمد الذى يسوى بين السادة والاتباع وكان للاخرين جرائم

واعطى محمد اشارة البدء بالهجوم ،وتقدمت الجيوش الاربعة الى مكة لاتلقى مقاومة .. وتقدم خالد بن الوليد بجيشه فاصطدم بجيش عكرمة . وبعد ساعات قلائل كان خالد قد استطاع أن يهزم جيش عكرمة بعد أن قتل منه نحو عشرين رجلا .. وفر عكرمة الى الصحراء ، وتقهقر جيشه المهزوم الى مكة .. فالقى الرجال الســلاح ، ولجأ بعضهم الى المساجد واغلق بعضهم على نفسه باب داره ، ودخل بعضهم دار أبى سفيان ..

وفى الصباح التالى كانت مكة تفتح أبوابها على مشرق الشمس لاستقبال محمد ! .. من هنا خرج وحيدا خائفا يصحبه أبو بكر الى مصير مجهول ، وها هو ذا يعود اليوم

فاتحا ظافرا والى يمينه أبو بكر نفســه ، ونزل من على جبل الصفا متجها الى الكعبة .. من على هذا الجبــل نفسه ارتفعت دعوته •• كانوا اذ ذاك نحو أربعين ••

من على هذا الجبل نفسه وقف وهو الامين يحدثهم عن الوحى فقالوا انه كاذب هو الذى لم يعرف عنه أحــد من قبل غير الامانة والصدق ! ..

أبلغهم القرآن فقالوا عنه ساحر .. دعاهم الى اله واحد فاتهموه بالجنون ، حدثهم عن النبوة فاتهموه بانه يريد الملك ، وعرضوا الامارة عليه فرفض فاتهموه باثارة الفتنة .. من على هذا الجبل نفسه حمل اليهم رســالة القلم هو الامى الذى لم يقرأ من قبل فقالوا عنه شــاعر لبسته الشياطين ! .. ولكنه احتمل وظل يجذب اليه الذين تفتحت قلوبهم للدعوة واحدا بعد واحد ! .. لكم عانى فى الليالى السود واحتمل !

كان عليه ان يبلغ رسالة ضخمة •• ولقد انذر بها : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » وحمل كل الاثقال وحده! فى أرض الوطن وفى أرض الهجرة .. ولكنه يعود اليــوم فى عشرة آلاف ..

ومشى حيث طاردته الاحــوال والســـخرية والاهانة وزراية الاغنياء ••

وتقدم الى الكعبة وعلى ضراعة الحاج الورع ، لا زهو الفاتح المنتصر وتمتم لنفسه وعيناه تدمعان : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا »

انه ليذكر كل شيء الان .. ان هذه اللحظة القصــيرة لتعكس كل حياته •• ان قصة ماضيه لتنتفض الان فجأة .. تذكر جده عبد المطلب ، وعمــــه أبا طالب ، وتذكر

خديجة .. ليتها عاشت لترى هـذا اليوم وتنعم ببهجة النصر التي شاركته الغصص في أول أيام الجهاد .. وتذكر عمه حمزة ! .. ليته عاش ليرى ..

ودمعت عيناه من جديد ! ..

ولكن ما بال على بن أبى طالب ينقض على رجل لينتزع منه شيئا .. انه ينتزع مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة .. لا ، ليبق المفتاح مع عثمان ! .. ويندفع عثمان بن طلحة دامع العين متأثرا من عطف محمـــد ، فيعلن دخوله فى الاسلام .. ويقبل بعض المسلمين يستشفعونه فيمن أمر بقتلهم فيعفو عن معظمهم .. أما الرجل الذى حـــرف فى القرآن فيعلن توبته ويحرق النســـخة المحرفة امام الجميع ! .. وإذ هو يتجه الى بئر زمزم ويشرب من مائها ، اذ برجال يقبلون فيشكون اليه جنده .. لقـــد نهب بعضهم ، وها هى ذى بنت صديقه أبى بكر قد نهب عقدها من على نحرها ..

ويعلن محمد انه سيعاقب من ينهب عقابا رادعا ويسأل بنت ابى بكر أن تحتسب عقدها الضائع .. انه ليعـلم أن جيشه فقير ، وأن منهم لمن يطمع فى مغانم مكة ! .. ولكنه يعلن أن مكة حرام ! .. ثم يطـــالب أبناء قريش المتخمين بثرواتهم أن يدفعـوا ، ويفرض على كل منهم قدرا من المال .. يوزع على المحتاجين من رجال الجيش ومن اهل مكة فيحصل كل محتاج على خمسين درهما! .. ولكيلا يشـــعر الفقراء بأنهم أقل ممن يعطونهم قال لهم : ما الذى أعطى عن سعة أفضل أجرا من الذى يقبل عن حاجة

ويطالب المسلمين ان يشدوا شدة رجل واحد لتحطيم اصنام الكعبة .. ويتقدم هو لتحطيم أول الاصـــنام

ويندفع من ورائه الرجال يحطمون مئات اخسرى من الاصنام والتماثيل التى تملأ البيت العتيق .. ثم يعود الى خيمته ليعلن دستور مكة .. لا قتل بعد ولا قتال ؛ ولا ربا ! ! فليترك الناس ما بقى لهم من الربا وليكتفوا باسترداد أصل الدين ، ولتغلق البيوت التى يعرض فيها الرجال بناتهم وزوجاتهم وفاء بما عليهم من ديون..!

وأقبلت نساء كثيرات يبايعنه ... وركعت أمامه امرأة صغيرة حسناء فأمر بأن تنهض فلا ركوع لغير الله .. بايعته على الاسلام وسألته العفو عن زوجها عكرمة ، وامنها على زوجها .. فليعد من الصحراء آمنا .. واندفعت المرأة لتبحث عن زوجها فى الصحارى المترامية ، ونظر هو الى النساء اللواتى يبايعنه فارتجفت احداهن قائلة : نعم أنا هند بنت عتبه ! ..

هند .. التى دفعت وحشيا لقتل حمزة ومثلت بجثته فى احد ، ولاكت كبده وقلبه ! .. وارتمت هند باكية على قدميه « اعف عنى » وأطرق لحظة ثم تلا : « وما بعثناك الا رحمة للعالمين » وأعلن أنه يعفو عنها .. وبايعته على الاسلام ، وبايعه من معها من النساء . فلما أخذ عليهن العهد ألا يسرقن قالت : « هل تسرق الحرة ؟ لكن يارسول الله أبو سفيان رجل بخيل وربما أخذت من ماله بغير علمه ما يصلح ولده » ..

وكان أبو سفيان حاضرا ، فضحك عمر وهو ينظر الى وجه أبى سفيان .. وقال أبو سفيان : « انت فى حل مما أخذت .. »

وعاهدهن محمد على ألا يزنين فقالت هند : « وهل تزنى الحرة يا رسول الله » ثم عاهدهن على الا يقتلن أولادهن فقالت هند : « والله قد ربيناهم صغارا حتى قتلتهم انت وأصحابك ببدر كبارا »

واذ ذاك ضحك عمر حتى مال .. وبعد أن تعاهدن الا يأتين ببهتان ولا يعصين فى معروف استغفر لهن ، وبايعهن عمر نيابة عنه . وانصرفت هند ، ومن معها من النساء ..وتبعها نساء ورجال كثيرون يعلنون الاسلام ويأخذون عليه العهد أن ينفذوا تعاليمه ..

وعاد الى الكعبة فوجد زعماء قريش بها يتشاورون.. انهم الان جميعا فى قبضة يده ، وما منهم رجل لم يسىء اليه .. ولكنه قال لهم : « يا معشر قريش .. الناس من آدم وآدم من تراب .. ان أكرمكم عند الله أتقاكم .. يا معشر قريش ما ترون انى صانع بكم .. » قالوا :«خير أخ كريم وابن أخ كريم » قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء» ..

وجاءه رجل كان قد بالغ فى ايذائه وهو فى مكة .. ولاحظ ان الرجل يخشاه ويهابه حتى يرتعد أمامه ، وابتسم قائلا : « هون عليك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد فى مكة ! .. »

وضاق بعض المسلمين لانهم كانوا يريدون أن يثأروا من أهل قريش .. وتهامس الانصار أن دولة المدينة قد زالت فسيقيم محمد فى مكة فهى بلده .. ولكنه سمعهم فقال لهم « معاذ الله ، المحيا محياكم ،والممات مماتكم» ..

لن يغير عاصمته اذن ، وسيعود الى المدينة .. لكن بعد أن يفرغ من تحطيم الاصنام التى تعبدها بعض القبائل المجاورة لمكة . يجب أن يهدم معبد العزى فى وادى نخلة .. واصدر أمره الى خالد بن الوليد أن يستعد ! ..

اذ أعجبتكم كثرتكم

انطلق أصحابه فى ـ مكة ـ مدينتهم الكبيرة العزيزة التى ملأوها ذات يوم بالضجيج والزحام ، والضحكات والغزل ، يطلبون الى الناس أن يسلموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون مهما تكن جسامة ما سبقوا به من اساءات!

طاف أصحابه على التجار والصعاليك ، وعلى البيوت التى تألقت بمرحهم فى الايام الخالية فساقوا كثيرا من الاغنياء والنساء والخمارين ليعلنوا توبتهم مما سلف وليدخلوا فى الدين الجديد .. وأذنوا فى مكة : « من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن فى بيته صنماً الا كسره او حرقه فثمنه حرام »

وانقض أهل مكة على أصنامهم التى احتفظوا بها فى البيوت يحطمونها او يحرقونها .. ! لم تكن هى ما يصد بعضهم الآن عنه فما أغنت عنهم هذه الاصنام شيئا ، وما انتفعوا بما يعبدون كما انتفع المسلمون بمعبودهم هذا الذى يسمونه « الله الرحمن الرحيم ! »

ولكن الذى صد بعض قريش عن محمد حقا ، هو ما يدعو اليه : ان يتساوى السادة والعبيد وان يعفو صاحب الحق عمن أساء اليه ، ثم هذه الاخوة بين الناس مهما تكن أنسابهم واحسابهم .. وقبل كل شىء ، هذا البذل من أموالهم من اجل المحتاجين وأبناء السبيل .

على انهم وجدوا محمدا ينتصر ، ويدخل عليهم مكة عنوة .. فما بقاؤهم بعد على مخالفته ! ؟ ..

فلينضموا اليه ، فربما جعلهم الاسلام أسعد حظاوربما نالوا بعض المناصب فى الدولة التى يحكمها محمد ! ..

ولم يشأ محمد ان يرفض يدا ، متدالية بالمبايعة فما له من سبيل على القلوب .. وتقبل انضمام اهل قريش الى الاسلام بنفس راضية ، وتطلعت عينه الى المعاقل البعيدة حيث ما زالت تقف أصنام اخرى ، وتسود قيم اخرى.. لقد هدم تماثيل هبل واللات والعزى ومناة من فناء الكعبة ومن بيوت أهل قريش .. ولكن ثمت معابد ضخمة لبعض هذه الآلهة فى وديان متناثرة ، حيث تعيش قبائل قوية يرفض سادتها المساواة ويقيمون نظامهم الاجتماعى على التحكم وسيطرة الغنى والحسب

وجهز خالد بن الوليد بعدد من الفرسان وجهز غيره من القواد ووجهم الى هذه المعاقل . واستطاع خالد ان يقتحم بفرسانه وادى نخلة ، ودخل معبد العزى فحطم تمثالها الكبير ، واذ ذاك برزت له من وراء التمثال امراة عارية تصرخ وتولول ، وذعر جنود خالد وفروا .. فهذه هى روح العزى خرجت لتنتقم وتصيب من يتعرض لها بالبرص ! .. انها لا تموت ! ..

وعبثا حاول خالد ان يحرر قلوب المسلمين الجدد من سيطرة التقاليد الوثنية ! . عبثا حاول ان يقنع فرسانه بأن هذه التى برزت عارية انما هى امرأة .. امرأة تعبد عارية ! .. وهى من اجل ذلك ليست اخطر شأنا من نساء يبعن المتاع فى بيوت عرفوها قبل الفتح فى مكة كانت تخفق عليها الرايات ! !

وتقدم خالد بنفسه الى المرأة ليؤكد لرجاله انها مثلهم من لحم ودم لاروحا خالدة .. امرأة يمارس معها كهنتها عبادة الجسد ! وضربها خالد بسيفه ، فسال الدم منها .. وماتت كما يموت كل النساء !

وتابع خالد حملاته على المعاقل الاخرى كما اندفع رجال من المخلصين السابقين الى الاسلام مثل عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ، اندفعوا جميعا يهدمون الاوثان ويدعون القبائل الى الاسلام .. ولكم مروا بقبائل مسلمة .. كانت عدوا لهم بالامس ..

كان عليهم أن يضعوا الثارات القديمة تحت أقدامهم وأن يقبلوا أخوة الذين خاصموهم بالامس ، ما داموا كلهم قد أصبحوا مسلمين ، ان هذه الاخوة لهى روح الدين الجديد

غير أن خالد بن الوليد مر بقبيلة كانت قد قتلت أباه ، وخرج اليه رجالها فى سلاحهم فسألهم عن دينهم فقالوا له صبأنا ، وكانوا يعنون أنهم خرجوا عن دينهم القديم .. وأسلموا ولم يرق له أنهم لا يصرحون بالاسلام .. أمرهم أن يضعوا السلاح حتى اذا وضعوه أسرهم جميعا وقتل منهم كما شاء .. وعندما بلغ محمد أمر هذه المذبحة أعلن براءته مما صنع خالد ، وأرسل على بن أبى طالب ليسترضيهم ويدفع دية القتلى .. وعنف خالد بن الوليد وحاكمه .. فأكد خالد أنه لم يفهم منهم قولهم « قد صبأنا » وما أغراه بقتالهم ألا أنهم خرجوا اليه بالسلاح .

تبين محمد أن خالدا أساء الفهم وأساء تقدير الموقف فاكتفى بلومه وتعنيفه ..

على أن خالد بن الوليد لم يكد يلقى عبد الرحمن بن عوف حتى عنفه عبد الرحمن وقال له : « انما ثارت لابيك» وأغلظ خالد بن الوليد لعبد الرحمن بن عوف وقال له:

« كذبت » .. وبلغ ذلك محمدا فأرسل يستدعي خالد بن الوليد وقال له « مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابى فوالله لو كان لك جبل مثل أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته »

واعتذر خالد ، وبقى لحظة تحت طرقات الندم .. ان كبرياءه ليست فوق هؤلاء السابقين الى الاسلام ، انه ليس فوق الخطأ .. ثم خرج فاعتذر لعبد الرحمن بن عوف

وعاد على بن أبى طالب بعد أن أسا جراح القبيلة التى فتك بها خالد يحمل أنباء استعداد الطائف للهجوم على مكة .. فوجىء المسلمون جميعا بهذه الانباء ولكنها تأكدت عند محمد ..

والطائف بلد كبير مزدهر وغنى كمكة ، ولقد تحالف بعض تجار الطائف مع تجار قريش ، منذ ظهرت فى المدينة سوق تجارية وتعاونت التجارتان معا فى وجه المدينة

ولكن تجار المدينة قد فتحوا مكة الان وانضمت اليهم قريش ، واذعن أبو سفيان ، فشعرت الطائف أنها مهددة بالضياع حقا ! . وجمعت الطائف كل القبائل التى لم تتحالف مع محمد بعد وقررت أن تزحف الى مكة فتستولى عليها فيرث تجار ثقيف مكانة تجار قريش وتجار المدينة جميعا ، وتتحكم ثقيف الحجاز كله ، ويصبح آلهتها — بدلا من اله محمد — هم آلهة الجزيرة جميعاً ! ..

ودخلت فاطمة ذات مساء على أبيها لتجده مهموما حزينا يفكر .. يجب الا ينتظروا حتى تدهمهم ثقيف وحلفاؤها بجنود لم يعرفوا مثلها من قبل .. عشرون ألفا من خير المحاربين فى الصحراء معهم العبيد المدربون وآلات جديدة للقتال زودهم بها فلول اليهود الذين تاهوا فى الجزيرة

يؤلبون ضد محمد ويبذلون المال والنصيحة والنســاء والادوات الحديثة الفاتكة ! ..

مهما يكن من شيء فيجب ألا ينتظر حتى يزحف الجيش الى مكة .. فمكة ليست ذات أسوار . ولئن دخلوا مكة لسحقوا كل شيء ، ولخربوا أرض الحضارة التى سقاها الشهداء بالدم المسفوك . وقام محمد يستقبل بنته فاطمة فقبلها وأجلسها الى جواره كما تعود وحاولت فاطمة أن تخفف عنه .. انها لا تبالى بالضرة !

ما هذا الذى تقوله فاطمة ! .. فى أى شيء تفكر هى اذن !؟ واضطربت فاطمة فقد كانت تحسب أن أباها يعلم! ونظرت فى وجوه أصحابه المقربين الذين يجلسون معه تسألهم بنظراتها ان كان أبوها لا يعلم .. ولكنهم كانوا أيضا لا يعلمون .. لا أحد يعرف أن زوجها على بن أبى طالب قد فتن بابنة ابى جهل الصغيرة الجميلة الغنيــة فأراد أن يتزوجها على فاطمة التى تعتل صحتها من كثرة ما تكابد ، ويزيدها أنها تصبح فى أيام كثيرة ومالها من طعام تأكله ! وقالت فاطمة : « زعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على قد خطب بنت أبى جهل ! » ..

على الزاهد ! .. أبعد أن شاركته فاطمة اللحظــات الحالكة من العمر ، وولدت له البنين ، واختلطت دموعها بدموعه فى أيام الهزيمة وتألق قلباهما بالامل معا .. أبعد هذا كله يضعف على حين يدخلون مكة فيدير رأسه جمال بنت أبى جهل ويطمعه مالها ؟ !

وأرسل يستدعى على بن أبى طالب ، وقد انتفض فى جبينه العرق الذى ينفر عند الغضب ، وغام وجهه من الضيق ! .. وأقبل على فابتدره محمد قائلا : « انى زوجت أبا العاصى من بنتى زينب فحدثنى وصدقنى ووعدنى

فوفى لى ، وكذلك فعل عثمان ، وان فاطمة بضعة منى وانى أكره ما يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد » أجل يا على ٠٠ فما جدوى زواجك من بنت أبى جهل ٠٠

لقد أعجبك حسنها ، وفتنك مالها ٠٠ هذا هو كل ما فى الامر ٠٠ عليك أن تتركها أو تترك فاطمة ، أم البنين !

وخرج على ففسخ خطبة بنت أبى جهل وعاد يعتذر لفاطمة

ومحمد ما برح يفكر فى الجيوش الزاحفة ويستشير أصحابه ٠٠ ورجع على منكس الرأس تحت وطأة الخجل ، فأعلن أنه فسخ خطبة بنت أبى جهل

ولم يكن الوقت صالحا للحديث فى الامر مرة أخرى ، فحدثه محمد عن القوات التى تحشدها ثقيف وسأله الرأى كما سأل الصحاب الاخرين ٠ وتشاوروا طويلا ، ماذا يريد أصحاب مزارع الطائف ، وملاك البساتين وحدائق الكروم هناك ؟ ٠٠ ماذا يريد أصحاب الحانات ومعاصر الخمور وتجار الرقيق وموردو أجمل الفتيات الى بيـــوت مكة ! ماذا يريد الذين يكونون ثرواتهم من الخنازير والربا !

ليست السيطرة على مكة هى ما يحرك سادة ثقيف وانما البطش بمحمد وطمس كل تعاليمه ، لتحرير مصيرهم وثرواتهم وحياتهم المترفة من تهديد هذه التعاليم ! ٠٠

ان محمدا لا ينسى أبدا كيف طاردوه عندما ذهب اليهم منذ أعوام قبل الهجرة ٠٠ لقد عذبوه وامتهنوه أكثر ممـا صنعت قريش ، وحرموه حتى الماء ولم يتركوه ليستريح على أسوار المدينة ، وظلت الحجارة والسخرية تنهال عليه

حتى المستضعفين الذين فتح عيونهم على طريق الخلاص أغمضوا عيونهم عن الطريق ٠٠ كانوا هم ايضا قد سقطوا تماما فى قبضة السادة ملاك البساتين والخمارات والمرابين

ومصدرى الجوارى وتجار الخنازير .. ولم يعد يشغل عقولهم غير القيم التى فرضها السادة على الحياة جيـــلا بعد جيل ..

من هؤلاء المستضعفين ، ومن مستضعفين اخرين من القبائل المجاورة للطائف ، استطاع سادة بنى ثقيف أن يحشدوا اليوم عشرين ألفا من أفتك المقاتلين ليفتكوا بمحمد ويقتلعوه من الارض وليستولوا على مكة والمـــدينة .. فيمتلكوا الكعبة وأسواق المسلمين ..

ورأى محمد أن يخرج بجيشه الذى فتـــح مكة فيلقى حشود ثقيف وحلفاءها فى الصحراء قبل أن يتمكنوا من محاصرة مكة .. فان جيشهم ليضم بقايا من اليهود الذين حملوا معهم الى الطائف كل غيظهم من محمد ، وكل أحقادهم وتقدمهم فى صناعة السلاح ، وفنون القتال وانضم اليـه من قريش ألفان من الرجال ! ..

واستعار من تجار مكة بعض الدروع والاســـلحة .. وولى على مكة أحد شبانها من المسلمين القـــدماء . وقاد محمد الاثنى عشر ألف مقاتل ، ووصل بجيشه الى وادى حنين .. والليل يهبط ! وأمر جيشه أن يعسكر فى الوادى وخرج محمد الى العراء يصلى بين خيمتين له ، فى احداهما زوجته أم سلمة وفى الاخرى زوجته زينب بنت جحش ! لقد لقى الاحزاب من قبل وهو فى مدينته ، ولكن المقاتلين الذين جمعهم سادة ثقيف شىء اخر .. وانهم ليخوضون اليوم معركتهم الفاصلة ..

وفى هدأة الليل سمع المسلمون أصوات رجال ونساء يعسكرون .. كانت ثقيف وحلفاؤها يعسكرون فى واد قريب . وحمل هواء الليل البارد الى آذان المسلمين صوت رجل عجوز من معسكر الاعداء يقول لمن حوله : « مالى

أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير » ..

كان هو الشاعر دريد بن الصمة أقبل بأعوامه المائة بكل تجاربه لها فى الفتك والمعارك ! .. وارتفع من معسكر ثقيف صوت يرد على دريد : « سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم ماله وأهله ليقاتل عنهم » . وأدرك المسلمون مما سمعوه أن عدوهم يخوض معركة الحياة أو الموت حقا !

وعلى أول شعاع من الفجر أمر محمد جيشه أن ينحدر الى الوادى الفسيح .. أمرهم أن يتبينوا طريقهم جيدا قبل أن يتقدموا حتى لا يفاجئهم العدو من شعاب المنحدر !

انهم اثنا عشر الفا .. عشرة الاف حققوا فتح مكة ، والفان من مكة ..

وتقدم المسلمون .. فى الطليعة خالد بن الوليد على رأس فرسان بنى سليم على خيولهم الصهالة ، مزهوين بسمعتهم الحربية وبما حققوه من انتصارات تحت راية محمد . وتدافع وراءهم الجنود صفا بعد صف .. وقد أعجبتهم كثرتهم وهم يملأون الوادى ، حتى لقد نسوا أوامر قائدهم أن يتحسسوا طريقهم وألا يتقدموا خطوة الا بعد أن يتبينوا انهم آمنون ..

وفجأة .. وهم يتخايلون بكثرتهم انهمرت عليهم السهام كالامطار من شعاب كل المنحدرات المحيطة بالوادى وانفجر الرعب من كل المضايق وبرزت كتائب بنى ثقيف وحلفائهم تحاصرهم من كل أقطارهم . واضطربت الخيل والابل ،وفر فرسان بنى سليم من حيث أقبلوا .. وعماية الفجر تحجب عنهم الكتائب التى تهبط من مضايق المنحدرات المحيطة بالوادى ، وتتابع فرار الجنود المسلمين

وتلفت محمد فجأة فلم يجد من كل جنوده الاثنى عشر

ألفا غير عشرات قليلة من المسلمين الاوائل ومن أهل بيته، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأسامة بن زيد ! .. ستبيدهم ثقيف بلا مراء !

وصرخ محمد في جنوده الفارين : « الى أين أيها الناس .. هلموا الى .. أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله، فقال له أحد من وقف معه في يأس : « فلا شيء ! حملت الابل بعضها على بعض فانطلق الناس »

وخلال الهرج تقدم رجل من المسلمين يحاول طعنه بثأر أب له مات فى أحد ولكن عمر قتل الرجل !

مرة أخرى كما حدث فى أحد يعصونه ثم ينهزمون عنه ، ويفرون .. من من صـــحابه القريبين اليوم يلقى مصير حمزة ! وارتفع صوت أبى سفيان من بعيد يقول فى شماتة وهو يجرى ويغرى من معه بالفرار : « لاتنتهى هزيمتهم دون البحر » وصاح أحد فتيان قريش وهو يفر ضاحكا : « ما جئنا الا لنلتمس نساء الطائف الجميلات »

وتختلط صرخات الفزع بضحكات الشامتين ومحمـــد يصرخ فى الناس بلا طائل .. ثم يـنـدفع على ظهر بغلته ليقتحم كتائب عدوه ولكن عمه العباس يمنعه ويلوى زمام البغلة ويصيح العباس فى الفارين بلا جدوى .. ويأمره محمد : « يا عباس : اصرخ يا معشر الانصـــار » ويصرخ العباس : « يا معشر الانصار »

فتجيبه بعض أصوات : « لبيك لبيك » .. ان الفين من قريش على رأسهم ابو سفيان اعتنقوا الاسلام خوفا أو طمعا ، قد جاءوا معه اليوم لا لينصروه بل ليخذلوه وليشيعوا الانهزام بين المجاهدين القدماء !!

وفى هذه اللحظات الحاسـمة يتذكر بعضهم قتلاه الذين سقطوا قديما فى بدر ويحاول أن يعمل سيفه فى المسلمين

الاوائل ! .. فلينذرهم اذن .. فلينذر هؤلاء الالفين ، وليعتمد على المهاجرين والانصـــار الذين خاضوا معه المكاره خلال الاعوام القاسية الماضية ، وخرجوا معه فى كل مرة يبتغون الاستشهاد لا السبايا الجميلات والغنائم

وظل العباس يستصرخ الانصار .. وثاب بعض الذين كانوا يفرون .. ورأوا العباس ومن معه يحيطون بمحمد ويجعلون من اجسادهم دروعا له ..

عادوا اليه ،واحدا بعد واحد .. الانصار،ثم المهاجرون .. وعاد خالد بن الوليد .. كلهم يقسم أن يدفع حياته اليوم تكفيرا عن الفرار .. حتى اذا اجتمـع منهم مائة رجل جعلهم محمـــد تحت قيادة على بن أبى طالب ، وأمرهم أن يخوضوا فى قلب جيش العدو . واندفع على، فعمد الى قائد جيش العدو يحمـل رايته فضرب ناقته حتى اذا هوت به بارزه على فطعنه . وســقطت الراية وسقط القائد .. فدبت الشجاعة فى قلوب بعض الفارين الذين وقفوا يراقبون المعركة من مشارف الوادى ..

ووجدوا بعض النساء يندفعن من معسكر المسلمين فيقتلن رجالا من الاعداء .. واستحيى كثير من الفارين فعادوا وانضـــموا الى اخوانهم ، بينما كان على وعمر والعباس يعمدون الى سادة العدو يبارزونهم فيصرعونهم

وأمر محمد جنوده العائدين بعد الفرار ألا يخوضوا معركة الوادى وليحاصروا العدو ويرموه بالســهام من المرتفعات .. ودب الذعر فى جنود العـــدو حين وجدوا سادتهم يســقطون الواحد بعد الاخر ، وقلة من جيش المسلمين يتوغلون فى صفوفهم والاخرون يحاصرونهم

واسرع الرجال من معسكر العدو يفرون على حين كان معظم الذين فروا من معسكر المسلمين يعودون حتى بعض

الذين كانوا يسخرون فى شماتة أول الامر .. عادوا الان بعد أن قدروا أنه من الممكن أن ينتصر محمد ، فليشاركوا فى الحرب ليظفروا بأسلابها .. بدلا من أن ينتصر محمد بدونهم فيحاسبهم على الفرار !!

ولم تكد الشمس تميل للمغيب حتى كانت ثقيف قد انسحبت لتعتصم بمدينتها الطائف خلف حصونها .. وكان الصناديدمن حلفائها يفرون تاركين النساء والاموال. ووقع احد فتيان المسلمين على دريد بن الصمة فهم بأن يقتله ، ولكنه لم يحسن استعمال السيف فقال له دريد بئس ما سلحتك به آمك ، وعلمه كيف يستعمل السيف، وحين عرف ابن الصمة أن الفتى من بنى سليم قال له : « اذا اتيت أمك فاخبرها انك قتلت دريد بن الصمة . فرب يوم والله قد منعت فيه نساءكم » كان دريد فى غزواته قد أعتق أمهات له ثلاثا : أمه وجدته وأم جدته !!

وامر محمد أن يوضع الاسرى والغنائم فى مكان امين .. وجعل بعض صحابه حراسا على الغنائم والاسرى من النساء والاطفال ، وقاد جيشه الى الطائف ليقتحمها على ثقيف التى اعتصمت وراء أسوارها !

وفاضت الذكريات من نفسه أمام هذه الاسوار ! .. هنا فى هذا المكان بالتحديد جلس يبكى بعد أن امتهنوه وطردوه من الطائف منذ سنوات طوال !

وأرسل محمد الى بنى ثقيف من يطلب اليهم التسليم ولكنهم رفضوا ، وأقسموا الا يستسلموا ..

وظلوا يرمون جيشه بالسهام .. والذين فروا عنه فى أول غزوة حنين يتبارون الان فى الاعمال الفدائية أمام أسوار الطائف ، حتى لقد فقد ابو سفيان عينه فى بعض هذه الاعمال ولكن كل هذا كان بلا جدوى

وقدر محمد الموقف ، فرأى أن ينسحب بجيشه على أن يعود الى حصار الطائف مرة أخرى . وبعد أن انفق عشرين يوما فى الحصار ، مضى عنها قبل أن يتحول الامر الى هزيمة تفسد انتصاراته .. حتى اذا بلغ المكان الذى ترك فيه الاسرى والغنائم أمرهم أن يحصوا الغنائم فاذا هى ثروة ضخمة .. ثم احصوا الاسرى فاذا هم ستة الاف أسير معظمهم من النساء .. وأقبلت وفود القبائل التى حالفت بنى ثقيف، تلتمس منه الافراج عن أسراها من النساء . ولمح من بين الوفود وجها حبيبا اليه .. وذكر أمه فجأة !!

وشيئا فشيئا تذكر صاحبة هذا الوجه .. انها لمرضعته حليمة السعدية . وقام مرحبا بها وفرش لها بردته فجلست عليها ، واستجاب الى طلبها فافرج عن كل نساء قبيلتها ورد اليهم أموالهم .. بعد أن استأذن صحابه ..

وكان لهذا العمل أثره فى نفوس وفود القبائل فاعلن كثير منهم اسلامهم ..

وعاد يحصى ما بقى من الغنائم والسبايا ، وسمع همهمة .. انه سيرد الغنائم والسبايا الجميلات الى اهلهن .. فقيم اذن كان القتال ؟ !

لماذا اذن بعد ما فروا وأمنوا على أنفسهم ، رجعوا وعرضوا أعناقهم على سيوف العدو أمام أسوار الطائف

ولم يحفل بما يسمع .. وأرسل الى سيد بنى ثقيف يعرض عليه أن يرد اليه نساءه وأمواله ان جاءه مسلما. على أى أمل يحاربه الان سيد بنى ثقيف وقد خسر الحرب والمال والاهل جميعا ؟ ! . وجاءه سيد بنى ثقيف فرد اليه محمد ماله ونساءه وأولاده .. وأهداه مائة من الابل ! .. وكسب محمد من تصرفه هذا أضعاف

ما كان يمكن أن يكسبه من حرب مع الطائف •• فقد أعلن الرجل اسلامه ، فتبعه عدد من سادة ثقيف ، وتشجع المستضعفون فيها فدخلوا الاسلام جميعا ..

وارتفعت الهمهمة من صـــفوف المسلمين أن محمدا سيرد الاموال الىأصحابها كما رد السبايا .. وبدأ محمد يسمع صيحات الاحتجاج والمطالبة بتوزيع الغنائم

وفى الحق أنه لم يكن قد حاسب المسلمين على فرارهم بعد .. ولكنه حين سمعهم يطالبونه بتقسيم الغنائم أخذ يؤنبهم على انهم خالفوه فى أول المعركة ثم فروا عنه من بعد •• وصارحهم بأنه يعلم أنهم اســـتخلصوا لانفسهم بعض الغنائم من وراء ظهره !

ونصحهم أن يردوها فهذا خير لهم •• ورد كل واحد اليه ما كان قد خص به نفسه . ولكن صيحات المطالبة بتوزيع الغنائم لم تهدأ ، ولم تهدأ أيضا صرخاتالاحتجاج لانه وزع هــــذه الغنائم على بعض من يريد أن يتألف قلوبهم ..

وحاول عمر أن يقتل بعض المحتجين لانهم يحـــاولون اثارة الفتنة ولكن محمدا أمره أن يتركهم وشانهم ومضى هو يقنعهم بصواب ما صـــنع ... وزاد أن ميز بعض قادة قريش وقادة حلفائه الجدد بأنصبة أكبر عند التوزيع وقال للمسلمين الاوائل : آنه يتألف قلوب المؤمنين الجدد ، أما القدامى فانه يكلهم لايمانهم .. ان قلوبهم لعامرة ، فلا يجب أن ينظروا الى المؤلفة قلوبهم !!

وأرضتهم هذه الثقة •• ولكن بعض الانصار لم يحتملوا أن يجدوا أنفسهم محرومين منالغنائم وهم الذين انجدوه عند الروع بينما فر عنه رجال يميزهم اليوم مثل عكرمة ابن أبى جهل وأبى سفيان بن حرب •• ومضى اليه سعد ابن عبادة قائد الانصـــار يقول له : « ان هذا الحى من

الانصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هـذا الفىء الذى اصبت . قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب .. ولم يكن فى هـذا الحى من الانصار شىء » . فقال محمد : « فأين انت من ذلك يا سعد ؟ » .. واجاب سعد : « ما انا الا من قومى يا رسول الله » وجمع محمد الانصار فخطب فيهم فذكر فضله وفضلهم عليه .. ثم قال لهم :

ـ أفلا ترضون يا معشر الانصار ان يرجع الناس بالنساء والعبيد وترجعوا برسول الله الى رجالكم ، فوالذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت أمرءا من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلك الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار

وسلك شعب الانصار حقا .. عادوا الى المدينة ، وفى الطريق الى المدينة مر بقبر أمه .. هنا ترقد ارملة صغيرة مات زوجها وهو يبحث عن الرزق ، وعانت هى من بعده ورفضت الرجال لتربى ولدها اليتيم

ثم ماتت هى الاخرى فى الحاجة ... ولكيلا يموت آباء وأمهات اخرون فى الحاجة بعد ، انتفض هو يطالب بالعدل ، وبأن يكون فى مال الغنى حق للسائل والمحروم

ودمعت عيناه .. هو ذا الغلام الذى تركته يتيما ، يحمل اليوم مسئولية التنوير ! تلين له الطائف ، وتتبعه قريش وترتفع رايته على المدينة وعلى مضارب الخيام العديدة فى الصحارى الشاسعة ! وهو مع ذلك يشعر اليوم على الرغم من كل انتصاراته أنه يتيم حرم حنان الابوين قبل الاوان وانه على الرغم من كل شىء لا يملك امام قبر أمه غير الدموع !! . وانطلقت قافلة الانصار الى المدينة بمحمد فى رحالهم .. بعد أن ترك فى مكة عددا من صحابه يفقهون اهلها فى الاسلام

نحو أمة واحدة ..

بعد عشرين عاما من الضنى والجهد المتصل ومكابدة الاهوال ، أصبح الذين طاردوه بالامس اتباعا خاضعين .. والذين سخروا به وسبوه واغروا به السفهاء اقبلوا اليوم يلتمسون منه نظرة او ابتسامة .. أو أى شيء يشير الى رضاه عنهم .. البيوت التى أغلقت فى وجهه تفتح اليوم ، والاسوار تلين ، واكاليل الغار تضفر !.

ولكن لا اكاليل الغار ، ولا الملك ، ولا ابهة السلطان ولا شيء من هذا كله ، كان من بين مايبحث هو عنه .. ! لقد جاء يحمل كلمات مضيئة الى الناس ، وماكان يلتمس غير الحقيقة .. وكل ماينشده الان هو أن يجمع هؤلاء العرب المتنافرين تحت راية واحدة ليكونوا أمة واحدة ، يتحرر فيها الانسان من سيطرة كل قوى الظلام ..

وهاهو ذا اليوم بعد عشرين عاما ، واجه خلالها الموت نفسه ، وعانى من طمع الاتباع ، وغدر الحلفاء ، والوصوليين ، والمنافقين وقسوة الخصوم .. هاهو ذا فى مدينته التى اختارها منذ عشرين عاما للحياة والموت ، ومازال يوجع جسده الحصير .. ومازال يقعد فى البيت حتى يغسل ثوبه ومازال يشد بطنه على الجوع ..ووفود القبائل من هنا وهناك تقبل اليه فى المخمل والحرير والبرد المنسوج بخيوط الذهب ، تلتمس منه نظرة أو ابتسامة أو أى شيء يشير الى رضاه ..!

ويدخل عليه عمر بن الخطاب فيقول له « يارسول الله ان الناس يزيدهم حرصا على الاسلام ان يروا عليك زيا حسنا من الدنيا فانظر الى الحلة التى أهداها لك سعد بن عبادة فالبسها ..

وينظر محمد الى أبى بكر فيؤيد أبو بكر كلام عمر ويضيف « فليروا اليوم عليك زيا حسنا » ويبتسم هو قائلا .. افعل والله ، لو أنكما تتفقان على أمر واحد ما عصيتكما فى مشورة أبدا

ويقوم الى وفد الطائف .. جاء وفد الطائف يعلن الدخول فى الاسلام ولكنه يريد أن يناقشه فى بعض المسائل ! .. انهم ليطالبونه أن يبقى لهم الهتهم لبعض الوقت .. فسيأتى الناس الى الطائف ملتمسين بركة هذه الالهة وتقوم حولها سوق بعد أن تخلصت الكعبة من آلهتها

ولكنه يرفض .. ويخفف عليهم فيأمر غيرهم بتحطيم هذه الالهة .. ويناقشونه فى الزكاة ولكنه يصمم على انها حق الفقير فى مال الغنى ، ويسألونه أن يجعل للطائف مكانة مثل مكة فبنو ثقيف ليسوا أقل من قريش .. فيعلن ان الطائف حرام كمكة ..

وينصرف وفد الطائف ..

ويدخل محمد الى بيته ليلقى من ينعى اليه ابنته زينب

لم يستطع ان يتمالك نفسه ، فبكى .. على أنه لم يكد يعود الى داره بعد أن واراها التراب ، حتى كانت يد الحياة تمتد اليه لتاسو هذا الجرح الجديد .. ولدت له مارية المصرية ولدا ذكرا ،وهو الذى لم يعش له ولد من قبل .. وليس الذكر كالانثى ، وأسماه ابراهيم !

ولم يكن لديه وقت للبكاء ولا للضحك .. فالوفود تقبل بلا انقطاع تعلن الدخول فى الاسلام وتسأله ان يرسل معهم من يفقه الناس فى الاسلام .. كل المبادىء التى جاء بها

لم تثر مناقشة مع أحد الوفود .. الا الزكاة !. ومن أجل ذلك رأى الا يكتفى بارسال من يفقه الناس فى الدين ، فالنظـام الان يتطور الى نحو اخر ..

وبدلا من هذه القبائل المتنافرة أصبح من المحتم أن تقوم دولة واحدة ، عاصمتها المدينة .. دولة نؤمن بنفس القيم وتسودها نفس القوانين وينظم العلاقات فيها نفس الدستور

وعين حكاما على القبائل والمدن البعيدة ، وعين عمـالا للصدقات مسئوليتهم جباية الزكاة وتوزيعها .. مـن اليمن فى أقصى الجنوب الى نجران على حدود بلاد الرومان مضى رجال مؤمنون بالدين الجديد من صنف اخـر غير الذين دخلوا فى الاسلام التماسا لفائدة أو لمنصب .. رجال من الذين كابدوا وعانوا وواجهوا الموت فى مواقع كثيرة ، وفى رأس كل منهم ترسخ نصيحة محمد : احكم بالقرآن أو بالسنة أو اجتهد رأيك .. والامر شورى بينـكم لا تختلفوا ولا تعلوا فى الارض مفسدين .. وكل عامـل منهم يحفظ ماكان مع على بن أبى طالب . سـأل على : « يا رسول الله الامر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة » فأجابه : « اجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولاتقطعوا فيه برأى واحد »

ولكن بعض الذين دخلوا فى الاسلام ليصلوا الى مغانم أو ليثبتوا الى مناصب ساءهم أن محمدا يفضـل عليهم رجالا من الذين جربهم فى معارك سابقة ، وساءهم بصفة خاصة أن تفرض عليهم الزكاة ، وأن يجعل للفقـراء فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وكتموا السـخط حينا ثم انفجر سخطهم فجأة ..

وانتفضت بعض القبائل على الامراء الذين عينهم .. فسير محمد جيوشا الى هذه القبائل ليخضعها . كـانت تميم فى مقدمة المتمردين وحين ظفر جيش محمـد عليهـم

ساق منهم الاسرى والاسلاب .. وجاء وفد تميم اليه ولم ينتظروا حتى يخرج اليهم كما تعودت الوفود بل أخذوا ينادونه من وراء الحجرات : « اخرج الينا يا محمد »

وضاق بعض المسلمين الاوائل من سلوك وفد تميم ولكن محمدا خرج لهم فى مظهره الورع وهو يتلو : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون »

وقبل أن يسألوه العفو عن أسراهم طلبوا أن يناظروا رجاله فان انتصر عليهم رجاله أقرت تميم بالخطأ ..وقام خطيب منهم يتكلم وأمر محمد احد أصحابه أن يناظرهم فقام خطيبا عليهم .. ثم وقف شاعر تميم يفاخر فأرسل محمد الى حسان بن ثابت ..

واقبل يرد على شاعر تميم .. ودامت المناظرة طويلا ومحمد ينظر الى رجاله فى اعجاب ورضا حتى اذا انتهت المناظرة أقرت تميم بتفوق مناظريهم من المسلمين القدامى واعتذرت عما صنعت، وسألته العفو ورد الاسرى، وعاهدته على ايتاء الزكاة

لكم تمنى محمد أن يجيء الشاعر لبيد فى وفد تميم ، ولكن تميما كانت قداختارت شاعرا آخر غير لبيد ! . وعلى اية حال فقد عاد الوفد بكثير من الهدايا . وانتفضت مذحج .. كان وفدها قد جاء منذ حين ومعه قائدها الاسود فأعلنوا الاسلام .. وطمع الاسود فى منصب ، ولكنه لم يظفر بما طمع

فيم أسلم اذن ؟! . ولم يكد يعود حتى تشاور مع بعض أغنياء قومه فى أمر الزكاة .. مابقاؤهم عليها ، لم يدفعون من اموالهم هذا القدر كله ، عشر غلة الارض التى تسقى من السماء أو العيون وشاة عن كل خمس من الجمال وبقرة عن كل اربعين من البقر وسائمة عن كل اربعين من الغنم ! ..

وكان الاسود واسع الثراء قد طاف بكثير من البلاد وكان يعرف السحر فخرج على قومه ذات يوم ببعض الحيل السحرية كتلك التى رآها فى بلاد زارها وذهل قومه .. فأعلن أنها لمعجزات النبوة ، فما هو الا نبى كفتى قريش !

وأعلن أن دينه الجديد يعفى الناس من الزكاة .. وتبعه الاغنياء وعبيدهم وكون جيشا بماله وبمساعدة أغنياء قومه ، وقتل الامير الذى عينه محمد وزحف على اليمن فاستولى على صنعاء ، وانتزع زوجة الامير المقتول ، بعد أن قتل أباها أيضا ، وأخذ يسفل بالمسلمين ويفضح النساء

وروعت المدينة من هذه الاخبار فارسل محمد الى الامراء المجاورين أن يسيروا الى هذا النبى الكذاب فيقبضوا عليه ويرسلوه الى المدينة أو يقتلوه حيث ظفروا به . وكان أحد هؤلاء الامراء ابن عم لأرملة الأمير المقتول التى اغتصبها الاسود وتزوجها على الرغم منها وضمها الى نسائه ..

وكانت حسناء فاصطفاها من بين النساء وأقام لها بيتا أثثه بمثل مافى قصور كسرى وقيصر واقام عندها معظم لياليه .. وان كان قد أباح لنفسه ماشاء من فتيات يهتكهن فى دورهن ، واصطنع لنفسه حراسا شدادا يحرسونه حتى فى مخدعه ..

واحتالت الزوجة حتى ادخلت ابن عمها مخدع الأسود وهو نائم فطعنه ، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة فقام الأسود من نومه يصرخ فى ذعر . واقبل الحراس فوقفت هى بالباب تصرفهم قائلة : « ان زوجى النبى يصرخ من شدة الوحى » . وانصرف الحراس مقتنعين بانها نوبة الوحى ، بينما أجهز عليه ابن عم زوجته ..

وعندما قتل الأسود استطاع الامراء المجاورون ان يطاردوا أنصاره الاغنياء وحراسه الأشداء وعادت المنطقة كلها الى الاسلام ..

خلال هذه المتاعب جاء وفد اليمامة . ومن بينهم رجل عجوز حكيم تعود منذ أعوام طوال أن يركب حماره ويطوف بين الناس يدعوهم الى البحث عن الحقيقة

وكان قومه يحتفظون له بالاحترام الذى تفرضه الحكمة والسن .. وكانت شهرته قد بدأت تتجاوز اليمامة ، وقد سمعت به قريش فاتهمت محمدا فى أول ظهوره بأنه يتعلم من حكيم اليمامة . وتاخر حكيم اليمامة « مسيلمة » وتقدم الوفد وحدثوه عن « مسيلمة » فقال لهم : « انه ليس شركم مكانا » . واعلنوا دخولهم فى الاسلام وذهبوا الى مسيلمة فجاءوا به واستقبله محمد فاحسن استقباله

وتحدث مسيلمة عما كان قد اهتدى اليه ثم سأل محمدا أن يقتسم معه ملك الارض .. وكان محمد ينكث الارض بعود من سعف النخل فقال لمسيلمة « لو سألتنيه لأبيته عليك » . وتحدث طويلا فشرح له محمد تعاليم الاسلام وأعلن مسيلمة أنه يقتنع بها ..

وعاد مع قومه واليا على اليمامة .. ولكنه لم يكد يستقر فى اليمامة حتى ضاق بالزكاة . وكان غنيا واسع الغنى ، وحز فى نفسه أن يكون واليا ــ أباح لنفسه من الاموال ما ليس له ، واتخذ أبهة الملك .. فأقام له قصرا فاخرا وان ظل يحتفظ بحماره ــ تحت امرة محمد ، وهو الذى ظل يبحث عن الحقيقة ويبشر بها قبل أن يدعو محمد الى دينه بثلاثين عاما ! .. فدعا قومه الى دين جديد لا زكاة فيه ولا قيود .. لم لايكتفى محمد بملك الحجاز ، ويصبح هو ملكا على ما بقى ؟! .. وأرسل الى محمد كتابا يقول فيه : « أما بعد فانى أشركت فى الامر معك ، وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ولكن قريشا قوم يعتدون »

وسأل محمد رسولى مسيلمة ، فما تقولان انتما فقالا « نقول كما قال » ..

كان معظم أغنياء اليمامة فى الحق يقولون كما قال ..
وكتب محمد الى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم ،من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »

غير أن مسيلمة ظل يطلق على نفسه رسول الله ..وظل ينتقل على حماره بين القرى – كما كان يفعل المسيح – يدعو الناس الى دين اخر بلا زكاة ..

والأتباع يتزايدون من ورائه على حين أوشك محمد ان يوحد القبائل العربية جميعا فى امة واحدة ..

كل هذا التمزق ، والمرض أيضا ! .. مازالت العلة تداهمه منذ ذاق الشاة المسمومة فى خيبر ! .. وها هو ذا اليوم يرقد موجع القلب مما يصنعه مسيلمة فى اليمامة، متعب البدن من آثار السم ..

والاغنياء من المسلمين الجدد يرفعون راية العصيان ضده ويعطلون الزكاة ، والانبياء الكذابون يمشون فى الأطراف البعيدة .. ثم هؤلاء الروم أيضا يحتشدون على الحدود !! كل يوم تصل أنباء جديدة عن استعداد هرقل الروم ! ..ان هرقل ليشعر بنمو الامة الجديدة ويدرك أن هذه الامة ستكون خطرا عليه فرجالها يقذفون أنفسهم على الاعداء بارادة النصر لايردهم شيء حتى الموت نفسه . انهم ليحاربون بحرص غريب على الموت ، ولئن تركهم هرقل حتى يقبلوا فلن تقوم للدولة الرومانية فى هذا الشرق قائمة بعد .. فليبدأ هرقل !

ورأى محمد ألا ينتظر حتى يقذف هرقل بجنوده عليهم، فيدخل مكة أو المدينة . فليزحف المسلمون الى دولته ليخلصوا من بطشه المستضعفين من الرجال والنساء

واستشار أصحابه ، فاجمعوا أن يخرجوا للقاء جيوش هرقل وأن يقتحموا الى قلب دولته .. كانت الحملة تحتاج الى عدد كبير من الجنود ، والى اموال كثيرة لتأمين امداداتها .. واهاب محمد بصحابه أن يتطوعوا ، فدفع ابو بكر كل مايملك ، ودفع عثمان وعبد الرحمن بن عوف معظم ثروتهما الطائلة ودفع عمر نصف مايملك ، واندفع من ورائهم المسلمون القدماء يتبرعون : النساء بحليهن والرجال بما يملكون .. حتى بالاقوات فى بعض الاحايين ..

واقبل الناس على التطوع بحماس غريب ولكن عبدالله ابن أبى وقف يعارض الحملة ويذكر الناس بما حدث فى مؤته : « اتحسبون لقاء الروم كقتال العرب بعضهم لبعض ؟ والله لكأنكم عند وصولكم امام العدو المدرع قد انهككم جهد الحال والحر والبلد البعيد ! »

وعلى الرغم من فورة الحماسة التى حشدت كثيرا من الناس .. فقد هدت كلمات ابن أبى بعض العزائم . انهم ليذكرون كيف أوشك جيش الروم أن يسحقهم فى مؤتة !.. ثم هذا الحر !؟ لماذا لم يمهلهم محمد حتى ينتهى الحر ؟ انه لموسم الحصاد أيضا . أيتركون الحصاد ليغامروا فى بلاد مجهولة ؟..

وترددت النداءات : « لاتنفروا فى الحر » . وتوالت الهمسات : « مالهذا انضممنا الى الاسلام ! أبعد أن أتاح لنا حياة ناعمة . أبعد أن أعطانا المناصب والجاه والغنى وكل ما يملأ النفس بالكبرياء يطالبنا أن ننتزع أنفسنا من هذا كله لنخوض فى الصحراء ونحارب الروم

وبدأوا يعتذرون .. بعضهم يقول انه راجع نفسه فوجد أن مايحركه الى القتال انما هو الطمع فى الجوارى الروميات ، فهو يقعد اذن خوف الفتنة !

ويهز محمد رأسه حنقا عليهم وهو يتلو : يقعدون خوف الفتنة ؟ « الا فى الفتنة سقطوا ! » وبعضهم يطالب محمدا أن يمهله حتى يفرغ من الحصاد .. وبعضهم يقول انه لايجد مايركبه .. وبعضهم ينصحه الا يخرج الآن للحرب!

ولكن محمدا أعلن الزحف .. وأذن للمرضى والضعفاء والذين لايجدون ماينفقون ، أن يتخلفوا فما عليهم من سبيل ، ولا على الذين لايجدون دابة يخرجون عليها .. وتولوا وأعينهم تفيض من الدمع « انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون »

وخرج معه كثيرون على الرغم من كل شىء ، ولم يجرؤ واحد على التخلف .. حتى ابن أبى نفسه .. ومضوا جميعا يخوضون الصحارى الشاسعة .. الى الشام ، للقاء جيوش هرقل .. وعلى الطريق لحق بهم أبو ذر ماشيا اذ لم يجد مايركبه !

ولكن عبد الله بن أبى انسحب بجزء من الجيش فى بعض الطريق ، وانهارت حماسة الجنود ، وأخذ محمد يشجع من بقى معه على المسير . وانطلقوا جميعا الى حدود الشام تحت عواصف قاسية ملتهبة من رمال تشوى الوجوه والابدان ! .. أما الذين انسحبوا فقد استقبلهم النساء فى المدينة بالعويل ، وحثوا فى وجوههم التراب !

وبدأ الندم يعصر قلوب بعض الذين هربوا .. ورأى رجل منهم نفسه ذات ضحى يجلس تحت عريشه فى الظل ، وامرأة له تتزين وامرأة أخرى تدعوه .. فقام مروعا يلعن نفسه ان يجلس فى الظل بين امرأتيه ، ومحمد يسعى فى الهجير تحت لفحات الشمس ، وركب وعاد الى الجيش !

وبعد سبعة أيام من السير المضنى فى الصحراء بلغ محمد

وجيشه حدود الدولة الرومانية . وتقدم أمـــير المنطقة يعرض على محمد الصلح على أن يدفع له الجزية فقبل ..

ثم اندفع بجيشه فرحا بهـــذا النصر الذى ملأ قلوب رجاله بالأمل والثقة بعد شقاء السير الطويل . وعلى ابواب مدينة منيعة اسمها تبوك وقف محمد بجيشـــه ، وكانت ضجة الجيش قد روعت قطعان البقر الوحشى التى ترعى فى البوادى فاندفعت الى أسوار المدينة .. ورآها الملك هو وزوجته فقررا أن ينزلا للصيد فى الليل ..

وأصدر محمد أمره الى خالد بن الوليد أن يقود هـو الجيش للاستيلاء على حصون المدينة المنيعة . وظل خالد يتربص ، حتى اذا رأى الملك وزوجته وبعض الحاشيـــة يخرجون للصيد .. هاجمهم جميعا وأسر الملك

واذ سقط الملك ، استسلمت كل الحصون .. وارسل خالد الى محمد طيلسان الملك . وملأ هذا النصر الخاطف قلوب المسلمين بثقة جديدة غريبة ، فانتقلوا من موقعة الى موقعة ، وقهروا كل الحاميات الرومانية،وحرروا القبائل العربية هناك من حـــكم الرومان ، واعلنت تلك القبائل اسلامها ..

حدث هذا كله فى عشرين يوما .. فاقترح عمر أن يعود الجيش الى المدينة مكتفيا بهذا القـــدر من الانتصارات مادامت جيوش هرقل قد انسحبت منهزمة الى قواعدها البعيدة لتوقع المسلمين فى المصيدة

وأذن محمد بالرحيل .. وغادروا تبوك الى المـــدينـــة محملين بالغنائم .. وقد كسبوا الى الاسلام كل القبائل العربية التى كانت خاضعة لنفوذ الرومان

وفى المدينة قرر محمد أن يعاقب الذين تخلفـــوا عنـــه وانسحبوا من الجيش فاعلن أول الامـــر مقاطعتهم جميعا

وحرم على الناس أن يكلموهم او يتعاملوا معهم وظلـوا محاصرين فى القطيعة لا يكلمهم احد ، حتى الزوجات والابناء

وثقلت عليهم وطأة الاحساس بالذنب فأقبلوا يطلبون العفو .. ولكن محمدا كان قد صمم على أن يعاقبهم أشد العقاب ، هؤلاء الذين انضموا اليه بحثا عن المكاسب وحدها حتى اذا جاءت ساعة الروع تخلوا عنه وآثروا لين العيش !

وتلا : « يعتـذرون اليـكم اذا رجعتم اليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشـهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون ، سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم . فأعرض عنهـم انهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون »

واقترح عمر أن تقطع رءوس زعمائهم وفى طليعتهم عبد الله بن أبى .. ولكن عبد الله بن أبى كان قد مات

واشتدت القطيعة عليهم حتى لقـد هدد بعضهم أن يمشى فى الارض بلا طعام حتى يهلك .. واذ استيقن محمد أنهم ما برحوا يملكون فى الاعماق منهم ضمائر تستطيع أن تعذبهم . أصدر عفوه عنهم .. وأخذ عليهم موثقا ان يخلصوا للناس ما بقى لهم من العمر

ثم أخذ ينظم السرايا لردع الاغنياء الذين تمردوا على الزكاة ولتأديب الذين يريدون أن يمزقوا وحدة القبائل من جديد ، بعد أن أعلن محمد فى كل أنحاء الجزيرة بين القبائل : يأيها الناس أنتم أمة واحدة .. فليعملوا بلا هوادة ليكونوا أمة واحدة ، تحت راية واحدة .. !

قال كلمته .. ومضى !

أقبلوا على المدينة فى ثياب خشنة ، وجوههم يكسوها التزمت ، والشعور مشعثة ، وفي العيون طمع غامض ، وقد نبذوا الثياب والعطر والزخرف والزينة التى ألفوها، عسى أن يقربهم هذا الزهد من قلب محمد ، وينعم عليهم ببعض المناصب فى الدولة الجديدة أو يحفظ لهم ما ورثوه أو يمكنهم من الارض والثروة .. فاذا به يلقاهم فى بردة حسنة ، طيب الرائحة ، منسق الهندام يفوح منه عطر هادىء ، باسما حانيا يصافح بنظراته كل القلوب !!

واعلنوا أنهم يدخلون في الاسلام .. واخذوا يمدحونه فطلب منهم ألا يمدحوه فما فسدت الدنيا من قبل الا لان التابعين كانوا يمدحون من يتخذونه اماماً

وبايعهم على الاسلام .. فقالوا له : امنا .. امنا .. !
بل قولوا أسلمتم ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ! ..

انه يتألف القلوب .. هذا حق . ويمنح المال احيانا .. ولكن هؤلاء المؤلفة قلوبهم ليسوا هم المؤمنين ، وليس من حقهم ان يطالبوا بالمشاركة فى مسئوليات الحكم على أى نحو .. فلئن وثب الى السلطة بعض الذين يشغل قلوبهم شيء اخر غير الايمان ، لقد تحولت المناصب اذن من مراكز

تشد أوتاد الدولة الجديدة وترسى قيمها وتؤكد العدل والاخاء .. لقد تحولت المناصب اذن الى أماكن للوثوب على

حقوق الناس لاغتيال الارزاق وتكديس الاموال ..

واذن ففيم كان هذا العناء طوال أكثر من عشرين عاما ؟

فيم كانت الصيحة فى وجه الفوضى القديمة باسم المستضعفين فى الارض .. ؟!

أتعرض المؤمنون الاوائل للموت ، وما زالوا يبيتون ببطون خاوية ، لكى يرث المتسلقون سطوة أبى جهل ، ومال بنى النضير ، وكل الجاه الوحشى الذى فرضته الاوضاع القديمة ؟ ..

أكان هذا الجهاد كله فى سبيل تحرير العبيد والمستضعفين وكبرياء الانسان ، لكى تأتى فى النهاية أيام أخرى من العذاب تنشأ فيها طائفة من الاغنياء الجدد تستولى على المناصب ، وتمسك يدها عن الفقراء وتمتلك الرقيق وتثرى على حساب الاخرين ، وتمارس باسم الاسلام كل ما انفجر الاسلام ليقاومه ويحطمه ؟

لا .. ! فلتنفقوا مما تحبون ، بدلا من أن تكنزوا الذهب والفضة والمال ..

« ما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السموات ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير . »

وطلب محمد من صديقه أبى بكر أن يذهب ليحج بالناس فى عامه هذا ، فما يستطيع هو أن يبرح المدينة والوفود تقبل عليه بطوفان من المطامع والمفاهيم الخاطئة يهدد القيم الفاضلة التى جاء بها !!

وسار أبو بكر الى الحج .. وبقى هو فى المدينة يستقبل الوفود التى لا تنقطع ويعلم الناس المبادىء الاساسية فى الاسلام ، ويشرح لهم القيم الجديدة التى

جاء بها ، تعبيرا عن حاجة الانسان الى مجتمع أفضل

على أن أبا بكر لم يكد يمضى على رأس الحجاج فى طريقه الى مكة حتى طلب محمد من على بن أبى طالب ان يسرع ليبلغ أبا بكر والحجاج رسالة عاجلة تحدد علاقات المسلمين بالذين لم يسلموا بعد ، وتضع قواعد للحج .. ان الذين لم يسلموا بعد ما زالوا يقبلون على مكة ليطوفوا بالبيت الحرام وليشاركوا فى النشاط التجارى الذى يبلغ أوجه فى مواسم الحج .. لقد تكونت الان طائفة من أغنياء المسلمين الجدد ممن احسنوا استثمار الدين الجديد .. فليس من الضرورى ان ترتبط مصالحهم بمصالح الاغنياء من غير المسلمين .. والا عرضوا الدولة الجديدة لهزة خطيرة .. !

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الارض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وان الله مخزى الكافرين .. وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . » « ياأيها الذين امنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله »

ثم أكمل على بقية رسالة محمد الى الحجاج المسلمين : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان

وعاد على وأبو بكر بالحجاج ، بعد أن وصلت رسالة محمد الى كل الاذان ، وبعد أن أصبح مفهوما أن الذين يتظاهرون باعتناق الاسلام طمعا فى مكاسب من الدولة

الجديدة ، انما يحكمهم ما يحكم غير المسلمين ..

فليأذنوا بالحرب اذن .. فقد صبر عليهم محمد أكثر من عشرين عاما ، ومنهم من تظاهر بالاسلام وغالى ، واستغل ادعاءه حتى أثرى ، وما زال قلبه يشغله الطمع في المزيد .. انهم لاثقال تعيق انطلاق الامة الجديدة التى يسودها اليوم نفس القانون وتحكمها نفس القيم الروحية

لقد مات عبد الله بن أبى ، ولم يعد هذا النفر يجدون فيما بينهم من يصلح للتعبير عنهم .. لكم صبر محمد على زعيمهم ذاك ، ولو شاء لتركه لسيوف المؤمنين الاوائل تمزقه ! .. ولكنه صلى عليه حين مات .. ولم يحسن المنافقون الاخرون فهم موقف محمد من عبد الله فى الحياة وبعد الموت ، فانطلقوا فى المدينة من جديد يتحدثون عن ضعف محمد .. عن علمه بما يرتكبه بعض الوصوليين من الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، ثم سكوته عنهم خوفا أو مصانعة !!

وتلا عليهم جميعا : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »

وبدأت الرءوس ترتفع بالتمرد فى أطراف الدولة الناشئة .. مسلمون جدد يرفضون أن يدفعوا الزكاة والصدقات ، وبدلا من أن يحرروا ما عندهم من عبيد كما حضهم محمد ، بدأوا يقتنون مزيدا من الجوارى والغلمان وينهبون حقوق الفقراء !

وانذر محمد المنافقين فى المدينة أنه سيأخذهم بمثل عقوبة الاعداء فى كل ما يقترفونه أثناء الحياة ، وأنه لن

يصلى على أحد منهم مات أبدا !

وأعلن أن من يعدون على حقوق الغير ويعطلون الاحكام التى جاء بها لتحقيق العدالة أو يدمرون مبادىء الاخاء التى تجعل من العرب المتنافرين أمة واحـــدة ، انما هم المفسدون فى الارض ، وما جزاؤهم الا أن تقطع أطرافهم

وسير الحملات الى الاطراف البعيدة التى أعلن اغنياؤها التمرد وامتنعوا عن دفع الزكاة والصدقات • واستطاع هؤلاء الاغنياء بنفوذهم التقليدى الموروث أن يسوقوا المستضعفين الذين شرعت الزكاة لمصلحتهم ، لكى يحاربوا دفاعا عن الحرمان •• !

على أن هذه الحملات بقيادة خالد بن الوليد وعلى بن أبى طالب استطاعت أن تحصد رءوس التمرد •• فأقبل المستضعفون المقهورون يجددون البيعة على الاسلام

وتلفت من حوله الى شئون المدينة فلاحظ أن بعض المسلمين ، قد آثروا أكثر مما يجب من التجارة ، وأن بعضهم يحتكر تجارات بالذات فأعلنهم « المحتكر ملعون »!

ومضى يأمرهم أن ينفقوا مما يكسبون•• ومضى صحابته المقربون يعلمون الناس مما علمهم ويضربون الامثال فى البذل ، حتى لقد أراد أحد المسلمين أن يكفر عما كنز فسأل أبا بكر : كم تجب الزكاة فى مائتى درهم ؟ •• فقال له أبو بكر : « خمسة دراهم •• أما نحن فيجب علينا بذل الجميع » ••

وفى تلك الايام التى سادتها الرغبة فى المتاع بما كسب المسلمون من غنائم ، شن محمد حملات قاسية على الغنى ، ومن أجل المساواة ، حتى لقد رجع غاضبا من على باب فاطمة حين رأى ستارا موشيا على الباب وخاصمها الى أن باعت الستار وتصدقت بثمنه وخاصمها مرة أخرى

لانه رأى فى يديها سوارين من فضة وفى المدينة فقراء وباعتهما بدرهمين ونصف وأرسلت الثمن الى أهل بيت بهم حاجة ! •• وشن حملة المساواة نفسها على الوفود التى أقبلت تجدد البيعة •• وعندما كان يستقبل اخر هذه الوفود والراية الواحدة ترتفع أمام عينيه على شتات القبائل المتفرقة ، والفرحة تغمر قلبه بآخر انتصاراته ، أقبل من بيت مارية من يطلبه •• ان ابنه الوحيد ابراهيم يعانى وطأة مرض غريب •• !

ومات ابنه ابراهيم على ذراعيه •• الطفل الذى طالما علق عليه كثيرا من الامال •• وسالت دموعه •• دموع أب لم يعد له أمل فى أن ينجب ولدا اخر بعد !

لماذا يجب أن يحدث له مثل هذا ؟ ولكنه قال فى استسلام مذعن : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يحزن الرب ولولا أن الموت وعد صادق وموعد جامع ، فان الاخر منا يتبع الاول ، لوجدنا عليك يا ابراهيم وجدا شديدا ما وجدناه انا لله وانا اليه راجعون •• »

وخرج يشيعه حتى القبر ، فى صمت فاجع ودمعه يسيل •• وعجب بعض أصحابه لبكائه هذا •• ان الميت طفل صغير وهو •• هو الشيخ الذى يقترب الان من الثالثة والستين ، هو بكل جلاله لا يليق به أن يبكى !!

واقترب منه عبد الرحمن بن عوف وقال مستنكرا : « أولم تكن نهيت عن البكاء ؟ » ••

وأجابه : « ما عن الحزن نهيت ، وانما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء •• وان ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة » ••

وسوى التراب على جثمان الطفل ، ووقف الاب الثاكل

يصلى عليه ٠٠ وكسفت الشمس ولم يعد للنهـــار لون الضياء ٠٠ وعندما انتهى من الصلاة سمع الناس يتناجون وهم عائدون به الى المسجد : ان الشمس كسفت حزنا على موت ابراهيم ٠٠ لا ٠٠ يا أيها الناس لا تلصقوا بي ما ليس لى ٠ وقال لهم مغضبا : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » ٠٠ يأيها الناس لا ترفعوني فوق مكانى ٠٠ لا تطرونى ٠٠ « انما أنا بشر مثلكم » ٠٠ « وانى لاكره أن أتميز عليكم »

وعاد الى بيت مارية، الام الثكلى فواساها ، أما هو فلم يفلح أحد على الاطلاق فى تخفيف لوعته على ابراهيم

على أنه لم يعتزل الناس ، بل خرج الى المسجد ٠٠ منهكا هذه المرة ٠٠

عاد يحدثهم عن الحياة والموت والعدل والرحمـــــة والاخاء ، ثم يسكت قليلا ليمسح دمعة خضلت لحيته ٠٠ ما رؤى حزينا من قبل كما رؤى فى تلك الايام ٠٠ لماذا أصبح للحياة رنين مؤس كالوداع ٠٠ ؟

والالم الذى عرفه منذ سم خيبر يعاوده من جديد ٠٠ ولكنه لا يريد أن يستسلم لاية آلام ٠٠ لا لآثار السـم التى تنهشه فى بطء ولا للاحزان التى تعصر كبــده بقسوة ٠٠ ان هؤلاء الناس العديدين من المدينة ومكـة وكل مضارب الخيام وكل الاطراف البعيدة ٠٠ انهم فى حاجة الى اجتماع ضخم يتلاقون فيه تحت راية واحـدة يفعلون معا نفس الاشياء بنفس الايمان ليعمق فيهم الشعور بالوحدة ٠٠

انهم جميعا ٠٠ هؤلاء الذين يتحمل هو مسئولياتهم لفى حاجة الى تدعيم التعاليم التى جاء بها ٠٠ وأعلن أنه سيخرج الى الحج من عامه هذا ٠٠ وسالت الجبال والوديان

بعشرات الآلاف من الحجاج يسوقون أمامهم الالاف من الهدى سالت بهن الاباطح ..

والتقى الجميع فى مكة .. وأخذ محمد كل زوجاته ، وتقدم أكثر من مائة ألف من الحجاج ليلتقوا به فى مكة ، وهو أمامهم يعلمهم الشعائر التى يجب أن يتبعها الرجال والنساء على السواء .. يعلمهم الاحلال والاحرام ويشرع من خلال ما يأمر به زوجاته ما يجب على المرأة الحاجة ..

ومن على قمة الجبل ارتفع صوت أكثر من مائة ألف مسلم لاول مرة يردد نفس الكلمات « لبيك اللهم لبيك .. لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة والشكر لك لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك »

وطاف أمامهم وسعى أمامهم .. وهم من ورائه يصنعون نفس الاشياء .. ويقولون نفس الكلمات ، باحساس جديد خارق ، بأن ثمت ما يجعلهم أمة واحدة

وعندما انتهت مراسم الحج عاوده الالم والحزن من جديد .. لم يكن حزنا على ابنه الراحل هذه المرة ، ولكن شيئا فى أعماقه ملأه بأسى الوداع .. لكأنها حجة الوداع ، لكأنه لن يرى هؤلاء الناس، ولا هذه الاماكن مرة أخرى..

وغلبه الالم .. ولكن ما زالت فى الاعماق منه أشياء يريد أن يقولها للناس .. والتف الناس من حوله .. مائة ألف جاءوا من كل مكان فى الجزيرة يريدون أن يروه وأن يسمعوا صوته .. ان لصوته رنة من السماء ، فيقول : « انما أنا بشر مثلكم »

ولكن همسات الآلاف تبلغه : « ان فى وجهه نورا من الغيب ، ويده تمس الصخر فيتفجر منه الماء » . ولكنه حين يسمع هذا يغضب وينفر العرق من جبهته وينهى الناس عن أن يضيفوا اليه ما ليس له .. انه يقول :

« انما أنا بشر مثلكم » .. بشر يحب الطيب والنساء وقرة عينه فى الصلاة ! ..

بشر جاء بمكارم الاخلاق .. هكذا يقول دائما .. وانه ليضحك ويبكى ويأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ، ويستشير الناس كيلا يخطىء ، وينزل عند رأى الغالبية ، ويغضب ويرضى . ويرفض أن يقبل يده أحد ، انه بشر لا يفجر الماء ولا يضىء الظلمات.. بشر من لحم ودم وأعصاب وانما جاءكم بمكارم الاخلاق .. فلا تغضبوه أيها الناس .. لا تقولوا له سيدنا فانه ليغضب من هذه الكلمة وينهى عنها

وهدأت حركة الاعناق المتطلعة اليه .. هذا الرجل الذى يؤاخى بين العبيد والسادة ، وبين المساكين والملاك الكبار ويجعل من الصدق والامانة والوفاء دستورا للعلاقات بين الناس ، ويضع كل بريق خاطف زائف تحت قدميه ، ويؤكد دائما أنه بشر كالاخرين !

وارتفع صوته يخطب الناس الذين أقبلوا من كل مكان ليحجوا معه ، وليروه ويستمعوا اليه .. ولكن صوته لم يبلغ الناس ، فأمر أحد الذين وقفوا الى جواره أن يردد ما يقوله بصوت مرتفع .. وليردده ثالث ورابع وآخرون حتى يسمع الناس جميعا ، وعبرت كلماته من رجل الى رجل : « أيها الناس اسمعوا قولى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا »

ووجم الناس .. لعله لا يلقاهم بعد عامه هذا أبدا ؟ . أممكن هذا ؟ .. ولكنه يقول لهم دائما « انما أنا بشر مثلكم » « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »

وارتفعت الاصوات بكلماته : « ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وانكم ستلقون

ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها وان كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .. قضى الله أنه لا ربا ، وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع . وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع .. أما بعد أيها الناس فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقـا .. استوصوا بالنساء خيرا فانهن عنـدكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا وانكم انما أخـذتموهن بأمانة الله .. فأعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت .. وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا .. أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ؟ اللهم أشهد . »

وسكت قليلا ودهمته حمى مفاجئة ، ولكنه تلا عليهم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

ومال الى الكعبة فجلس فى ظلها .. وهناك وجد مظاهر الغنى تبدو على بعض الناس ، ومظاهر الفقر تميز الباقين

وجاءه أبو ذر فوجده يتلو : والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعـذاب أليم » . ثم مال الى أبى ذر وصاح : هم الاخسرون ورب الكعبة » فسأله أبو ذر من هم فقال : الاكثرون أموالا .. ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم مما كانت وأسمنه تنطحـه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس ..

وقام فى طريقه الى المدينة •• وانصرف الناس الى بلادهم يفكرون فيما سمعوه

وعندما بلغ المدينة استقبله أهلها ، وتدفق عليـــه الاطفال •• ونزل من على ناقته فسلم على مستقبليه وداعب بعض الاطفال وأركبهم على ناقته ••

ودخل الى بيت زوجته زينب بنت جحش يستريح ••

كانت نفسه تفيض بالرضا مما رآه فى موسم الحج •• هذه الآلاف العديدة من كل الجزيرة العربية •• يجب الا يكون فى الجزيرة دينان ••

غير أن الروم على الحدود الشمالية يهددون الامة الجديدة ويفرضون الاساليب الوحشية على العلاقات بين الناس•• ما زال السادة هناك يبطشون بالضعفاء ••

فلتتحرر أمته من تهديد الروم •• ليسر جيش جديد الى سوريا حيث سقط زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب منذ سنين •• ليقتحم الجيش أسوار دولة الروم وليضع حدا لتهديداتها الدائمة وليحرر الانسان المعذب هناك !

وأمر بتجهيز الجيش وجعل عليه أسامة بن زيد بن حارثة .. انه لجدير بأن يثأر لأبيه ولكل شهداء مؤته .. ان حربا مثل هذه لفى حاجة الى شباب يندفعون بالحرص على الاستشهاد يؤجج حماسهم حب الحرية ..

وملأ الجيش بالشباب ووضع فيه كثيرا من القـــادة المجربين تحت امرة أسامة وتعالت الاعتراضات تطعن فى هذا الاختيار ..

وارتفعت أصوات تطالبه بألا يبعث مثل هذا الجيش تحت قيادة شاب فى العشرين . ولكنه واجه الاعتراضات قائلا : « أيها الناس انفذوا بعث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى امارته ، لقد قلتم فى امارة أبيه من قبله وانه

لخليق للامارة وان كان أبوه لخليقا بها »

ولم يكد الجيش يخرج من المدينة حتى سقط محمد مريضا ، وعلم أسامة أن محمدا لا يستطيع أن يخرج الى الصلاة . فآثر أسامة أن ينتظر قرب المدينة حتى لا ينتهز المنافقون المستخفون فرصة خروج الجيش ومرض محمد فيحدثوا انقلابا فى المدينة

وقرر أن يعاود السير حين تصله أنباء مطمئنـــة ..

وقـــام محمـــد من بيت زينب بنت جحش الى بيت ميمونة صاحبة النوبة .. ولكنه شـعر بحالته تسوء فاستأذنها أن يرقد فى بيت عائشة .. وجر قدميه الى بيت عائشة مستندا الى عمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب ولقيته عائشة وقـد عصبت راسها بمنديل وشكت له من المرض

فغالب ضعفه وقال مبتسـما : « وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ » فصاحت عائشة مغضبة : « ليكن ذلك حظ غيرى والله لكانى بك لو قد فعلت ذلك لقـد رجعت الى بيتى فاعرست فيه ببعض نسائك » ..

وضحك .. وضحك العباس وعلى .. وكانت هـذه أول مرة تعرف البسمة طريقها الى شفتيه منـذ مات وحيده ابراهيم

وأقبلت ابنته فأجلسها الى جـــواره على الفـــراش قائلا : « أهلا بنتى » . ومضى يداعبها كما كان يصنع معها وهى طفلة .. وقضى أياما فى بيت عائشة يشكو من آلام الكبد وارتفاع الحرارة ، وفاطمة وعائشة الى جواره يرطبان جبهته وأطرافه بالماء ..

وأمر أن يصلى أبو بكر بالناس ، ولكن عائشة راجعته خشية أن يظن الناس أنها هى التى أثرت عليه أن يختار

أبا بكر فنهرها معرضا بالنساء جميعا : « أنتن صواحب يوسف »

وصلى أبو بكر بالناس .. وشعر محمد أنه يستطيع أن يمشي فى البيت ، وكان بيت عائشة ككل بيوت زوجاته يفضى الى المسجد .. ووقف بباب البيت واذ رأى الناس يتفرجون أشار اليهم أن يستمروا ودخل بيته . ولكنه أنس فى نفسه العافية ذات صباح فطلب من أصحابه أن يساعدوه حتى يلقى الناس بالمسجد

وجلس على المنبر يقول : « أيها الناس ، من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منى ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى »

وطالبه رجل بثلاثة دراهم فأعطاها له قائلا : « الا أن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » . ثم أوصاهم بالانصار ، وأوصاهم أن يكون الاخاء دائما هو ما يسود علاقاتهم وأن يعاملوا كل من يدخل فى الاسلام كما يتعاملون فيما بينهم .. وأوصاهم بالصلاة والزكاة !

لقد جاءهم بكل شيء فيه صلاحهم وجعلهم أمة واحدة تحت راية واحدة تؤمن بالله واحد ودين واحد وقيمواحدة

وناشدهم العدل فيما بينهم وعلمهم أن « يوم الوالى العادل أفضل من عبادة سبعين عاماً » وعلمهم : « ان من اخذ شبرا من الارض ظلما فانه يطوقه يوم القيامة سبع أرضين » .. وعلمهم الجهاد من أجل تحرر الانسان وقال لهم : لكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الجهادفىسبيل الله

علمهم الصدق وأن شهادة الزور هى أكبر الكبائر « وكبرت خيانة عند الله أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت له كاذب » . ونهاهم عن البخل وسوء

الخلق .. وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ..

علمهم مقاومة الظلم ، وقال لهم : « اذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » .. وحذرهم من أمراء يكونون بعده « يكلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولا أنا منه

ونهاهم عن الرشوة : « من شفع شفاعة لأحد فاهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى بابا عظيما من ابواب الكبائر » . وعلمهم أنه : « ما ينبغى لمؤمن يكون بخيلا ولا جبانا » . وحذرهم من الرياء : « انى تخوفت على أمتى الشرك أما انهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا ، ولكنهم يراءون بأعمالهم » .. وحضهم على طلب العلم وقال لهم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » « العلماء ورثة الانبياء »

وطالبهم بأن يكونوا أحرارا أمام الحياة .. وأن يمارسوا حرية العمل .. ولام الذين يقولون ان الانسان مجبر مسير ، لا اختيار له فتلا عليهم آيات تسخر من هذا القول : « .. لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء .. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » ..

الانسان حر .. وعمله هو الذى يشكله .. هذا هو ما جاءهم به .. الصدق والبر ورعاية الوالدين ، ومكارم الاخلاق ، والرحمة ، والعدل والمساواة والشجاعة والكرم ، وحق الانسان فى الحرية وواجبه المقدس فى الدفاع عن المستضعفين ، وعن حرية الآخرين

كل هذا جاءهم به خلال ثلاثة وعشرين عاما ..

لكم عانى فى سبيل اقرار كل القيم التى جاءهم بها ، وكافح من أجلها ، حتى أصبحت دستورا لأمة واحدة كانت من قبل قبائل متنافرة !

وأجهده الكفاح الطويل .. وعاد السم الذى دسه اليهود فى طعامه بخيبر ، ينوش كبده من جديد !

ودخل بيت عائشة من الباب المفضى الى المسجد .. ولكنه لم يكد يبلغ فراشه ، فقد أغمى عليه .. حتى اذا أفاق وجد أصحابه من حوله فقال : « ائتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا »

وأشار عمر الى الحاضرين الا يتحركوا قائلا : « قد غلبه الوجع وعندكم القرآن .. حسبنا كتاب الله »

وتناقش الحاضرون وارتفعت أصواتهم .. فأشار اليهم أن ينصرفوا .. على أنه أنفق أياما شعر فيها ببعض العافية ، وأمر أصحابه ان ينصرفوا الى شئونهم الخاصة

فانصرف أبو بكر الى بيت له بخارج المدينة ، وذهب كل أصحابه الى مزارعهم ومتاجرهم الخاصة .. وبقيت عائشة وحدها ورأسه فى حجرها ، وهى تمسح وجهه بالماء البارد لتخفف الحمى .. واذ برأسه يثقل فجأة !

ارسلت عائشة تستدعى أباها ، وبقية الزوجات .. ووافتها حفصة بنت عمر ، وكلمتاه فلم يجب

وقامت عائشة تصرخ وتستغيث .. وأقبل عدد من المسلمين .. والتفوا حوله ، وتردد أنفاسه « أوصيكم بالصلاة .. والزكاة .. وما ملكت أيمانكم .. »

ثم أغمض عينيه الى الأبد ..

وارتفع الصراخ : مات رسول الله .. مات محمد

وازدحم البيت بالرجال ، والنساء يلطمن الخدود ، والصرخات ترتفع

مستحيل أن يموت ! .. من كان مثله لا يمكن أن يموت !.. يجب ألا يموت !.. هذا الرائد الغريب الذى حقق معجزة الانسان .. ولكنه كان يقول دائما : انما أنا بشر مثلكم ـ بشر يمرض ويموت .. هو يموت ؟!

وأقبل عمر من بعيد يصرخ فى الناس ويهدد الذين قالوا ان محمدا قد مات ! .. ولكن محمدا قد مات !

جاء أبو بكر .. فارتمى على جسده وقبله والدموع تنهمر على الفراش وهو ينوح : « بأبى أنت وأمى .. ما أطيبك حيا وميتا »

وذهل عثمان فهو يراح به ويجاء ، مايطيق أن يتكلم .. وتهاوى على بن أبى طالب فما يقوم من مكانه ..

وارتفعت أصوات غريبة .. لو أنه كان نبيا صادقا حقا لما مات .. ! ولكنه قد مات

ووقف أبو بكر وصوته يفيض فى الدموع يذكر الناس بما علمهم محمد : « انك ميت وانهم ميتون » .. « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »

وأفاق عمر وهو يسمع كلمات أبى بكر فقال : « والله لكأنى لم أسمع بهذه الآيات قبل الآن » ثم خر على الارض يطلق نواحه آلفاجع .. ان محمدا قد مات

واستمر أبو بكر يقول : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت »

نعم .. ان محمدا قد مات .. وقد ظل يقول لهم : « انما أنا بشر مثلكم »

ولكن الذى جاء به محمد يجب الا يموت .. فليقف هؤلاء الذين ترنحهم الصدمة .. وليمسك أبو بكر الشعلة بيد ثابتة كى لا تنطفىء أبدا !

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص.ب ٢١

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

نيجيريا :
Mr. Mohamed Said Mansour
Atlas Library Company,
26, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA



هذا الكتاب

انا لا اقدم كتابا جديدا فى السيرة ، فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمه والحديثة ، ولكنى اردت ان اصور قصة انسان اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم وأحلامهم ، وكونت تعاليمه حضارة زاهرة خصبه اغنت وجدان العالم كله لقرون طوال ..

لسنا فى حاجة الى كتاب جديد عن الدين يقرأه المسلمون وحدهم ولكننا فى حاجة الى مئات من الكتب عن التطور الذى يمثله الاسلام ، كتب يقراها المسلمون وغير المسلمين .. انها لمحاوله اقدمها ـ اولا ـ الى غير المؤمنين بمحمد راجيا ان يتناول القارىء ـ مهما تكن عقيدته ـ هذا الكتاب بنفس الروح التى كتبته بها .. داعيا الله ان ييسر كتابى هذا الفائدة لمن يقرأه

(المؤلف)